بيضة النعامة

رءوف مسعد



مكتبة مدبولى

MADBOULI BOOKSHOP مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Tel: 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة – ت: ٥٧٥٦٤٢١

المحتويات

إهداء

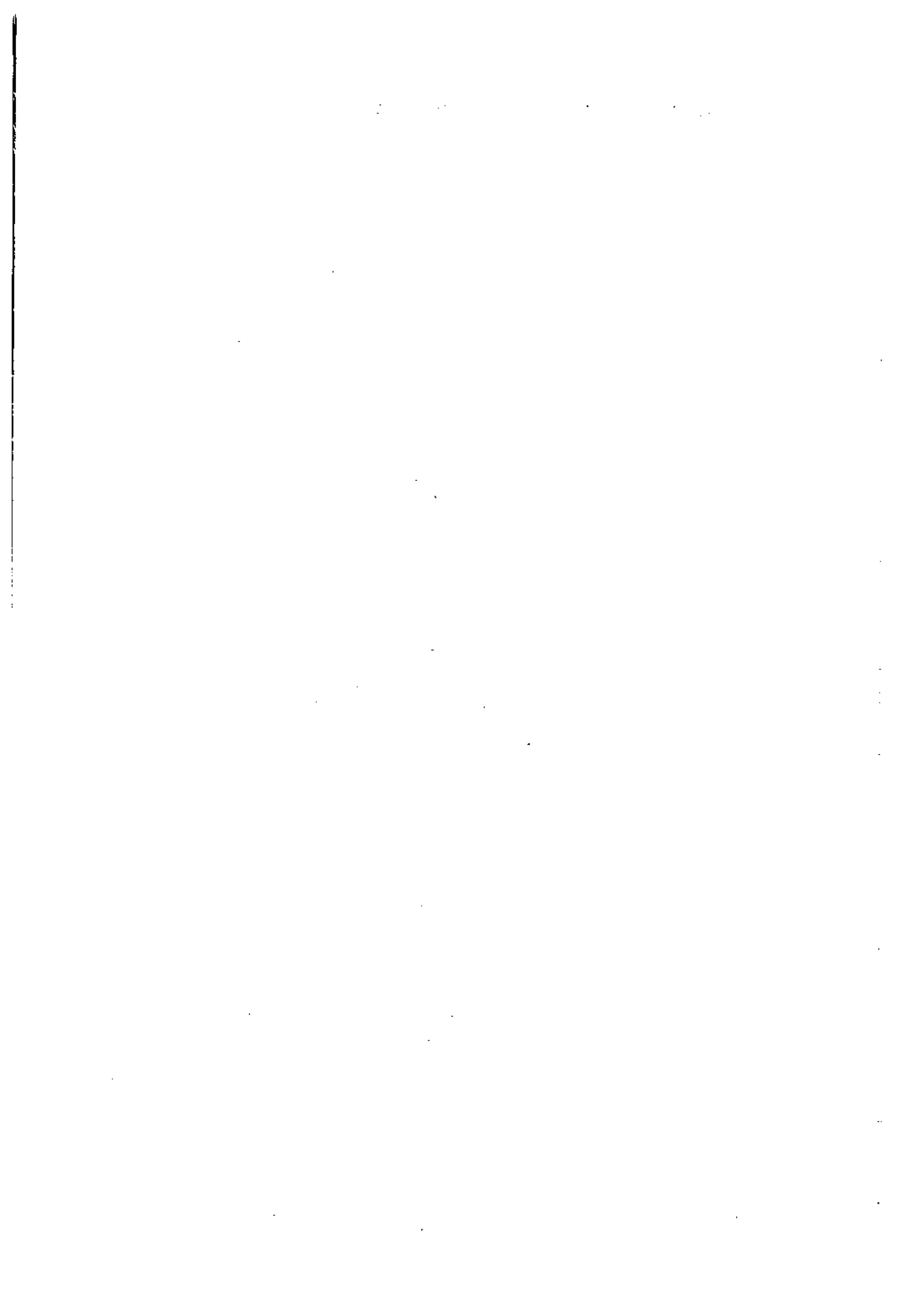
إلى زوجتي ورفيقتي
أنَا ماريكا..

وشكر

بالطبع! لايحب المؤلفون شكر ناشرين لكني أود هنا أن أشكر ناشري الأول الأستاذ رياض الريس مؤسس منشورات رياض الريس ثم أود أن أشكر ناشري الثاني الحاج مدبولي مؤسس مكتبة مدبولي.

إن كليهما نشر لي بيضة النعامة متحدياً ميكانزم وقواعد النشر. أتاح الأول لي معرفة القراء بي. ويتيح الثاني لي استمتاعي بمعرفة القارئ!

أو أن أشكر أيضاً أصدقائي محمد عودة وسعد هجرس وكمال القلش وفاطمة الطناني وأحمد هشام عبد القادر وغيرهم ممن آزروني ساعة الحاجة ووقت الضيق..



مقدمة

أدهشني صديقي رءوف عندما طلب مني أن أكتب مقدمة لـ"بيضة النعامة" في طبعتها الثانية.

دُهشت..! فما المناسبة أن أكتب المقدمة، ربما يميزني عن غيري أنني صديق "عتيد" كما يحب صديقنا صنع الله أن يصفنا أنا أو رءوف.

وقد تعودت دائماً عندما أُكلف بأمر ما أو بعمل أي شيء في الحياة فأول ما يخطر ببالي وأول فكرة تسنح لي هي الهروب والنكوص والاعتذار، فإذا ما سدت كل الطرق التي سأهرب منها عندئذ اضطر إلى الانصياع.

ما العمل إذن؟ تذكرت أنني كاتب مقدمات "عتيد" فقد كتبت لكتابنا المشترك إنسان السد العالي مقدمته، وكتبت مقدمة لكتاب آخر صدر لي في الستينيات، وربما كتبت مقدمات لا أذكرها، وكتبت لأول رواية لصنع الله إبراهيم "تلك الرائحة" مقدمة يسميها صنع الله "مانيفستو" ووقع عليها رءوف وعبد الحكيم قاسم.

قلت فلأسخن نفسي وأقرأ المقدمة التي كتبها صنع الله لـ"تلك الرائحة" (الطبعة الثالثة أو الرابعة على ما أظن) ووقعت النسخة في يدي دون أي مجهود. وبدأت في قراءتها، وضحكت بصوت عال على سذاجة ما كتبته أو هل يمكن أن أقول: ما أشبه الليلة بالبارحة.. والبارحة هنا تمتد إلى الوراء أكثر من ثلاثين عاماً، وكأن هذه الأعوام لم تفعل شيئاً جوهرياً ـ وبرغم كل شيء فقد أضحكني وفاجأني المانيفستو كثيراً وسأنقله لك من مقدمة صنع الله:

"... وبكلمة موجزة على الغلاف أشبه بالمانيفستو وقعها كمال

القلش ورءوف مسعد وعبد الحكيم قاسم هذا نصها:

إذا لم تعجبك هذه الرواية التي بين يديك، فالذنب ليس ذنبنا. إنما العيب في الجو الثقافي والفني الذي نعيش فيه، والذي سادته طوال الأعوام الماضية الأعمال التقليدية والأشياء الساذجة السطحية.

ومن أجل كسر المناخ الفني السائد الذي تجمد، نصمم على هذا النوع من الكتابة الصادقة المؤلمة أحياناً.

وفي هذا الإطار نقدم هذه الرواية للكاتب الجديد صنع الله إبراهيم، وبعدها سنقدم مسرحية "السود" لنبيل بدران وقصص قصيرة لكمال القلش وأحمد هاشم الشريف وعبد الحكيم قاسم ومسرحيات لرءوف مسعد وقصائد لمحمد حمام وهذه الأسماء التي لم تتعودها ستقدم لك فناً لم تتعوده أيضاً، فناً يعاني محاولة التعبير عن روح عصر وتجربة جيل.

عصر اختفت فيه المسافات والحدود ـ وتفتحت فيه آفاق رائعة، وتهددته الأخطار، وانهارت فيه الأوهام، ونفذ فيه الإنسان إلى حقيقة الوجود.

جيل ولد في ظل الملكية والإقطاع وخرج في المظاهرات التي هتفت بسقوط الملك والإنجليز ثم تفتح وجدانه على ثورة يوليو وعاشها بالوعي والفعل، وشهد انهيار الملكية والرأسمالية وقيام الاشتراكية، كل هذه العمليات الهائلة في سنوات قليلة. لهذا جاءت تجربته غنية عميقة مليئة بكافة التناقضات والأزمات، زادت معرفة ووعياً بوجوده، وتطلبت في التعبير كل جرأة وجدة حتى تتجسد إبداعاً خلاقاً.

هذا هو الطريق الذي اخترناه."

لقد مضى على هذا الكلام أكثر من ثلاثين عاماً امتلأت بالأحداث العامة والخاصة وكلها خطيرة أوْجَعُها رحيل عبد الحكيم قاسم ونبيل

السلمي وجلال السيد والعشرات من الزملاء والأصدقاء الحميمين ـ سبقونا بربع ساعة (!!)

ومن الناحية السياسية عشنا اكتمال الدائرة عشنا ازدهار الاشتراكية وصعودها بأول قمر صناعي وأول رائد فضاء سوفييتي إلى عنان السماء وهبوطها بل وتلاشيها من أكبر مركز لها في الحياة الإنسانية ـ وها نحن نتسلل إلى قرن جديد وبداية الألفية الثالثة بعد ميلاد المسيح.

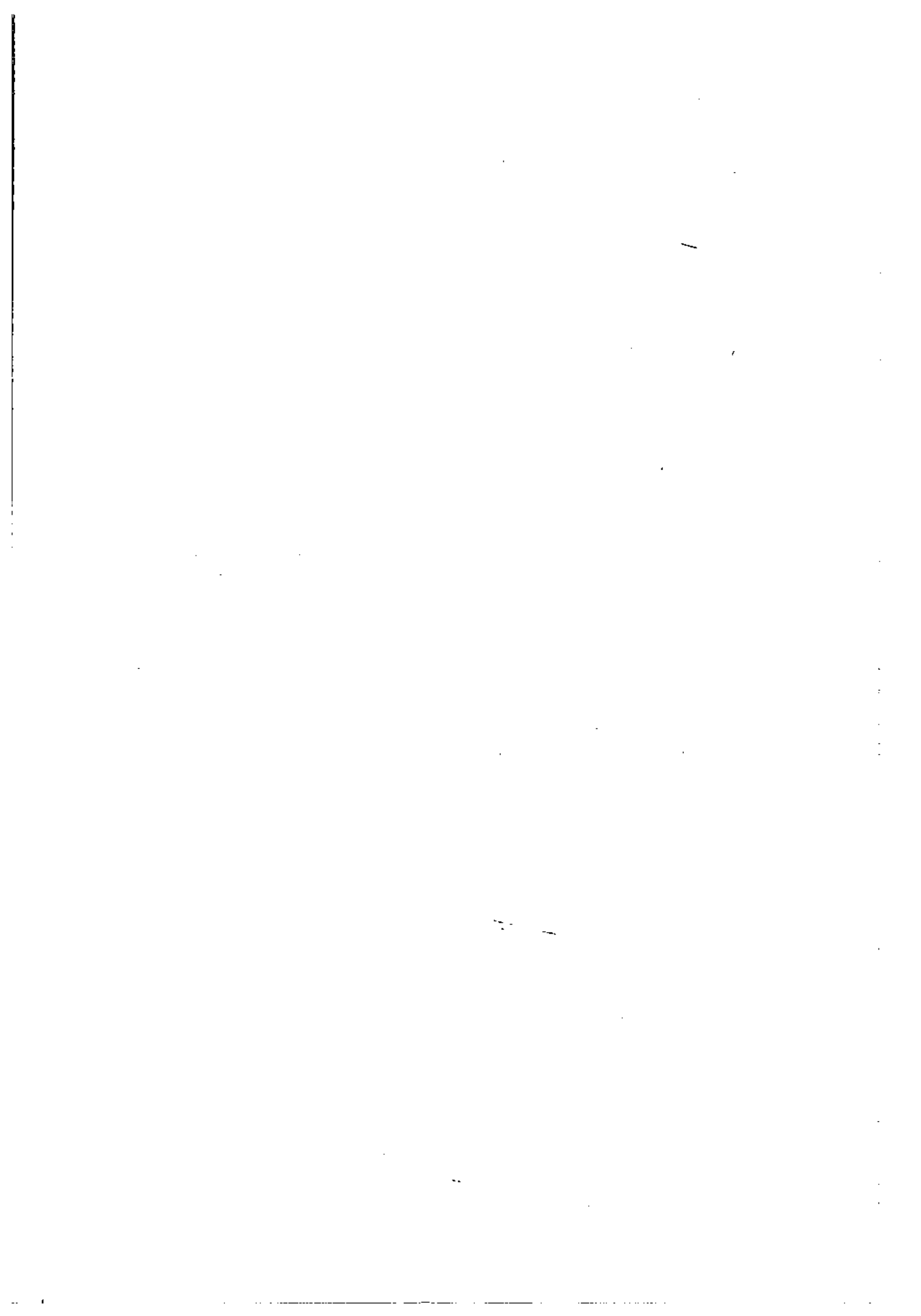
هذا كله عبر عنه بقوة كل إنتاج صنع الله وعبد الحكيم قاسم وها هو رءوف ينضم بعمل يضعه على الفور في الصف الأول الذي يحتله كبار المبدعين، هذا العمل الذي مزج فيه رءوف بين حياته الشخصية وطموحاته واهتماماته العامة وما جرى في بلادنا ـ وألقى الضوء بقوة وهو يحكي بيضة النعامة على الحياة الداخلية للأقباط الذين يجاوروننا في العمل والسكن والشارع والصداقة والحياة ولانعرف عنهم غير القشور.

كتب رءوف بعد أن نضج واستوى في القاهرة ووارسو وبيروت وقبل كل ذلك في السودان.

إن المانيفستو الشهير الذي ينتهي بهذه الجملة الصارمة: هذا هو الطريق.. وأقول بل هذه هي الحياة، وحياتنا هي طريقنا، والفن هو المتعة والجاذبية فإذا كان يشدك ويجذبك ويمتعك فهو فن. وهذه المتعة وهذا الفن يضيف إليك القدرة ويعطيك القوة.

وإذا غمرتك "بيضة النعامة" بالفن والمتعة، إذن فهذا هو الطريق الذي اختاره لك رءوف مسعد قبل نهاية هذا القرن بلحظات!

محمد كمال القلش ـ أبريل ١٩٩٩



الحكاية الأولى

المطاردة

أسند الخادم مكنسته المصنوعة من زعف النخيل على الكرسي ووقف خلف الولد الذي كان منحنياً يتصفح كتاباً مصوراً. حركة الخادم خفيفة لم يحس بها الولد. التصق الخادم به ففوجيء الولد وحاول أن يروغ منه لكن الخادم زنقه بين فخذيه واضعاً يده على فمه يسده والأخرى ترفع جلابية الولد. وهكذا حسم الخادم الموقف الذي كان يتنامى بينهما خلال أسبوع طويل من المطاردة.. الخادم لا يتجاوز عمره السابعة عشرة. يعمل في البيت من حوالى أسبوعين. أم الولد مشغولة في أرجاء البيت الواسع وهي تحاول أن تضع الولد دائماً تحت مراقبتها، لكنه كان يهرب منها، تنادي عليه فلا يجيبها. كانت أحياناً ترسل الخادم للبحث عنه. حينما يجده يتسلل إليه من الخلف ويحتضنه. أحياناً كان الولد يرفصه ويخمش وجهه. أحياناً أخرى كان يتجاهله فيظل الخادم يحتضنه ساحباً إياه ببطء باتجاه صوت الأم المنادي. حينئذٍ يتركه ويراقب الموقف عن كثب هل سيشتكيه الولد الآن؟ لكن الولد لم يشكه أبداً.

هنالك ذلك التواطؤ الصامت بينهما. الخادم يكتشف مكانه. يحتضنه. يجلسه أحياناً على حجره. الولد يتصرف في هذه الأحوال كأن شيئاً لم يحدث، لكنه يسحب نفسه في اللحظة الأخيرة.. قبل أن يضطر للاعتراف لعقله الصغير بما يحدث. حينما كان الخادم يفقد الأمل منه ويبتعد لبضعة أيام كان الولد يحس بالترك ويبدأ في مناغشته.. يحتك به.. يخبىء أشياءه ويلاحقه في أرجاء البيت، حتى هذا اليوم الذي حسم فيه الخادم الموقف وكسب الطراد. أحس الخادم للحظات قصيرة بأنه السيد.

محاولة أولى

منتصف الأربعينيات ونهاياتها

السودان ـ واد مدني(*)

يعرف الصائدون مكان قبيلة القرود في الغابة حيث يدلفون إليها يحملون جرار الخمر، وحينما يصلون إلى هدفهم يتحلقون حول جرار الخمر يعبون جرعات صغار ثم ينصرفون إلى مكان قريب وخلف الأشجار الكثيفة ينتظرون. حينئذٍ يهبط كبير قبيلة القرود متوجساً الى الجرار يتشممها ويدور حولها ويتقافز ويتزايط، ليبدأ في عب الشراب وتهرع إليه بقية أفراد القبيلة يتحلقون حول الخمر يعبون شرابهم حتى تنحل مفاصلهم ويتطوحون مثل البني آدميين السكارى. فيقفز إليهم الصائدون ويمسكونهم بسهولة ويسر ويعرضونهم للبيع.

(*) مدينة صغيرة في غرب السودان.

جنون تمساح

والدي يسافر مرة كل شهر من واد مدني ـ حيث نعيش ـ إلي جنوبي السودان، يحضر مؤتمرات.. يلتقي بالمبشرين الأجانب والقساوسة المصريين الآخرين ويحضر معه أحياناً مجموعة من أهالي الجنوب الذين تم تبشيرهم وتنصيرهم. من هؤلاء جاء تمساح الذي أصبح اسمه المسيحي يوسف. حزين الوجه نظيف الثياب «قميص مهلهل نص كم وشورت كاكي حائل اللون» ويوم الأحد يضع قدميه المفرطحتين داخل حذاء كوتش ماركة باتا. التحق يوسف التمساح بخدمتنا «البيت والكنيسة» لكنه أخذ يقضي معظم وقته في الكنيسة الخالية ينظف مقاعدها ويمسح التراب عن كتبها المقدسة، ولم تبال أمي، لكننا اكتشفنا أنه أخذ في أكل كتب التراتيل والإنجيل ثم بدأ في ابتلاع مسامير المنبر وصواميله. وهكذا جاء اليوم الذي شحنوا فيه يوسف التمساح في سيارة البوليس ـ فلم يكن في مدني أيامها إستبالية للمجانين، أو عربات إسعاف ـ واختفى تمساح وعلى وجهه دهشة بائسة.

أول اكتشاف

كيف خدمت امي الصعيدية الرب في الاعالي

في البداية لم يعش الأطفال طويلاً، هؤلاء هم أخوتي اللذين لم أرهم.. نذرت أمي للرب نذراً: إن عاش أطفالها فسوف تقدم بكريها للرب يخدمه ويصبح قسيساً مثل والدها وزوجها؛ وصدّقها الرب وترك لها أولادها، ولد وبعده بنت ووراءها ولد وبعده ولد «الذي هو أنا» ثم آخر العنقود، أختي الصغرى. لكن أمي أحبت بكريها وأرادت له أن يصبح «دكتوراً» كانت تحب أن يناديها الناس «يا أم الدكتور» لكنها تخاف من الرب أن يؤذيها؛ إن لم تف بنذرها (فهي تعرف قصص العهد القديم المرعبة عن البشر اللذين يتعرضون لنقمة الرب في الأعالي خاصة اللذين لا يوفوا بنذورهم) فقررت أن تبادلني بالبكري ولم أرفض أنا الفكرة ـ فكرتها ـ وهي أن الرب هو الذي يختار خدامه... كنت أرغب في هذا الامتياز الخاص: أن يشير الرب باصبعه إليّ مثلما أشار الرب الى الطفل صموئيل ومسحه نبياً. أيامها كنت في العاشرة من عمري وكنت أعيش مع أهلي في واد مدني، في بيت الكنيسة ـ أي بيت خادم الكنيسة ـ وهو عادة ملحق

بالكنيسة الحيط في الحيط.. والدي هو قسيسها.. خادمها. وهكذا ألقت أمي على كاهلي نذرها واحتفظت ببكريها الدكتور وتركتني للرب. الكنيسة مستطيلة الشكل سقفها محدب مائل على جانبي المستطيل نوافذها الطويلة خلف المنبر الذي يعظ من فوقه أبي، جدارها الأيسر هو حائط الصالة في بيتنا وثمة باب يفضي إلى الهيكل الداخلي يدلف إليه والدي من مكتبته بعد أن يستقر المصلّون في مقاعدهم. الجزء الأيمن وأنت داخل للستات، كان زمان يوجد بارفان ـ من المشربية ـ لكن أبي شاله. يصلي أبي بالرعية صباح الأحد ومساءه ثم مساء الأربعاء، ويقضي بقية أيام الأسبوع في تفقد شؤونهم وتذهب معه والدتي إلى معظم الزيارات التي تتم في الأمسيات. وهناك شيخ للكنيسة وهو من الأعضاء العاديين اسمه أيوب أفندي وله حدبة كبيرة (وهي وظيفة تطوعية تتم باختيار الرعية لواحد منها يدير شؤون الكنيسة الإدارية والمالية مع قسيس الكنيسة. وليس ما يقابلها في الكنيسة الأرثوذوكسية أو الكاثوليكية)، وهو متزوج من الأرنبة كما تسميها أمي لأنها تلد له بانتظام مرة كل سنة. وهو يعمل في بنك باركليز مما أعطاه الحق في أن يكون أميناً للصندوق الذي تتجمع حصيلته كل يوم أحد من طبق العطاء. (وهو طبق من القش كنت أنا أو أحد الأولاد ندور به على المصلين وهم في مقاعدهم نجمع «عطاءهم» أي تبرعاتهم.. وتستخدم هذه النقود الهزيلة لتغطية الاحتياجات الطارئة للكنيسة مثل إصلاح السقف القديم أو شراء لمبة كهربائية... إلخ).

ومكتبة أبي مليئة بالكتب، بعضها باللغة الإنجليزية والباقي

بالعربية. ثمة مجموعة منها وضع قسيس اسمه عليها باعتباره المؤلف بعنوان: خمس دقائق مع الأحداث، وعشر دقائق مع الأحداث حتى يصل الى ساعة ـ كاملة ـ مع الأحداث. وحين كبرت وقرأت الإلياذة والأوذيسة اكتشفت من أين أتت الدقائق.. لكن أيضاً كانت هنالك جزيرة الكنز وروبنسن كروزو وقصص كامل الكيلاني والكونت دي مونت كريستو. وهكذا كنت أعيش على استعداد حينما أكبر أن أنخرط في خدمة الرب.. مثل أبي.

قردنا الأول اشتراه أبي من صيادي القرود بالطريقة السودانية، يتطوح من السكر، فربطناه بحبل من حقويه ووضعناه فوق شجرة السيسبان التي في الحوش. أسفل الشجرة نربط المعزة في الظل الوسيع الرطب في العصاري حينما يحلبها والدي بعد أن يرجعها لنا الراعي الذي يتسلمها في الصباح الباكر ويرجعها قبل العصر وقد ثقل ضرعها باللبن.

حينما أفاق القرد من السكر أخذ يبكي مفزوعاً، لكنه بعد أيام قليلة استجمع ذكاءه الغاباتي وقرر أن يتخلص منا (كنا نضع الشطة في مؤخرته إذا رفض أن يجارينا في اللعب)، ولما أتيناه في الصباح وجدناه ملقى على الأرض لا يحركه نخس العصا فأخبرنا أمي التي اقترحت أن نفك قيده ونرميه في الخرابة المجاورة (كنا نريد نحن الأولاد أن ندفنه باحتفال ديني.. لكنها قالت لنا.. «حرام»).. وما أن فككناه حتى قفز زاعقاً إلى أعلى فرع في الشجرة ومنها إلى الجدار ومنه إلى الخلاء الفسيح. قالت أمي معلّقة على صدمتنا.. تستاهلوا أهو سابكو ومشي..

ننتظر ـ نحن الأولاد ـ فصل الخريف وسقوط الأمطار

الموسمية بقلب واجف، مثلما ننتظر الكريسماس وبابا نويل.. هل سيمتلىء النهر ـ البحر كما يسميه الناس ـ ويفيض في الشوارع المجاورة كما حدث من قبل، ويا ترى من سيسقط هذا العام في الخور الكبير الذي ستنداح إليه المياه حتى تملأه وتختلط مياهه بمياه الشارع والنهر المجاور.. فقد سقطت فيه البنت أنجيل بنت الخواجة صموئيل وهي راجعة من السوق ومعها قفة الخضار ـ وقد أنقذها المارة بالطبع ـ بعد أن انقطعت دكة لباسها الذي انتفخ وعام خلفها كالبراشوت. إن واد مدني مدينة وعاصمة إقليمية بها بنك باركليز ومركز للشرطة ومدرسة الاتحاد المصرية وثمة مدرسة أخرى ابتدائية مثلها ولكنها أهلية سودانية، وبها كنيسة للشوام ـ عرفت فيما بعد أنها مارونية ـ وكنيسة الإجريج (اليونانيون التابعون للكنيسة الغربية الأرثوذكسية). تتجاور الكنائس بما فيها كنيستنا في مثلث واحد أسماه الناس شارع الكنايس.. حيث لم تكن توجد أيامها أسماء للشوارع (حتى في أيامنا هذه ما عدا القليل النادر) توجد أيضاً الإنداية وهو بيت لشرب المريسة المسكرة والموسسات. يسمونه أحياناً بيت البنات؛ يقع كالعادة في أطراف المدينة السودانية. بالقرب منه يوجد بيت المبشرات ومهمتهن بالطبع تبشير السودانيات بالمسيحية. وهن خليط من سودانيات ومصريات لكن رئيستهن إنجليزية واسمها ميس مايل. سكّان الحلل المجاورة يقدمون إلى مدني للتجارة وللسكر ولمضاجعة البنات في الإنداية.

أجلس في العصاري على عتبة بابنا المفتوح على الشارع أراقب المروحين. بعض الأولاد يقفون في الشارع بمواجهة

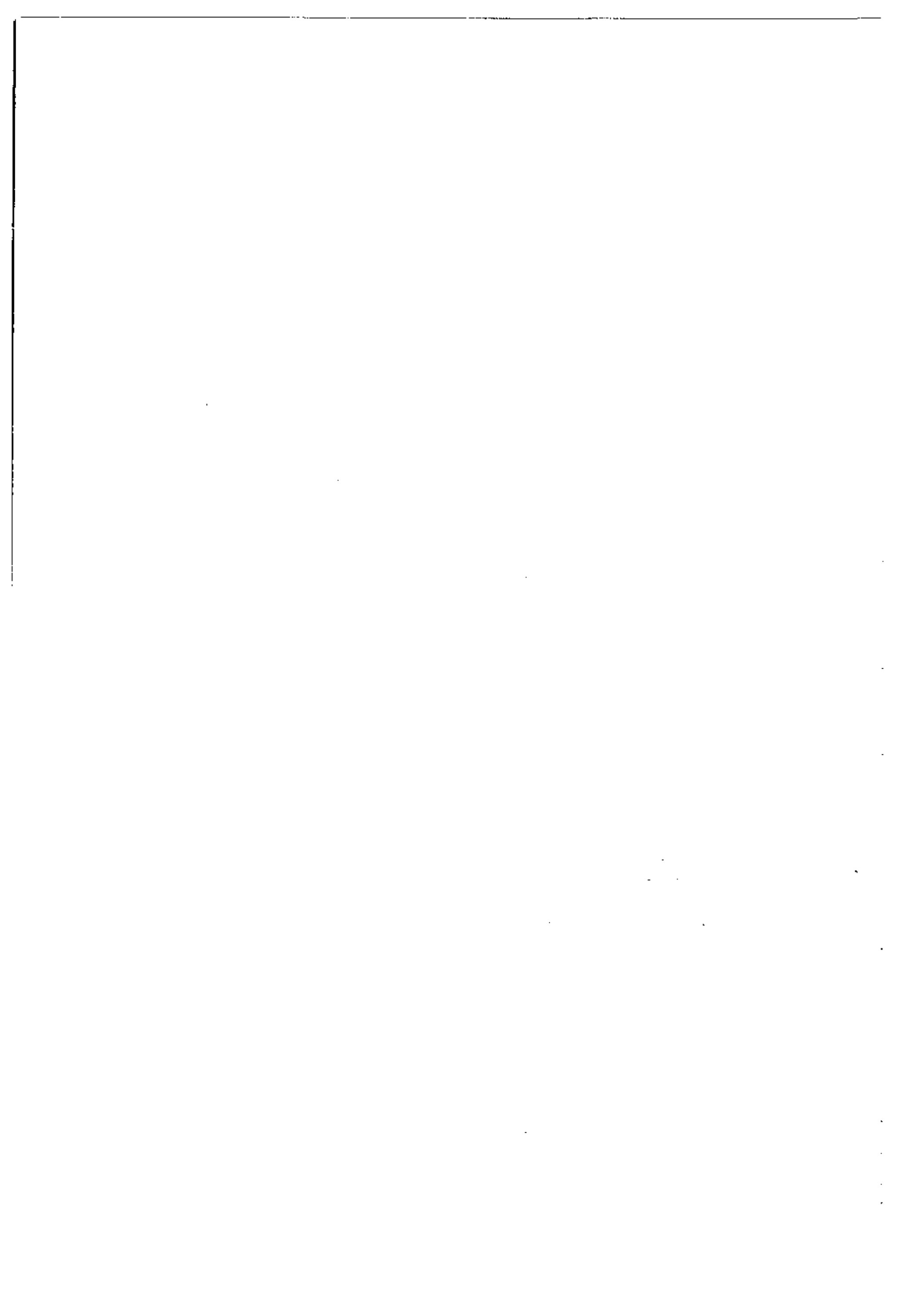
الكنيسة ويصفقون.. أراقبهم بدهشة وهم يرسمون علامة الصليب بأقدامهم على الأرض. أنظر إليهم مأخوذاً.. أعرف بعضهم من المدرسة.. بعضهم يمسكون أعضاءهم التناسلية بأيديهم ويتراقصون ويصيحون: النصارى حطب النار. أبي يصلي بنا كل صباح بعد الإفطار ثم على طبلية الغداء وقد علّمنا أيضاً أن نصلي «أبانا الذي في السموات» بمفردنا قبل النوم وفي أسيوط في كلية الأمريكان وأنا أدرس في المدرسة الثانوية لاحقتني الصلاوات. قبل تناول الإفطار، وقبل الغداء وقبل العشاء ومساء السبت وصباح الأحد ومساءه ويومياً في الفسحة الأولى.. وبالطبع فهناك دائماً «الألفة» الذي يسجل الحاضرين والغائبين الذين سينالون العقاب... بالطبع تعلمت التزويغ حينما أصبحت الصلاوات ثقيلة على قلبي وتفننت في الهروب من العقاب. وقد ساهمت بسعادة في إفساد بنت القسيس إبراهيم الذي كان يدرّس لكل الفصول مادة اسمها اجتماعيات، الهدف منها توعية الأولاد بمضار العادة السرية ومساوىء الاشتراكية. بنت القسيس مثل الفرسة الهايجة تتسحّب من منزلهم ـ القريب من مساكن الطلبة ـ وتتجه إلى ترعة الإبراهيمية حيث تلتقي بالأولاد الكبار تحت ستر الأشجار الكثيفة.. وكان يسمح لنا نحن الصغار ـ بعد مفاوضات طويلة ـ بالوقوف على مقربة للفرجة وبالطبع كنا نقوم بالمراقبة. ترتدي دائماً فستاناً أحمر.. خطواتها سريعة ووجهها جاد وحلو.. لكنها ما إن تسترخي على الأرض وسط الأولاد حتى تنطلق ضحكاتها كأجراس الفضة، أو هكذا كنت أسمعها. أعبدها. كانت في حوالى السابعة عشرة من

عمرها السعيد.. أيامها وكنت أنا في الثالثة عشرة. وقبل مغادرتي الكلية وأنا أقترب من السادسة عشرة استخدمت الابتزاز لأول مرة في حياتي لكي أنالها (فقد كان القس إبراهيم يعطف على أولاد السودان في إجازة نصف السنة ويدعونا الى بيته)، هناك ـ حينا انتهزت ذات مرة فرصة وجودنا معاً ـ هددتها بأني سأحكي للقسيس عن تاريخها إن لم توافق على أن أنال نصيبي منها (كما قلت لها بوقاحة). فوجئت بها تشتمني (قالت لي إني سافل ومش متربي).. أعطتني الدرس الأول في التعامل مع البنات. قالت لي انها لا تمانع أن تنام معي ـ لكن بمزاجها ـ وفي الوقت نفسه مبدية دهشتها بأن يتصرف شخص مثلي ابن قسيس يدرس ليستعد لأن يصبح قسيساً بمثل هذه السفالة (وأضافت الجبن أيضاً) أزعجني كلامها.. لكن أزعجتني أكثر النظرات التي كانت توجهها لي أثناء الحديث.. نظرات السخرية والاحتقار. كنت أنا أتعامل معها بالطريقة التي أعرفها وتعلمتها من الأولاد الآخرين.. التهديد. لكن يبدو أن الأمر كان أكثر بساطة ـ أو تعقيداً ـ مما تصورت. فقد كانت خبرتها أكبر من خبرتي بكثير. كانت تحب أن تغازلني بجرأة وفي حضور والدها ـ طبعاً من تحت لتحت ـ حيث تمد قدمها أسفل الترابيزة ونحن نأكل وتتجول بها في الجزء الأسفل المتاح من جسدي مشتركة معنا في النقاش الجاد حول مستقبلي الديني كقسيس (أيامها كنت أحاول التملص من نذر أمي) وكانت هي ـ وساقها تعابثني ـ تشارك والدها في محاولة إثنائي عن رأيي. لكنها كانت أيضاً رحيمة حسب تعبيرها، إذ قدمت لي جسدها بكرم في حدود المتاح لعذراء مثلها. كانت

تحب أن نختلي ببعضنا في مكتبة والدها المليئة بالكتب الدينية. وقد التقيت بها بعد ذلك بسنوات كثيرة (في بغداد) مع زوجها المهندس. لم أتذكرها في البداية. كانت تشير ضاحكة ـ أمام زوجها ـ إلى أيام الكلية في أسيوط.. وكانت إشاراتها جريئة. لم أعرف أبداً أن أتعامل معها.

هناك أيضاً مسيو فوبير اللوطي مدرس اللغة الفرنسية والذي كان بحكم إقامته في الداخلية يشرف على السكن الذي أعيش فيه. سويسري متضرج الوجه، مكلبظ. يمور جسده صحة وعافية. كان أيضاً يجعل من ترعة الإبراهيمية الميدان الليلي لنشاطه.. فهناك المراكبية الصعايدة الأشداء الذين لا يرفضون وجبة شهية من اللحم الأبيض بعد أيام الضنك على المركب الشراعي.

أرجع في الإجازة الصيفية الأولى إلى البيت. كنت قد بلغت.. عرفت ذلك وأنا في الحمام أطبق عملياً ما رأيت من هذا النوع من النشاط الذي يمارسه الأولاد الكبار علانية ويقدمون دروساً عملية فيه. بالطبع لم أخبر أحداً، بل أضفت هذا السر الجديد إلى مجموعة أسراري. لكن أبي اكتشف سري من صوتي الذي فضحني. كان ذلك في المساء الأول لوصولنا من أسيوط إلى مدني في الإجازة الصيفية. قال شيئاً وهو يضحك إلى أمي جعلها تنكسف. انكسفت أنا أيضاً. وكرهت أبي ساعتها. كنت أريد أن يعاملني الجميع ـ وخاصة البنات ـ باعتباري الولد الصغير الذي يسمحن له بالدخول إلى غرفهن أثناء استلقائهن على الفراش أو أثناء تبديلهن لثيابهن.



محاولة ثانية

هل يمكن السير في مظاهرة بدون ملاحظة أرداف من أمامك من البنات؟

بغداد ـ ١٩٧٧

ثمة مظاهرة منظمة للاحتجاج على اتفاقية كامب ـ ديفيد التي وقعها أنور السادات. سرنا جميعاً باتجاه السفارة المصرية. المصريون الذين يعملون في العراق.. والطلاب الذين يدرسون هناك. رأيتها. كلا.. رأيت أولاً الردفين وقد تكورا خلف نسيج البنطال الفانلة الرمادي. كنت على بعض خطوات من مؤخرتها، فاقتربت أكثر لأرى وجه صاحبة الردفين. إنها يمامة التي تدرس في كلية الطب. أعرف والدها على خفيف. سألت نفسي مؤنباً لماذا لم أهتم بها من قبل. الردفان يقبلان ويدبران، يتلاطمان ويتراعشان، قلت لنفسي لو لم تكن تمتلك يمامة شيئاً سواهما لشفعا لها. (لكنها كانت تمتلك الوجه الصبوح والعيون الواسعة العميقة العسلية البريئة مما زاد في تعميق حسية جسدها الأنثوي). انتهت المظاهرة كما قدر لها. تفرقنا لكني

وضعت ذبذبتي في مجال جسدها. تبادلنا بعض الملاحظات. وجهها الخفيف السمرة يتضرج انفعالاً وينضح عرقاً يتجمع فوق شفتها العليا التي تبرز قليلاً فوق السفلى ويتحدّر فوق رقبتها ويلصق بلوزتها البيضاء الخفيفة على صدرها الصغير (بالنسبة إلى الردفين).. القدم صغيرة متناسقة مع الكفل. الفخذان معقولا الطول. الخصر نحيل متماسك. الظهر منسجم بانسياب ورائحة جسدها نظيفة ممتزجة برائحة انفعالها وتوترها وعرقها...

عرفت أنها سوف تذهب في المساء إلى نادي الطلاب المصريين فذهبت إلى هناك لألتقيها. أخذنا نلتقي بعد ذلك بذرائع تافهة. تواطؤ صامت ينمو بيننا. قالت لي إنها تحب زميلاً لها ـ عراقي أشوري ـ لكن أهله يجعلون حياتهما جحيماً وطلبت مني أن أساعدها في ترتيب المواعيد بينهما.. أن أكون أنا حلقة الاتصال التليفوني بينهما. كانت تعرف أني متزوج من بولندية وأنها تقيم حالياً في وارسو. كنت على استعداد لفعل أي شيء لأسبح في مجال ذبذبتها. أتلفن للولد وننتظره في ردهة الفندق العباسي. يأتي هو. أجلس معها دقائق ثم أنسحب كأي جنتلمان... لكننا كنا ـ أحياناً ـ نتهرب منه ونتسحب بعيداً عن الأعين التي تعرفنا. شيئاً فشيئاً بدأت مواعيدها مع صديقها تتباعد. في ذلك الوقت بدأنا نستعد للسفر إلى كوبا للمشاركة في مهرجان الشباب في هافانا، والصيف البغدادي يسقط علينا.. تطوعت هي لمساعدتي في تجهيز الأوراق للمجموعة المسافرة التي كنت أشرف أنا عليها، لهذا تحركنا كثيراً مع بعضنا. ذات ظهيرة حارة أوصلتني يمامة

بسيارة والدها إلى شقتي وقالت إنها تشعر بصداع. اقترحت عليها أن ترتاح بعض الوقت عندي. استلقت على الأريكة التي في الصالة وأدرت أنا جهاز التكييف ودلفت إلى المطبخ أعد لها كوباً من الشاي. كانت دموعها تنسال على خديها في صمت. ركعت بجوارها واحتضنتها. قبلتها (للمرة الأولى).. التهمت دموعها وشفتيها، دخلت هي في حضني. سحبتها بجواري على الأرض أمتد على كنوزها وهي تنهنه صامتة في رقبتي. لم أفعل شيئاً (ليس تمنعاً منها أو مني؛ فقد أحسست أن العلاقة بيننا الآن قد دخلت مرحلة جديدة). استعادت مرحها وحيويتها وقامت تتجول في الشقة حافية، بل إنها دخلت الى غرفة النوم ورتبت الفراش.

أخذنا نتحين الفرص للتواجد في الشقة.. ننضو عنا ثيابنا.. نأخذ دشاً بارداً نستلقي على الفراش تحت أزيز التكييف.. نكتشف بدون توغل.. فقد قررنا (باتفاق صامت) أن نغرز العلم وأن يكون اقتحام الدلتا في هافانا.. فما هو الضرر من قليل من الرومانسية التي سوف تضع جسدها في منطقة جديدة؟ (هكذا كنت أفكر). حكت لي يمامة عن علاقتها المعقدة مع أمها. فقد تورط والدها الخمسيني في علاقة مع سيدة تصغر زوجته. صارحها بل وطلب الطلاق. أصيبت الزوجة بانهيار عصبي ودخلت المستشفى. أعلنت يمامة بوضوح تعاطفها مع أبيها وحقه في الحياة مع من يريد. تطامن الأب في النهاية للضغط الاجتماعي وقطع علاقته بعشيقته ورجع صاغراً للزوجة. لك أن تتخيل موقف يمامة الآن! لعل يمامة كانت تبحث عن صورة الأب الضائعة فيّ.. كنت أكبرها بحوالى

عشرين سنة. كنت أتعامل معها منذ البداية بحنو وأتعاطف مع حبها للأشوري - رغم الغصة التي في قلبي - وكانت هي وحيدة حتى إبان علاقتها المبتسرة به. كنا نجلس ساعات طويلة أستمع إليها. لم أكن أتظاهر بالحنو عليها.. بالعكس أصبحت علاقتنا اليومية الشبه العلنية شيئاً لا يمكنني الاستغناء عنه في صحراء الجدب العاطفي العراقي. حكت لي عن مغامراتها الصغيرة وبدايات التعرف على الجسد الآخر، وعن محاولة ساذجة من صديقة لها لإقامة علاقة جسدية معها. كنت أول من تحكي له. كنت مأخوذاً بها وبحياتها.(لم تتجاوز أيامها الثانية والعشرين من العمر).

في ذلك الصباح الاستوائي في هافانا.. والمطر خفيف وحار تسحّبنا من الآخرين واستقلّينا الباص الذي يتجه إلى البحر. بقينا فيه حتى آخر الخط... هناك استجمعت شجاعتي وسألت السائق أن يدلني على فندق قريب، فأضاء وجهه الخلاسي بابتسامة الفاهم وقادنا بنفسه إلى كبائن خشبية ورطن مع الزنجية الشابة اللحمية يشرح لها طلبي، فهزت رأسها مرارا مؤيدة ضاحكة وقادتنا إلى غرفة يطل شيش نافذتها على المحيط. واربت الشيش. حللنا أشرعتنا.. انزلق قاربي إلى المرافىء الدافئة المتلهفة. إنها عذرائي الأولى.. حينما أتينا الزنجية لنحاسبها قدمت لنا بطيخاً حلواً مثلجاً. في طريق العودة بالتاكسي قالت يمامة: خلاص؟.. هو ده؟ ضحكنا طويلاً.

محاولة ثالثة

القاهرة ـ ١٩٥٥

في بدروم صغير في حي جاردن سيتي في القاهرة وفي سنتي الجامعية الأولى وفي الشقة التي يسكن فيها أصدقائي الطلاب السودانيين، سألت المرأة التي صدناها من شارع القصر العيني والتي كانت في منتصف العمر خلاص؟... فأجابت.. طبعاً.. هي شغلانة؟ أرتدي ثيابي (كنت ما أزال مشغولاً بالسؤال الأبدي الذكوري: هل أنا راجل بما فيه الكفاية؟ ما هو التكنيك الصحيح الذي يسعد المرأة؟ وهل «للحجم» علاقة بكل ذلك؟). أجلس في الصالة أدخن سيجارة بينما يلغط الآخرون ويضحكون بتوتر. أسير إلى ميدان التحرير. الباص إلى شقتنا في الضاهر. أختي الكبرى تسألني مستريبة كنت فين، فأتلعثم. تقول دون أن تنظر إلي: ريحتك غريبة. أذهب إلى الحمام.. أدعك جسدي بالليفة والصابونة.

١٩٥٥ مدني ـ أسيوط وبالعكس

الحجز في الباخرة من حلفا إلى الشلال وبالعكس يقوم به عمي عجيب ـ وهو ليس عمي بالطبع ـ لكنه يعمل في السكة الحديد في مدني وابنته ـ إيفون ـ تدرس مع أختي في داخلية البنات في كلية الأمريكان بأسيوط، التي سوف نركب منها القطار إلى الشلال حيث تنتظرنا الباخرة. ها نحن نرجع إلى السودان في إجازتنا الصيفية. الباخرة نظيفة لامعة تسحب إلى جوارها صندلاً.

يتسع شاطئا النهر.. ومن على البعد تبدو القرى النوبية.. الجدران البيضاء والأبواب والنوافذ الخضراء. يهدأ الركاب في أماكنهم أو يتجولون بهدوء، فهذه ساعة المغربية، والظلال الداكنة تهبط على النهر من التلال والصحراء. تنتظم سرعة الباخرة ومن الصندل تفوح رائحة الطبيخ. نتزاحم في القمرات الضيقة نفيض ترقباً وانشراحاً نتبادل الحكايا وتسكن أرواحنا.

في الصبح نستيقظ ونحن نقترب من قرية نوبية. تصفّر الباخرة، فيهرع الصبية يهبطون إلى الشاطىء ينضون جلاليبهم ويقفزون عرايا إلى النهر وخلفهم النسوة يبعن البيض والدجاج.. يتمازحون مع البحارة، ويتناولون منهم الطرود التي أرسلها أهاليهم من الوادي. نهجع في قمراتنا ساعة الظهيرة اللاهبة. أجد نفسي في قمرة مع إيفون لوحدنا. لا أعلم أين ذهب الآخرون (هل رتبت أنا هذا عن عمد؟).. إيفون متمددة على السرير السفلي. المروحة الكهربائية الصغيرة المثبتة في السقف تطن برتابة. النافذة مغلق شيشها وضوء بني يظلل القمرة، وإيفون ترقد على بطنها مفرجة ساقيها وفستانها

متحاش عن الفخذين السمراوين، أرى طرف سروالها الصغير الأبيض القطني النظيف. وجهها مدفون في المخدة. أقف متسمراً ويأتيني صوتها المدفون النعسان.. ما حتنام؟ ما نعسان؟ أبدأ في التسلق إلى السرير الفوقاني، وتقول إيفون ممكن تنام جنبي بس ما تزعجني. أرقد بجوارها، فتقول إيفون: حتنام بهدومك؟ فأدير ظهري إليها وأسحب الشورت عن جسدي المرتعش وأتمدد على ظهري فوق السرير الضيق محاذراً الالتصاق بها. تتنهد ضجرة، تقول الدنيا حر شديد وترفع فستانها حتى خصرها. تقول أنت ولد مؤدب وعلشان كده أسمحلك إنك تلزق فيّ علشان أنت ما مرتاح كده. ترقد على جنبها الآن معطية ظهرها لي. تأخذ يدي وتضعها فوق صدرها، فأميل بجنبي عليها وتستعدل هي نومتها هامسة بترعش مالك خايف أنت ما راجل؟... عارف الفرق بين الوليد والراجل شنو؟ الراجل أصله ما يحكي شي عن صاحبته حتى ولو دبحوه. تمام؟ أتلعثم مجيباً: تمام. تزغدني بأردافها اللينة وتقول متوعدة لما نشوف مرجلتك. أحس بردفيها يدوران حول بطني وينزلقان على خاصرتي وتوتري، ينفتحان حتى يجدا بغيتهما ويحتضنانها.

مدينة هابو ـ غرب الأقصر ١٩٨٣

في الردهة المعتمة التي يضيئها القمر القادم من الصحراء عبر وادي الملكات، أجلس في الجزء البعيد المظلم أراقب الثعبان المجنح يحيط بالإله آتون فوق واجهة المعبد المقابل.. معبد مدينة هابو في البر الغربي بالأقصر. أجلس بمفردي أحسو النبيذ

الأبيض الدافىء وأدخن في الظلمة أراقب القمر يقترب ببطء من جناح الثعبان نائياً بنفسي عن الصحبة. من الغرفة التي للخلف باتجاه اليمين - غرفة أنجلينا - أسمع ضحك البنتين. أسمع بعد ذلك أزيز السرير المعدني. من وقت لآخر أسمع أنين إحداهما - غريباً - في جو الردهة مثل استغاثة بلغة غير مفهومة.

من الأسفل أسمع صوت سيارة تقف وأتبين نبرات إليانور المبحوحة تقول شيئاً فيرد عليها رجل لعله سائق التاكسي.. أوكيه. تنطلق السيارة فأنكمش على نفسي في الظلمة مستمعاً لدقات كعب حذاء إليانور فوق الدرج الحجري... وألمح من مكمني ثوبها الصيفي الأبيض الواسع يتموج حول الفخذين الطويلين فيكشف عريها. تقترب بحذر من الغرفة الضاجة بالهمس والأنين. أكتم أنفاسي. تخلع حذاءها وتتسحّب إلى النافذة المواربة تدفن رأسها الأشقر في خصاصها. أراقب استمتاعها مأخوذاً. ترقص ردفيها مديرتهما حول خصره ولهاثاً أجش يتصاعد من جسدها. أردافها أصبحت لهما الآن حياتهما المستقلة. تنتبه فجأة - مثل الحيوان الذي يحس بالخطر عن بعد - تجدني أقف وراءها لكن دون أن ألمسها. نتبادل تلك النظرة الطويلة المحملة بمعنى الاكتشاف الشائن المفاجىء والمتواطىء. حينما التصقت بها من الخلف دارت بيننا معركة قصيرة صامتة دون أن نتواجه (كل منا في مكانه. أحاول أخذها وتحاول هي صدي). ما زالت البنتان في الغرفة وأصواتهما وحركة جسديهما - المرئية لنا الآن من خصاص

النافذة ـ تقدم لنا الخلفية التي كانت ضرورية للاستسلام التدريجي لإليانور.

أجلس في حديقة ونتر بالاس أمامي زجاجة البيرة وعلبة السجائر والصحف. بعض السائحات يتجولن بدون هدف. مقعدي على مقربة من الطريق. بالقرب مني يقف ولدان من الأقصر يبحثان عن صيد. كل منهما يحمل ذلك الوجه الغليظ البدائي تفوح منهما رائحة الكولونيا الرخيصة وفي أعينهما تلك النظرة الجائعة.. تبرق حينما يلمحان امرأتين وحيدتين. يصيحان «هللو هني». تتضاحك المرأتان وينقض الولدان كالصقور.

أقف أنتظر المعدية في البر الشرقي. الحرارة تتصاعد من الشاطىء الوسخ ممتزجة برائحة العرق. هنا يخلق الجنس الفلتان ذبذبة عالية من الشبق. أحمل زجاجات النبيذ التي اشتريتها من البائع القبطي. أجلس في المعدية وسط رائحة المازوت الذي يتسرب من محرك المركب القديم. الذباب يتكوم فوق البسبوسة التي يبيعها الولد الذي يقبع بها في مقدمة المركب.

ها هو النهر الفسيح يأتي من جبال القمر يصل إلى مدني يتمسح بشطآن جنينة كعكاتي. الجنينة فسيحة، نذهب إليها في العصاري لنأكل الدندرمة. البوستة تقع إلى الشرق، وللكنيسة صندوق بريد تتجمع فيه خطابات أعضاء الكنيسة (أعطاني أبي مفتاحه كامتياز خاص لي). أفتح الصندوق في العصاري ـ بعد المدرسة ـ وأقوم بجولة أوزع فيها الرسائل على أصحابها. أبي يشترك في صحيفة الأهرام ومجلات الهلال والمقتطف والمختار من ريدرز دايجست، والرسالة. حين كبرت

وعرفت ماذا تعني المجلات وخاصة بالنسبة إلى قسيس بروتستنتي من الصعيد وفي الأربعينيات.. في السودان، كنت أندهش من ذلك الإصرار على المعرفة ومحاولة الخروج من دائرة الكتب اللاهوتية إلى عالم أكثر رحابة..

تنهمر الأمطار غزيرة في الخريف الاستوائي ليفيض النهر وتنداح مياهه إلى الشوارع تغمر الخيران وتختفي الحدود بين النهر والمدينة.. نبحر بالقوارب في تخوم المدينة التي يحيط بها النهر. المدينة تفوح كلها برائحة المياه الحمراء. وحينما يسحب النهر مياهه إلى حضنه تنبت من شقوق الإسفلت الأزهار العبقة ويفوح الهواء برائحة اللقاح.

من مدني قام أبي برحلته الأخيرة إلى موطنه.. إلى مصر وكانت كنيسته المصرية الأولى في الأقصر.

أدلف إلى الأقصر أبحث عن بيتنا السابق بالقرب من الكنيسة. تهت قليلاً حتى وجدت الكنيسة الساذجة المبنى. بابها مغلق ثمة مقهى صغير في الجوار. طلبت شاياً، وحددت البيت. أتيت إليه من أسيوط. ركبنا عربة حنطور أنا وأخي الذي كان ينتظرني في المحطة. غرفة الجلوس هي الوحيدة التي بها مروحة. أهرع إليها في الظهيرة اللاهبة، أرقد على أرضها ومعي رواية، لا أقرأ طويلاً بل أسرح بعيداً عن هذه المدينة وعن اشمئزازي منها وعن خوفي المقيم من عقاربها (كنا ننام على أسرّة من الجريد نضع أسفل قوائمها أكوازاً من الصفيح بها ماء، حتى لا تتسلق إلينا العقارب أثناء نومنا)، في بيتنا المتهالك. المرحاض تركي ويوجد في الحوش الصغير. أنذرنا عمانوئيل ـ فرّاش الكنيسة الأعرج ـ بأنه توجد به حية تسكنه.

قال إنها أليفة لا تؤذي أحداً إلاّ إذا أذاها. ونصحنا: من الأحسن أن ننتهي من قضاء حاجتنا قبل الغروب فهي تخرج من مكمنها عند الغروب تسعى في رزقها ورزق أولادها. كانت أمي الصعيدية تضع على فتحة المرحاض كل مساء طبقاً مليئاً باللبن. تقول: علشان تولف علينا وتأذيناش.

كنا نهرع كل صباح إلى مكان اللبن، فنجد الطبق فارغاً. لم تخيب الحية آمال أمي. نرش أسفل حوائط الغرف بالد.د.ت لنجمع في الصباح العقارب المقلوبة على ظهورها.

أدفع ثمن الشاي وأتجه ببطء إلى باب الكنيسة المغلق. يجلس على مقربة منه بعض الجنود يغالبون السأم. ينظرون إليّ بتوجس. يتابعونني بنظراتهم وأيديهم على زناد أسلحتهم الأتوماتيكية.

من تحت شرفة فندق مدينة هابو تأتي أصوات المروحين. قلق يأسرني كل يوم في مثل هذه الساعة بين العصرية والمغربية، أحس به في الهواء يلطم فروع الشجر الكبيرة فتفزع العصافير فجأة صارخة محوّمة. في الشرفة الأخرى تتحرك زوجة مالك الفندق. صعيدية فارعة مليانة وعلى ذقنها وشم ـ تقول أنجلينا أنه يثيرها ـ أراقب واجهة المعبد في ساعات مختلفة من ضوء الليل وضوء النهار. في كل مرة أكتشف شيئاً جديداً.

نتناول عشاءنا على ضوء الشموع. قد تشاركنا إليانور أحياناً. اسمها في الأوراق الرسمية يسبقه لقب ماركيزة. ترتدي ثياباً بسيطة وتتصرف بتلقائية عدا حكاية الكعب العالي. تسحب معها سائق التاكسي من غرب الأقصر. تقول

إنه يمتلك «ماكينة» كبيرة. تعترف أنها في العام الماضي كانت تظن أن أخاه هو الفائز النهائي ـ حسب خبرتها ـ لكنها تخلت عنه غير آسفة. أنجلينا تقول إن سائق التاكسي يضربها بشكل منتظم حسب مزاج الماركيزة التي تمتلك القصور والضياع وتقيم حفلات الاستقبال للساسة والفنانين في بلدها... الماركيزة تقول إنها اكتشفت وحققت فانتازيتها الخاصة هنا في غرب الأقصر. تأتي مرة كل سنة لغسل روحها (حسب تعبيرها؛ لكي تستطيع مواصلة الحياة الأخرى). بعد تلك الواقعة بجوار النافذة.. غيرت من معاملتها لي. أصبحت تتعامل معي بشكل متواطىء.

القاهرة.. ١٩٥٦

بالقرب من شاطىء النهر وفي نهاية جاردن سيتي من ناحية القصر العيني تقع الشقة الصغيرة في بدروم عمارة أنيقة. هناك يعيش بعض الطلاب من السودان أعرف أحدهم منذ كنا ـ سوياً ـ في مدرسة الاتحاد في مدني. إنه يدرس الآن في الجامعة في القاهرة.. مثلي. أم محمود هي خادمة الشقة العجوز.. ضئيلة الوجه حادة الجسد سليطة اللسان بطيئة ومهملة حتى طبيخها بدون طعم. أسأل لماذا إذاً الاحتفاظ بها.. فيراوغونني في الإجابة.. حتى عرفت السر صدفة.

أم محمود قوادة بشكل طبيعي.. إنها تحب اكتشاف النساء «المحصنات» وسحبهن للشقة. هي لا تسحب إلاّ الزوجات. إنها تحبهن جميلات أيضاً... أجد امرأة.. وأحياناً امرأتين تتحركان بين غرفتي الشقة وسكانها الأربعة ـ والضيوف مثلي

ـ نساء بلدي ألقين بالملاءة اللف في المطبخ حلوات مكسوفات خافتات الصوت. نسوان فائرات الجسد بالصحة والشبق الذي تفضحه أعينهن التي يدور حولها الكحل الأسود، الثقيل. تعاملهن أم محمود ـ في الشقة ـ بحنو.. تربت عليهن وتقدم لهن الشاي وتجهز لهن الحمام. ترفض اقتراحاتهن بمساعدتها. تجيبهن ضاحكة كفاية الشغل اللي بتعملوه جوه. أنا عاوزاكم تكونوا مبسوطين.. يا لبوة إنتي وهيّه، فتتعالى ضحكاتهن المغناجة..

إلى هذه الشقة سحبت كاترين اليونانية المصرية التي علّقتها من الأوتوبيس. صديقي يترك لي مفتاح الشقة ـ حسب اتفاقنا ـ تحت إفريز الشباك. هي أول تعليقة مهمة ـ شابة وحلوة.. بالإضافة إلى أنها خواجاية ـ الأهم من ذلك كله، هو أني علقّتها بمجهودي (كنت في السنة الثانية بالجامعة.. ما زلت أخاف من البنات، فأسرق أجسادهن في زحام الأوتوبيس).. لكن الشقة لم تكن دوماً جاهزة لاستخدامها. هي تعرف ذلك وتسخر مني أحياناً. حينما تتاح لنا الفرصة في الشقة كنا نتفنن في إيلام بعضنا. تبدأ هي في تهزيئي:.. لو إنت راجل لكان عندك شقة بتاعتك.. أصلك لسه عيّل صغيّر.. أنا مفروض ما أنامش معاك إنت.. المفروض أنام مع أصحاب الشقة. أقول لها: أصلك أحبة وشايعة وبخرة. تنظر إليّ مندهشة فهي لا تعرف معنى بخرة.. أشرح لها ساخراً يعني ريحة بقك وحشة، هذه بالطبع عكس الحقيقة تماماً فقد كانت رائحتها.. جسدها كله.. عبق الرائحة حتى رائحة شهوتها.. طيبة... يتضرج وجهها من الإهانة تنظر إليّ بحقد وتقول: .. مش حاخليك

تقرّب مني قبل ما تبوس رجلي. نأخذ جسدينا بغل. حينما ننتهي تحتضنني قائلة عذبتك معايا.

ذات مرة غضبت عليّ ونحن في الطريق. لا أتذكر السبب. كنا في باب اللوق. أشارت إلى مقهى قريب وقالت: شايف الراجل اللي قاعد هناك وبيدخن شيشة.. ده صاحبي.. روح إنده له.. دخلت المقهى كالمنوّم.. وقفت محتارا... طلبت كوباً من الماء. شربته واستدرت خارجاً. نادت هي عليّ.. لم أجب وعدوت في الشارع كالمجنون. لم أرها بعد ذلك إلا بسنوات حينما كنت أركب في الأتوبيس بالليل وأحسست بمن ينظر إليّ. التفت فوجدتها تتأملني ساخرة، مالت على الرجل الذي كان يجلس بجوارها وهمست له بشيء، فالتفت إليّ وضحكا. واصلت جلوسي.. لكني نزلت قبلهما.. كان هذا آخر عهدي بها.

زوجة صاحب الفندق تحوّم حول الردهة الواسعة التي نجلس فيها عادة في العصاري، والمقابلة لجناحها الذي تقيم فيه مع زوجها ـ الذي يحمل دائماً مسدسه تحت إبطه بشكل ظاهر ـ وقد خرجت لتوها من الحمام مبللة الشعر (أسود وفاحم وسابغ تمشطه أمامنا في الشرفة) لعلها تعلمت في مدرسة ما لأنها تتحدث الإنجليزية بشكل معقول مازجة إياها بالعربية. تقول «يا أنجلينا .. الحمّام». أنجلينا مشعثة الشعر مختلط بالحشائش. إنه الحمام اليومي الذي اخترعته الفندقية لكي تتحسس جسد أنجلينا العاري وتحممها. أنجلينا تقول إن الذي بينهما حتى الآن لم يتعد مرحلة الاكتشاف واللعب. وهي تحب أيضاً طقس الحمّام. تخرج منه متوهجة... وتعلق

جوديت باشمنزاز ».. أنظر إليها.. تبدو مثل الكلبة الهايجة» تضحك أنجلينا مغيظة إياها. نستمتع ثلاثتنا باللعبة.

غرف الفندق تشبه القلايات في الأديرة: صغيرة مدهونة بالجير الأبيض. عارية الحيطان. مقببة السقف. باردة بالليل. تفتح أبوابها على الردهة التي تطل على المعبد. نوافذها تفتح على الحقول وأصوات الجنادب والضفادع. بالليل نحتل الردهة، نأكل فيها ونسمر.. في معظم الوقت لا يوجد غيرنا بالفندق. أحياناً بعض النزلاء لليلة واحدة.

هذا الصباح إجازة بالنسبة إلى أنجلينا. رحبنا بذلك جميعنا. استقلينا اللاند روفر وذهبنا نستكشف القرى المجاورة. وجدنا أنفسنا أمام لافتة تشير إلى اتجاه «نقادة». ذهلت، فلم أكن أريد أن أصدق أنها مكان حقيقي. دخلناها. كأننا رجعنا إلى القرون الوسطى. البيوت معظمها من طابق واحد. أبوابها خشبية سميكة منحوت عليها بوضوح علامة الصليب. حينما رحبوا بنا ودخلنا بيتاً مثل الكهف. بها جميعاً الأنوال اليدوية التي ينسجون عليها الفركة التي يصدّرونها للسودان؛ حيث تلفها النسوة حول أجسادهن العارية في البيت أو يفرشنها على العنقريبات. النقادية هم طائفة «الشغالة» في السودان يقومون بكل الأعمال. يبيعون الفلافل، الفحم، يلتقطون الصور الشمسية بتلك الماكينات التي ظهرت في القرن الماضي. من نقادة أيضاً تأتي المبشرات. إنهن يعملن في الإرساليات الإنجليزية البروتستنتية. مع أن نقادة طول عمرها قبطية أرثوذكسية. هذا هو السر الذي لم أستطع اكتشافه. من نقادة أيضاً أتت خالتي رينا. أمي كانت غامضة في تحديد قرابتها

منا. أنا أعرف أهل أمي جيداً. إنها ليست منهن. لم نتعرف على أهل أبي. لعلها منهم. كنا نذهب في الإجازات إلى مصر إلى أهل أمي في الدلتا. أبي كان يسافر بمفرده إلى الصعيد ليزور أهله الفلاحين كما كانت أمي تقول له معابثة أو مفاخرة (أهلها يعملون كلهم في الحكومة. كانت تنادي خالي الكبير: يا نجيب بيه). إذاً رينا هي الفرع السري من عائلة أبي. لعل أبي هو الذي أوجد لها هذا العمل. عائلة أبي أرثوذكسية وجدي الكبير يحمل لقب قس أرثوذكسي. أبي اختار أن يتحول للبروتستنتية ويصبح قسيساً لسبب كان يرفض الحديث فيه. تفسيري الخاص أن طموحه الشخصي ورغبته في أن لا يعمل كفلاح مثل بقية أخوته الذين لا يعرف أي واحد منهم كتابة اسمه (بالاضافة إلى فقر أسرته مما أغلق جميع الطرق أمامه، عدا طريق الالتحاق بالإرسالية البروتستنتية). المدينة تقع على شاطىء بالغ الجمال على النيل. مساحات فسيحة من الماء والخضرة. تشبه مدني؛ لعل هذا الذي جعل رينا تستقر في مدني. أو لعلها أشياء أخرى؟ (رائحة جسد رينا ما زالت في أنفي، أتخيلها ـ الرائحة ـ صابون الغسيل، الماء البارد النظيف، أشجار اللالوب. التمرحنة). شاطىء النيل هنا في نقادة يستحضر فيّ الرائحة فأحس برغبة مستحبة في النهنهة. فرشنا فوطة تحت ظل شجرة تبلدي عجوز ومضغنا الجبن والطماطم ببطء وتلذذ. احتسينا النبيذ الأحمر بتمهل كأننا نريد أن نحدد طعمه. استرخينا دون حديث في تلك الساعة من الظهيرة التي لا تريد أن يشركك أحد فيها.

١٩٥٣

سقط أبي مريضاً في شبراخيت. سقط واقعاً بالفعل وهو يعد الشاي كعادته مبكراً بمفرده كل صباح منذ أن وعيت عليه.

من شبراخيت حملوه إلى العباسية، إلى غرفة أخي الذي كان يشارك الشقة مع زميل له يدرسان سوياً في كلية الطب بالقاهرة. ومنذ أن حملوه الى العباسية حملناه مراراً بعد ذلك إلى شقق مختلفة في أنحاء القاهرة.. حتى حملناه آخر مرة إلى مقابر الصدقة التابعة للكنيسة وكان ذلك عام تسعة وخمسين.

منتصف الثلاثينيات.. منتصف الأربعينيات

بنى أبي مدرستين في السودان. الأولى في بورتسودان والثانية في واد مدني. لقد بناهما حقيقة. كان يحتفظ بصورة يظهر فيها علي ماهر باشا ـ كان أيامها وزيراً للمعارف في مصر ـ وأتى ليفتتح مدرسة بورتسودان. ـ أبي كان يرتدي الردنجوت في الصورة ـ مثل علي ماهر وغيره من المهمين ـ كنا نحب أن نخرج الألبوم الذي به الصورة ونتفرج عليها. وفي مدرسة الاتحاد بواد مدني درست حتى حصلت على الشهادة الابتدائية ومنها ذهبت إلى أسيوط. كانت أيام مدرسة الاتحاد أيام الاكتشاف الجسدي ومعرفة العالم خارج البيت. اللعب في المناطق المحرمة. المسافة من بيتنا إلى مدرسة الاتحاد ليست بالقصيرة. المدرسة مبنية في الطرف الآخر من المدينة على التخوم المفضية إلى الوديان الوسيعة الخضراء، والنهر والجداول التي يملؤها المطر في الخريف.

في الصبح أستيقظ مبكراً من نفسي. أحب أن أشاهد اللبن الدافىء وأبي يحلبه من ضرع المعزة الواقفة بهدوء تجتر. أحب أن أشرب مباشرة اللبن المحلوب ورائحة المعزة ما زالت عالقة به. يكون الخادم قد أشعل الكانون الموجود في الحوش تحت السقيفة بالقرب من العنقريبات التي ننام عليها. أمي ما زالت نائمة بعد ونحن الأولاد قد تعودنا أن نجهز ملابسنا واحتياجات اليوم التالي منذ المساء. نتحلق حول الطبلية. يصلي أبي صلاة الشكر. يكسر الخبز الشمسي الذي خبزته أمي في الفرن الذي بناه لها أبي بالقرب من الزريبة التي نبيّت فيها المعزة والدجاجات. نفطر من الجبنة التي صنعها أبي من لبن العنزة ومن المربى التي صنعتها أمي. يلف أبي السندويشات التي وضّبها لنا ونضعها في المخالي الدمور التي خاطتها أمي على ماكينة الخياطة ماركة سنجر الخاصة بها. أضع في قدميّ الحذاء الكوتش الأبيض ماركة باتا بدون جوارب التي أرتديها يوم الأحد في الكنيسة. ننطلق أنا وأخي الذي يكبرني بسنتين نرجم كلاب السكك ونتسابق حتى نصل إلى المدرسة. ما زال الوقت بدري بعد على طابور الصباح الذي ينتظم تحت إشراف خالي وديع ـ أحد الأشقاء الخمسة لأمي ـ الذي يحضر إلى المدرسة على دراجته الرالي.. ومع أنه يسكن معنا إلاّ أنه أحياناً يبيت في الخارج عند صاحبته الأرملة اليهودية التي تعايره أمي بها (بينما يتجاهل أبي الموضوع). معلمو المدرسة كلهم من مصر والناظر كذلك وهو شقيق أيوب أفندي أبو أتب ـ كما تسميه أمي وتسمي الناظر: أبو شنب؛ بسبب شاربه الكبير. وهو صديق شخصي لوالدي يقضيان معظم الأمسيات سوياً

(لعل كل منهما يهرب من زوجته النقاقة). فرّاش المدرسة يضرب الجرس النحاسي الكبير. ننتظم في الطابور على صيحات خالي وديع: مدرسة صفاً... مدرسة انتباه... مدرسة لليمين در. يحمل خالي وديع عصا خرازنية طويلة يلسع بها الأولاد في الطابور لأسباب خاصة به. أحياناً ننال لسعات خفيفة منه. نعرف بالغريزة أنها تحيته الخاصة لنا. أنا أحبه. هو مختلف تماماً عن أمي. طويل عريض وسيم. يدهن شعره الأسود الفاحم بزيت الآناضول. تعايره أمي قائلة: أمّال خلّيت ايه للبنات يا وديع يا خويا.. كان يجيب باستكانة: الله يسامحك.

تلاحقه أمي: بتدعي عليّ يا وديع..؟ فلا يحير جواباً ويتضاءل في أرجاء البيت يباعد بنفسه عنها. فإذا كان أبي في البيت فإنه يسارع إلى نجدته زاجراً إياها. يهرع خالي بالهروب من البيت مستقلاً دراجته الرالي. بعد الطابور الصباحي في الحوش يتزاحم الطلاب على باب الفصل. هذه حيلة الأولاد الكبار.. يزنقون الصغار بينهم يضعون أيديهم داخل شورتاتهم ويدفعونهم أمامهم. يبركون فوقهم. نحن الصغار لا نبالي بل نتفنن في الهروب منهم وتكوين الأحلاف مع ولد كبير ـ وهذا من الأشياء الضرورية خاصة في معارك تصفية الحسابات في الشارع بعد المدرسة ـ وبالطبع نتحاشى إدخال الإدارة في معاركنا لأن هذا معناه أنك مش راجل بل «مره» وهذه هي السبة النهائية فيتحاشاه الجميع. الولد مدّثر هو الذي كان يتلقى أجساد الجميع فوقه. أحياناً كان يقاوم بشراسة، أو يستكين حتى يدخل المدرس الفصل. والسبب المعلن.. أن أمه «ست

المريسة».. أي أنها فاتحة بيتها للرجال يشربون فيه المريسة (وهي الخمر السودانية المحلية المصنوعة من الذرة. لم تكن البارات معروفة وقتها في السودان؛ لهذا كانت المريسة تباع في البيوت.. علناً بالطبع وهذا بسنوات طويلة قبل «تطبيع الشريعة الاسلامية»). يقول الأولاد الكبار إن الرجال «يأخذون مزاجهم» من أم مدثر. بيت الولد، الحيط في الحيط لبيت صموئيل أفندي والد وجيه الذي يدرس معي في الفصل نفسه. أحياناً أذهب إلى وجيه لنلعب فنتسلق الحائط سراً ونشاهد ما يحدث في بيت مدثر. أحياناً نجده في الحوش فننادي عليه ونتونس عبر السور. نحذر أن يرانا والد وجيه ـ الأعور ـ الذي عنده دكان لبيع المانيفاتورة في السوق. أبي يستدين منه أحياناً، ويشتري منه على الحساب. صموئيل أفندي هو أحد شيوخ كنيستنا مع أيوب أفندي وكلاهما لا يحب الآخر. لكن المعروف عن صموئيل أفندي أنه واسع الحيلة ويحب أن يغش لكنه في الوقت نفسه يحب أن تكون علاقته حسنة بالرب. وهكذا غلّف صموئيل أفندي كتاب الحساب الخاص بالسنة الرابعة الابتدائية ووضعه أمامه فوق الطاولة في الدكان. يقسم واضعاً يده عليه قائلاً: وحياة هذا الكتاب، إن سعر المتر بكذا. يصدقه الرعاة والبدو البسطاء ويدفعون ما يريد عن رضى.

أحياناً يأتي الأسقف الإنجليزي لزيارتنا في المدرسة. ينبّهون علينا قبلها بأيام (البيشوب جوين سوف يأتي للزيارة يوم كذا) وذلك حتى نستعد ونرتدي ثياباً نظيفة وندهن أحذيتنا الكوتش بالجير ونقص أظافرنا. ويتجول خالي وديع في الطابور يتأكد من تنفيذ الأوامر حتى يأتي اليوم المرتقب فيسود المدرسة

والمدرسين حالة عالية من التوتر. فالأسقف شخصية هامة، تماماً مثل المدير الإنجليزي للمديرية. يأتي الأسقف مرتدياً رداءه الكهنوتي الأسود السابع. أحمر الوجه أشيب الشعر. تقف عربته السوداء بسائقها السوداني من البوليس وعلى مقدمة العربة يرفرف العلم البريطاني. نصطف في الحوش في أبهى الثياب ونهتف وراء الناظر الذي يصيح بصوته العجوز: بيشوب جوين.. هب هب هوراه. يصيح هكذا ثلاث مرات ونحن نردد خلفه. يقول البيشوب شيئاً بالإنجليزية ويترجم الناظر. قد تكون هناك حلوى توزع علينا بمناسبة الزيارة. أو جوائز للأوائل. لكننا نعرف بشكل مؤكد أن اليوم خلاص إجازة - بمناسبة الزيارة أيضاً - نروّح ونحن نهتف دون أن يطلب منا أحد هب هب هوراه بيشوب جوين. البيشوب أحياناً يزور أبي في البيت. يحضر بالأبهة نفسها، لكن بالطبع بدون هب هب هوراه. أبي أيضاً شخصية متوسطة الأهمية في المجتمع الكولونيونالي في مدني. معروف للتجار في السوق. للمسلمين وللمسيحيين. وبالتالي أنال أنا جزءاً من الأهمية والحماية وسط من يعرفه. وحظيَ خالي وديع أيضاً ببعض الأهمية بالتبعية لكن أمي لم تتركه طويلاً في حياته الهانئة في السودان. أخذت تنقّ عليه عند خالي الكبير، خالي نجيب الذي حسم الموقف وطلب منه الرجوع إلى مصر. أوجد له خالي نجيب عملاً في الجمرك في الإسكندرية كمساعد أمين مخزن. كانت سيارة المصلحة (الجمارك) تقف أمام العمارة التي يقيم فيها أخوالي وخالاتي (في شقة واحدة مع ستي أم أمي) لتقل خالي الكبير للشغل

وترجعه منه (خالي نجيب كان يشغل منصباً كبيراً في الجمارك)، بينما يستقل خالي وديع الترام جيئة وذهاباً.

حينما استقرينا في الإسكندرية كنت أزور بيت أخوالي، أجلس أحياناً مع خالي وديع في الردهة المعتمة نحتسي سوياً شاي العصر. هو يشربه باللبن حلواً مثل أيام السودان. يجلس رابطاً رأسه بمنديل (فقد كان يعاني من صداع مزمن. عرفنا بعد ذلك أنه كان يعاني من أورام في المخ).. مرتدياً بيجامته المتهدلة وقد نحل شعر رأسه وبدا يفقد لونه الفاحم ليتحول إلى لون ترابي. وجهه أصفر متعب وكلانا يتحاشى ذكر أيام السودان. كنت أحياناً أقول له عن لقائي مع بعض الناس الذين نعرفهم من أيام مدني. كان يكتفي بهز رأسه صامتاً وكان أحياناً يذكر أبي المتوفي. يقول أبوك كان راجل طيب. أمك الله يسامحها بأه كانت تحب تنكد عليه. يبتسم أسيانا ويضيف.. أختي وأنا عارفها.

ماتت أمي وأنا في بولندا.

مات خالي وديع وأنا في بيروت.

١٩٨٢

حينما سافرت للإسكندرية أزور بيت أخوالي بعد عودتي من بيروت.. الشقة القديمة نفسها. جلست أنا وخالي شاكر في الردهة المعتمة التي يضيئها مصباح كهربائي ضعيف. على الحائط المقابل لي كانت هناك صور أموات العائلة: ستي في الوسط وعلى يمينها خالي نجيب ثم خالتي لولو وعلى يسارها خالي وديع وبجواره أمي. أخذنا نتأمل الصور بصمت. قال

خالي شاكر: أمك الله يقدّس روحها خربت على وديع في السودان. كان زمانه اتجوز هناك من اليهودية أو من واحدة من المبشرات (مات خالي نجيب وبعده خالي شاكر دون أن يتزوجا). ردت خالتي العانس: أصل أمك كانت عاوزاه يرجع مصر يساعد أخوه الكبير. نظرنا إليها ولم نعلق. (كلانا أكثر حكمة الآن ومعرفة بطبائع النساء في أسرتنا)... غيّرنا الموضوع. لمحت وأنا خارج شهادة منح وسام الجمهورية (من الطبقة الثالثة) للسيد صليب بطرس صليب (الشهير بشاكر) تقديراً لخدماته الممتازة أثناء العمل في بناء السد العالي. أحسست أن الردهة هنا مثل مقبرة الأفيال.

١٩٨٣ مدينة هابو ـ غرب الأقصر

نذهب الليلة نتناول عشاءنا في استراحة عبد الرسول. نسير ثلاثتنا على ضوء القمر نقطع المسافة الفاصلة بين الفندق والاستراحة في الحديث عن خطة ـ ما زالت مبهمة ـ للسفر إلى أسوان ومنها مرة أخرى إلى قنا التي سنشرّق منها إلى الساحل الشرقي للبحر الأحمر شمالاً حتى القاهرة مرة أخرى. الأضواء الكهربائية الضعيفة لا تنير الطريق جيداً والقمر تستره بعض الغيوم. تقطع علينا الطريق فجأة مجموعة من الكلاب النابحة.. نرميها بالأحجار صارخين. حينما نصل الاستراحة نجد بعض عارضات الأزياء الإنجليزيات يحتللن معظم المكان. كنت قد رأيتهن قبل أيام يتصورن بالقرب من وادي الملكات. تجاهلناهن. جلسنا بالقرب من نهاية السور. احتسينا البيرة وأكلنا الحمام المحشي ـ غدا جوديت التي أكلت أومليت ـ

وجاء العملاق يعرض بضاعته من الآثار، التي لم يصطنع حتى مجرد الاهتمام بها. مع ذلك جلس واحتسى البيرة التي طلبناها له في جرعات طويلة متصلة. جلسنا نناقش بكسل تفاصيل رحلتنا المرتقبة.

١٩٥٥ ـ ١٩٥٩

حملنا والدي من شبراخيت إلى غرفة العباسية ومنها إلى شقة صغيرة في الظاهر ومن الظاهر إلى شقة أخرى صغيرة في دير الملاك حدائق القبة (وهو حي شعبي كان يسكنه المسيحيون في بيوت بسيطة تدور حول الدير).. حملناه منها إلى مقابر الصدقة التابعة للكنيسة البروتستنتية فلم يكن لنا مقبرة خاصة بنا في القاهرة وليس عندنا نقود لشراء واحدة. من هذه الشقة أخذوني إلى السجن عام ١٩٦٠. لم أرجع إليها أبداً إذ انتقلت أمي إلى الإسكندرية حيث التحقت أختي الصغرى بجامعتها والتي تعيش فيها أختي الأخرى مع زوجها وولديها. هناك أيضاً بيت أهل أمي. ستي فقط هي التي ماتت أيامها.

شقتنا في دير الملاك كانت ـ بالصدفة ـ بجوار الكنيسة ـ التي كنت قد بدأت أتعمد رفض الانتظام في الصلاة فيها أو في أي كنيسة أخرى.. مما سبب التوتر بيني وبين أخي الأكبر (الذي كان يدعي الصلاح ويتردد على الكنيسة لمآرب أخرى) تؤازره أمي التي انتابتها تلك الأيام لوثة دينية. كنت أقضي ساعات الصلاة يوم الأحد مع أبي لوحدنا في البيت. أحلق له ذقنه وأقرأ له الجريدة. في البداية كانت العلاقة اضطرارية،

لكني تدريجياً بدأت أقوم بواجباتي عن طيب خاطر (لا أقول إني استمتعت بها)... تلك الأيام قربتني منه بعض الشيء.. كنت أنجح في أن أجعله يضحك قليلاً. جسده أصبح جلداً على عظم (وهو العملاق اللحيم) لكن وجهه لم يتغير. ما زالت فيه تلك النظرة الواعية اللماحة وتلك الابتسامة الساخرة التي يعوج فمه فيها.

١٩٥٩ دير الملاك

نسكن في الطابق الثالث ثلاث غرف وصالة. احتل أخي الأكبر الغرفة الفسيحة ووضع بها كتبه وهياكله العظمية. كان يذاكر وينام فيها بمفرده. أنا وأخي الآخر ننام على سريري سفري في أصغر الغرف وأمي وأبي وأختي الصغرى في الغرفة الثالثة بينما أختي الأخرى كانت قد أوجدت لنفسها عملاً في داخلية المدرسة الأمريكية للبنات بالأزبكية.. بالإضافة إلى دراستها في الجامعة. كانت تأتي إلينا مرتين في الشهر وتعطينا أنا وأخي الذي يكبرني بعض النقود سراً حيث لم تعطنا أمي التي أصبحت الآن المتولية شؤون البيت.. أي نقود للمصروف الشخصي البسيط.

رسبت مرتين متتاليتين في السنة الثانوية النهائية.. حيث كنت أدرس لألتحق بكلية الهندسة (وهي فكرة غبية لأني خائب في الرياضيات.. لكن أهلي أدخلوها في دماغي).. لذلك حينما رسبت للمرة الثانية هددت بأن أترك الدراسة نهائياً أو ألتحق بالقسم الأدبي لكي أتمكن من دخول كلية الآداب وبالتالي قسم الصحافة حتى أستطيع تغيير العالم. لهذا ذهلت حينما

حصلت على الموافقة بسهولة والتحقت بمدرسة ليلية في شبرا وأعجبني نظام حياتي الجديد. أخرج من البيت حوالى الخامسة وأرجع حوالى العاشرة. في مدرستي الليلية يدرس سقط المتاع من البشر.. موظفون يريدون تحسين حالهم. بنات فاتهن قطار الزواج. وخائبون مثلي.

في الدور الأرضي - في بيتنا - على اليمين وأنت داخل تعيش شكرية بنت البواب مع أهلها. شكرية تضع عيناً زجاجية (عينها اليمنى).. طويلة شاحبة. رائعة الجسد. أحياناً تأتي إلى شقتنا لكي تسألني أن أساعدها في دروسها فهي تدرس في معهد المعلمات الابتدائي. نجلس سوياً في الصالة على الكنبة الوحيدة ونسحب ترابيزة الأكل أمامنا.. تضع عليها شكرية كتبها وأوراقها. تلتصق فخذانا ويحمرّ وجه شكرية. أحياناً تغرز ثديها في ذراعي. بدأنا نكتشف سوياً كيف نلتصق ببعضنا أو كيف أضع يدي من تحت فستان البيت الواسع وأتحسس لحمها الحار ونحن ندرس فتح مصر. كانت تحضر أحياناً في العصاري وهي تحمل الغسيل لتنشره على السطح وتستلف المشابك منّا. كانت تسمح لي أحياناً أن أزنقها على السلم وأن أقبلها. تراقبني صامتة بعينها السليمة فيبوخ حماسي. في الشقة المقابلة لشكرية تعيش سعاد مع أخيها العصبجي الذي يعمل في سينما سهير بالعباسية ويضرب الزبائن المشاغبين. إنه قصير القامة مدكوك الجسد يرتدي دائماً حتى في الشتاء قميصاً قصير الأكمام يبرز عضلات ذراعيه. حينما كنت آتي بالليل من المدرسة كنت أرى سعاد متكئة على إفريز نافذتها المفتوحة وقد حضنت صدرها بين ذراعيها. أعرف أنها

لوحدها في البيت لكني أخاف العصبجي.. أحاول أن أرسل لها رسالة صامتة.. تستجيب هي وتذهب لتفتح باب شقتها وتقف صامتة. إنها قصيرة مدملجة وأحس أنها فايرة. تبرز جسدها قليلاً من فتحة الباب الذي تتكىء بردفيها على حده فينغرز بينهما. يغص حلقي وأتلكأ. تسمّر عيناها الحلوة في عيني. أصعد الدرج ألهث وأسمعها تغلق الباب برفق. هي قمحية الملامح خشنة الشعر أسوده الذي تسحبه بقسوة إلى الخلف ثم تلمه في ضفيرة غليظة.

ذات صباح رأيتها متمددة على فراشها من شباك المطبخ الذي لا أدخله إلاّ نادراً. وقفت محاذراً أن أنبهها. كانت تقلب في مجلة مصورة، مستلقية على ظهرها وفستانها منحاش إلى بطنها وهي واضعة رجلاً على رجل. تسمرت مكاني. لعلها أحست بالغريزة أن هناك من يراقبها، إذ استدارت فجأة ـ كالحية ـ وكسفتني. كانت أسرع مني فلم أستطع أن أنسحب. نظرت إليّ بتلك النظرات الطويلة التي لا يرمش لها فيها جفن ثم قامت فأغلقت الشباك. في اليوم التالي كان الشباك مفتوحاً وهي تتجول في أرجاء الغرفة ترتبها وتنظفها رأيتها تنقل التسريحة وتضعها بزاوية بجوار السرير. جاءت أكثر من مرة إلى الشباك تنفض الغبار منه أو تنظر من خلاله. لكنها لم ترفع وجهها أبداً تجاهي. في اليوم التالي طلعت إلى السطح أحاول أن أكتشف سريرها بعيداً عن شباك مطبخ أمي. وجدت أني إذا جلست بزاوية معينة بجانب أكوام المهملات الملقاة هنا من سنين، فإني أستطيع أن أرى مرآة التسريحة. لبدت في السطح ومعي كتابي بحجة المذاكرة.

كنت أراها أحياناً في المرآة مستلقية تقرأ.. أو تجلس على الكرسي الصغير أمام المرآة تمشط شعرها أو تزجج حاجبيها. لعلها رأتني بوساطة المرآة إذ أخذت تقف أمامها وهي ترتدي ثيابها أو تخلعها (أحياناً كانت تقضي ساعة أو أكثر وهي تلبس وتخلع)... ولم تتخل عن عادتها الليلية أيضاً في الجلوس على النافذة، حتى تلك الليلة التي دخلت إلى شقتها وأنا أرتعد من الخوف. دخلت ورائي وأغلقت الباب بهدوء. سارت إلى غرفتها صامتة وأنا كذلك. كنت أود أن أسألها عن أخيها.. لكني لم أستطع الكلام. أخذت هي كتبي ووضعتها على المائدة الصغيرة بجوار السرير. تمددت هي على السرير وتناولت من تحت الوسادة علبة سجائر. عزمت عليّ بواحدة. ووضعت سيجارة بين شفتيها. ناولتني علبة الكبريت فأشعلت السيجارتين وجلسنا ندخن بصمت في الظلام الخفيف.

هأنذا للمرة الثانية في غرفة نوم امرأة غريبة. المغامرة هي التي تأسر خيالي. فسعاد بالنسبة لي.. الجسد الذي أراه من مكمني في السطح ـ متلصصاً ـ مع إحساس غامض بأنها تراني لا يثيرني بقدر ما يستفز فضولي لاستعادة المعرفة الحميمة لتفاصيل عالم البنات الذي كنت قبل سنوات قليلة أتحرك داخله بحرية وشرعية. ليس ذلك العالم الذي أخذتني إليه جارتنا في شقة الظاهر؛ عالم معرفة جسد المرأة لإرواء شبقي. إن غرفة سعاد الآن، وهي مستلقية على فراشها، تعطيني ذلك الإحساس الحارق المخيف بأن كل هذا قد حدث لي من قبل بالفعل. ثمة إحساس آخر؛ كتلك الشهوة التي تسبح داخل الجسد ساعة الاستيقاظ من النوم.. تسبح مدغدغة إياه تلك

الدغدغة التي يختبرها المرء ساعتها ـ أو لحظتها ـ بدون سبب حسي أو جنسي محدد. أجلس على طرف الفراش كما أشارت هي لي، ندخن. (سراً.. مستقبلة في غرفة نومها ابن الجيران) وتحدثني ـ عن خوفها من البقاء بمفردها في الشقة الموحشة. تقول إن الأرواح تسكن في الشقة. بعضها طيب والبعض الآخر شرير. إنها تتصارع فيما بينها وتتقاذف بأدوات المطبخ، والأطباق التي تسمع أصوات تكسيرها.. سألتها لماذا لا تترك الشقة إلى أخرى. قالت إن أخيها يرفض الفكرة لأنه مخاوي. سألتها: يعني ايه؟ فنظرت إليّ مندهشة لكنها شرحت لي بنفاد صبر كيف أن الأرواح تختار أحياناً أجساداً بشرية لكي تعاشرها معاشرة جنسية. قالت إن عالم الأرواح ينقسم ـ تماماً مثل عالم البشر ـ إلى ذكور وإناث ومخنثين. قالت إن أخيها مخاوي (يعاشر جنسياً) أحد الأرواح المخنثة. كانت تتكلم بهدوء، وهي تنظر إلى جمرة سيجارتها. قالت إن غرفتها هي الغرفة الوحيدة في البيت التي لا تتجول فيها الأرواح لأنها أخذت عهداً عليهم؛ من خلال طقس الشبشبة.

كنت آنذاك قد بدأت أكتشف القاهرة وأحياءها وسينماتها. أحسست بهول الانحدار الاقتصادي الذي وصلنا إليه وتفاهة المعاش الذي تقدمه الكنيسة لخدام الرب. وحيداً في القاهرة بدون أصدقاء رحت أبحث عن زملاء طفولتي وصباي من السودان. وجدت بعضاً منهم. أعطوني الكتب الماركسية. كان الإحساس بالظلم الذي وقع علينا من الكنيسة بالإضافة إلى اكتشافي عالم الفوارق الطبقية (الموجودة حتى وسط القساوسة) جعلني ألتجىء إلى الماركسية باعتبارها ملاذ

المظلومين والمبشرة بأرض الميعاد التي يتساوى فيها البشر. في الوقت نفسه كنت أكتشف من جديد عالمي الخاص وفانتازياته وأحلامي السرية، التي لم أبح بها لأحد وخاصة الرفاق. وهكذا كنت أنخرط تدريجياً في عالم من الأسرار؛ التنظيمات الماركسية السرية التي تعمل «تحت الأرض» وعالمي الخاص المغلق.

مأخوذاً أستمع إليها تدخلني إلى عوالمها السرية.. تحكي وهي مستلقية.. مدخنة.. بتلك النبرات المبحوحة التي تدغدغ خاصرتي.. طلبت مني الخروج. تفتح الباب متلصصة (محاذرة أن تكتشف شكرية من يزورها) تجعلني أوعدها ـ بترحاب ـ أن آتي إليها غداً في الموعد نفسه.

في اليوم التالي شرحت لي طقس الشبشبة ثم مارسناه سوياً... لكن خلال كل ذلك لم أنقطع عن مراقبتها من خلال المرآة عبر السطح ولم تتوقف هي عن ترك النافذة المفتوحة ومزاولة ما اعتادت أن تقوم به عادة.

بعد أن تعشينا وشربنا ما نستطيع شربه من البيرة تمشينا راجعين باتجاه فندقنا. الكلاب هجعت الآن في جحورها. القمر يسطع وينير شراك الطريق. أوصلنا جوديت إلى الفندق فهي تنام مبكرة... احتضنتها أنجلينا وقبلتها طويلاً في فمها. انتظرنا حتى فتح الحارس العجوز الباب الداخلي لتدلف جوديت منه إلى الدرج المظلم... انطلقنا إلى موعدي الذي رتبه لي معلم الغرزة. سوف ندلف إلى قرية القرنة المهجورة. هناك بجوار مبنى المسجد سنجد دليلنا الذي سيأخذنا إلى الجبل.

قلت لأنجلينا ونحن على مشارف القرية المهجورة: هل أنت متأكدة أنك تريدين هذا؟.. ضغطت على ذراعي مؤكدة بصمت. وجدنا الولد الملثم. لم نتبادل الحديث ونحن نصعد الدروب الحجرية الضيقة الملتوية والمتقاطعة إلى الكهف المنحوت في الجبل، الذي بدا لي كأنه مقبرة ـ أو مدخل مقبرة ـ فرعونية. تركنا الولد على مدخل الكهف. من الداخل أتانا صوت الامرأة سامحاً لنا بالدخول. الكهف دائرة غير مكتملة. الامرأة تجلس في منتصف القوس المواجه للداخل وعلى يمينها يقف رجلان شديدا السمرة كأنهما من النوبة أو من السودان عاريا الجسد عدا فوق الحقوين حيث تمنطقا بقطعة من الجلد مثلثة الشكل مثبت عليها ودع وصدف وسلاسل من الفضة ودوائر نحاسية.. وجهيهما متغضن لكن جسد كل منهما مفتول العضل. ناحل لامع يتألق بالدهان أو العرق أو بكليهما. على يسارها تجلس بنت قمحية اللون شعرها الأسود الفاحم منسدل على كتفيها ويصل إلى ثدييها. تجلس متربعة على فروة الخروف المصبوغة بالأحمر والأسود والأخضر.. العينان الثقيلتا الكحل تنظران إلى المنقد المتوهج الموضوع أمام الامرأة والتي تلقي فيه بين آونة وأخرى بأعواد البخور التي يتصاعد دخانها إلى السقف المحدب للكهف. مقابل الامرأة يجلس ولد أسمر عار الجسد لعله في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره. إنه يجلس فارداً ساقيه إلى الأمام وقد ضم ساقيه بقوة فبرز انتصابه واضحاً. نجلس نحن في المكان الذي أشارت إليه الامرأة بينها وبين الولد العاري.

ترتل الآن الفتاة بلغة غير مفهومة لي، ترتل بنغمة مسترسلة

متصاعدة. ينظر الرجلان إلى الامرأة التي تكون الآن رافعة يدها اليمنى. يدق الرجلان بأرجلهما على الأرض بينما تركع الامرأة باتجاه الفتاة المرتلة. تلقي بالتحية إلى الجهات الأربع للغرفة وهي تطلب الدستور ـ السماح والإذن ـ من رب الشمال ورب الجنوب ورب الشرق ورب الغرب. من آلهة الريح والمطر. من تمساح النهر ومن حية الصحراء. خلال ذلك تزحف راكعة في دوائر متجهة إلى الولد العاري. يتابعها الرجلان كل على جانبها لكنهما يتخلفان عنها بخطوة على الأقل.. ويحافظان على المسافة بينهما وبينها. قبل أن تقترب الامرأة تماماً من الجسد العاري تزعق الفتاة فجأة فتتسمر الامرأة مكانها ويقفز الرجلان فوقها ليقفا الآن بمواجهة رأسها. تعول الفتاة ويرقص الرجلان بعنف فتهتز السلاسل والحلقات والودع والصدف مرسلة صوتاً كأنه حفيف أوراق الشجر وفروعه. ترجع الامرأة الآن راكعة ساجدة إلى الخلف بمؤخرتها التي تأرجحها على إيقاع الأقدام المتراقصة فوق رأسها والدافعة إياها من خلال حركتها إلى الخلف. أراقب الولد. عيناه مثبتتان واسعتان. ثمة ارتعاشة خفيفة تأخذ جسده تبدأ من قدميه وتصعد كالموجة إلى ساقيه وخاصرته وبطنه وصدره ورقبته. ينشال الجسد من على الأرض تثبته القدمان والرأس لينهد مرة أخرى. الامرأة ترجع زاحفة إلى الفتاة التي تقوم من مكانها وتقف منفسحة ما بين ساقيها تضع الأخرى رأسها بين قدمي الفتاة التي تحرك جذعها إلى الأمام وإلى الخلف في حركة طاردة يحيط بها الرجلان. تكرر الامرأة مراوحها إلى الولد ويكرر الرجلان ما فعلاه من قبل. ثلاث مرات. تقعى الآن في

مكانها السابق بينما تتجه الفتاة راقصة إلى الولد. تتجه إليه في خط مستقيم لا تحرك سوى أردافها المستندة على الساقين وقد انشال عنهما الثوب السابغ رابطة أطرافه فوق خصرها فبانت أفخاذها العارية وبطنها وأردافها.. إذ لم تكن ترتدي فوق جسدها سواه. رقص الرجلان أمامها يقودانها إلى الولد وقبل أن تصل إليه وقفا فجأة على بعد خطوات يهزان جسديهما في مكانهما هزاً عنيفاً ويصدران من حلقيهما أصواتاً مثل خوار الثور الهائج. سحبت الامرأة دفاً دقت عليه دقاً رتيباً سريعاً. وقفت الفتاة فوق الولد. بداية فوق قدميه واضعة جسده في المسافة ما بين الساقين المنفتحتين الآن عن آخرهما وانتقلت هازة أردافها فوقه حتى وقفت فوق رأسه تماماً. أخذ الولد يئن. جسده يتحرك متناغماً مع حركة الفتاة فوقه دون أن يتلامسا. ترجع الفتاة الآن بحركتها الراقصة نفسها إلى الخلف حتى تقف بجسدها فوق خاصرته. يسرّع الرجلان من إيقاع الأصوات الصادرة من جسديهما والسلاسل المتأرجحة بعنف مطرد مع حركة الجسد. الولد يتماوج جسده كله بتلك الارتعاشة التي تبدأ من عند القدمين وتنتهي بالرأس لتبدأ ثانية من القدمين. جسد الفتاة يهتز كله وقد فقد انسجام حركته، كأنها تريد أن تصل إلى شيء على عجل.. تخرج الفتاة أصوات قصيرة متلاحقة.. تنهدات مختلطة بلهاث. تصبح الامرأة رافعة دفها في الهواء. يقفز الرجلان. ينشال جسم الولد وينهد. تقفز الفتاة بعيداً عن الولد الذي يرفع جسده إلى أعلى في قوس عظيم مرتعش مشدود ومتوتر في اللحظة التي ينبجس منه الأبيض المشخوب باحمرار الدم. يحمل الرجلان الفتاة

ويخرجان بينما تسارع الأخرى إلى الولد تدثره جامعة إياه بين ذراعيها. يكوّم الولد نفسه في لحمها وهو ينهنه بالبكاء بينما تهدهده هي مؤرجحة جسدها إلى الأمام وإلى الخلف بتلك الحركة الهادئة الرتيبة التي تهدهد بها الأمهات أطفالهن إلى النوم. أشارت إلينا الامرأة أن نخرج فوقفنا بالقرب من فتحة الكهف يلسعنا هواء الجبل البارد. جاء الولد الملثم وسحبنا برفق. سرنا وراءه حتى وصلنا إلى تلة صغيرة. هناك على قمتها تقف الفتاة عارية معطية وجهها إلى القمر تغمغم مرتلة والرجلان يقفان خلفها على جانبيها يمسكان بذراعيها وقد بسطاهما على آخر امتدادهما. تتأرجح هي إلى الأمام مشدودة كالوتر.. في كل مرة ترجع إليهما يخبطها الرجل الذي على يمينها بقطعة من الجلد أسفل بطنها والآخر يخبطها على ثدييها. حينما بدأ القمر في الدخول خلف الغيوم السوداء حملاها فيما بينهما واختفيا في الظلام.

لم تذهب أنجلينا اليوم إلى الجبل لترسم. قالت إنها تريد أن ترتاح. في الصباح جلسنا جميعاً - بعد الإفطار - في الحوش الذي يفضي إلى الحقول، ندخن ونشرب الشاي الذي كان الطباخ يموننا به بكرم. إنه الصباح الحار في الحقول التي غسلها الندى والمنبسطة حتى حافة الجبل يعطيك الاحساس بعزلة محببة. ليست عزلة نهائية مثل عزلة الأديرة في عمق الصحراء، وليست عزلة اضطرارية مثل عزلة الزنازين والمعتقلات لكنه ذلك الإحساس الذي ينعش الجسد بالسكينة المتناغمة مع راحة البال. اقترحت أن أعبر إلى الأقصر أشتري احتياجاتنا من الطعام والنبيذ والسجائر والصحف. قالت أنجلينا إنها تود لو

رافقتني. نظرت إليها جوديت برية. فقد وصلنا ليلة الأمس بعد منتصف الليل وذهبنا إلى غرفتي مباشرة رغم أننا رأينا الضوء من نافذة جوديت. كان كل منا يحس بالآخر وبجسده بشكل مكثف.. رائحة اللحم ولهفة الجسد وكرمه. حينما استيقظت على حركة الفجر لم تكن بجواري. استغرقت ثانية في النوم حتى صحوت على رائحة القهوة في الجنينة التي نفطر فيها. ابتسمت لها أنجلينا ووضعت يدها على رقبتها ومالت اليها وقبلتها في خدها. قالت الأخرى ساخرة: قبلة يهوذا. ضحكنا بارتباك فقد كان الجو بيننا في الأيام الأخيرة حاداً. نتصيد الأخطاء ونبالغ في الإحساس بالمهانة والرثاء للنفس.

تسكعنا في طريقنا للمعدية التي حينما وصلنا إليها كانت قد أبحرت لتوها. قدت أنجلينا إلى الفرزة التي كانت تشغي بالحركة. انشرحت البنت من هذا الجو وتبادلت المعاكسات الساخرة مع بعض الأولاد الحمّارين الذين تعرّفوا عليها خلال إقامتنا الطويلة هنا في غرب الأقصر. جاءت المعدية وذهبنا إلى الأقصر. قمنا بجولتنا المعتادة؛ البريد والسوق وبائع النبيذ القطبي، وفي النهاية فندق ونتر بالاس الذي هرعنا إلى ظله الرطيب بترحاب ونحن نمني النفس بزجاجات البيرة المثلجة التي لم يخيب أملنا فيها الجارسون المبتسم. قالت: إن ما حدث بالأمس جعلها تفكر في تغيير خططها وأنها تطلب مني المساعدة. قالت: إنها تريد أن تذهب مرة أخرى إلى الكهف. قالت: إنها تحس أن ثمة رسالة لها تنتظرها. قالت: لأول مرة في حياتها تقابل تجربة كهذه ولا تريد أن تتعامل معها بخفة. قالت: أريد أن آخذ جوديت معي إلى التجربة. قالت إنها لا

تريد أن تنتقل من الفندق حتى تصل إلى نهاية التجربة وبالتالي فخطة السفر شرقاً إلى البحر الأحمر تؤجل (هذا إذا لم يكن عندي مانع) قلت لها: تغيير الخطط ليس هو المشكلة لكن المهم هو ترتيب العلاقة مع أصحاب الشأن.. وإذا كانوا قد أعطونا ذلك الامتياز الخاص بالأمس فليست هناك ضمانات لأن يكرروا انفتاحهم علينا مرة أخرى خاصة وأن هذه الطقوس ممنوعة من كافة الجهات.. القانونية والدينية.. لكن لا بأس من المحاولة.. وماذا عن جوديت؟ تنهدت وقالت: إنها أصبحت صعبة التعامل في الأيام الأخيرة وإنها تريد أن ترجع بسرعة إلى أوروبا لتواصل أبحاثها وحياتها المنتظمة. قالت: ستفكر في طريقة تقنعها لكن لب الموضوع كما قالت هو أن جوديت تتذمر لأنها تعتقد أن أنجلينا لا تقضي معها وقتاً كافياً. قالت: تعرف أن الموقف بالغ التوتر وأن الحل في يدي. سألت وأنا أعرف الإجابة كيف؟ فأجابت: ننهي علاقتنا مؤقتاً.. أضافت مسرعة: وأن أجعلها تحس بأنها ما زالت أهم شيء في حياتي. أجبت وأنا أتصنّع اللامبالاة.. ماشي. نظرت هي إليّ مندهشة ومستاءة بعض الشيء.. لعلها كانت تتوقع مني اعتراضات وتوسلات.

كنت أفكرها تستغلني. أحسست بغضب خفيف تحول إلى حزن هادىء. قلت لنفسي: ليست هذه هي المرة الأولى؛ منذ أن وعيت على الدنيا... ولن تكون الأخيرة.

١٩٥٦

أنجح وألتحق بالجامعة وتقبل أوراقي في كلية الآداب بقسم

الصحافة. لكن هناك مشكلة المصاريف. كان خالي شاكر في مهمة عمل بالقاهرة، وأتى ليزورنا. فاتحته أمي في موضوع المصاريف فتطوع مرحباً أن يدفع القسط الأول، وبعدين نشوف. وقد شاف بعد ذلك ودفع القسط الثاني. في العام الذي يليه أصدر عبد الناصر القرار الخاص بمجانية التعليم في جميع مراحله. وهكذا انزاح من على كاهلنا عبء المصاريف الجامعية الخاصة بي.. لأننا آنذاك كنا قد وصلنا إلى القاع بالنسبة إلى الوضع الاقتصادي في البيت. المجمع (وهو الهيئة الادارية للكنيسة البروتستنتية في مصر) يصرف المعاش لأبي المريض. كان المعاش الشهري أربعة جنيهات وأربعين قرشاً.. إيجار الشقة أكثر من ست جنيهات. ثم المصاريف الخاصة بالدواء. الطعام. الملابس... إلخ. هبّ بعض الأصدقاء القدامى لأبي من أيام السودان للمساعدة. مبالغ شهرية منتظمة (وإن كانت بسيطة) مبلغ آخر من خالي الكبير أو مبالغ صغيرة من خالي شاكر. وهكذا انتظمنا جميعاً في أعمال بعد انتهاء اليوم الدراسي. عملت في مجلة «صباح الخير» بالقطعة بمتوسط خمس جنيهات في الشهر. أحتفظ بجنيهين وأعطي أمي الباقي. الجنيهات كنت أشتري منهم سجائر «ونجز». سراً؛ كنت أحياناً أجلس على بوفيه الكلية وأشرب شاياً، وكنت أدفع منهما أيضاً اشتراكي الحزبي؛ فقد انضممت لتنظيم سري ماركسي قبل التحاقي بالجامعة بوساطة أصدقاء السودان القدامى الذين بدأ بعضهم في الاهتمام بالعمل السياسي السري.

جاء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وكنت مثل

غيري من آلاف الشباب انضممنا إلى المقاومة الشعبية وأخذنا نتمرن بعض التمرينات العسكرية البسيطة. وحينما احتلت قوات الغزو مدينة بورسعيد انتقلت فرقتنا إلى قرية على طريق السويس اسمها مسطرد. لم نطلق طلقة واحدة لكن كنا على استعداد للقتال. معظمنا لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره. جاء بعد ذلك الإنذار الروسي الشهير وتوقف الغزو. وواصلت أنا ما كنت بدأته. الدراسة. العمل. السياسة. أحببت زميلتي في الكلية. لم نتبادل حتى قبلة واحدة. كنت أعطيها كل صباح الشعر الذي كتبته فيها فيحمّر وجهها وتقول علشاني؟.. الشعر ده فيّا أنا؟ كنت أوصلها كل يوم إلى بيت زميلتها لتذاكر معها. حبي استمر سنة كاملة. تركتني إلى صحفي أكبر مني في السن ويعمل في الصفحة الرياضية في إحدى الصحف. عرفت بعد ذلك أنها كانت متزوجة قبل أن تلتحق بالجامعة.. ثم طلقت. عرفت أيضاً من زميلتها أنها كانت تتسلل من بيتها إلى شقة أحد الطلاب العرب.. بينما كنت أنا أكتب فيها الشعر. لكني اكتشفت مع التوغل في الحياة.. إن هذه الأشياء تحدث كثيراً.

كان الشرط الذي قالوه لي: إذا كانت الخواجاية تريد.. فعليها إذاً أن تحضر ومعها صديقتها. ليس هناك مكان لك. ليس هناك مساحة للتفاوض. أبلغتها؛ فأجابت بسرعة.. ولم لا. استدركت هي قائلة: أريد أن أخوض التجربة إلى النهاية ولعل وجودك يشكل حاجزاً.. سوف أحكي لك بالتفصيل.

كنت أود أن أسألها.. حاجز؟ حاجز إيه..

١٩٥٩

قالت سعاد: اكتشفت اليوم أن أهلي ليسوا أهلي.. إن الذي كنت أظنه أبي ليس بأبي. كانت قد رمت لي ورقة الليلة الفائتة وأنا أدخل إلى العمارة.. حددت لي فيها موعداً صباح اليوم التالي.. مهم أوي كما كتبت بخطها المخربش.

حينما أخذت تنهنه وتقول تريد أن تبحث عن أهلها الحقيقيين استهواني الوضع فسألتها ساخراً يعني أخوكي مش أخوكي. فأجابت مترددة.. مش عارفة. كنا نلتقي أحياناً خلسة خارج البيت وفي عمق المزارع المحيطة بالدير. كنت قد بدأت أفقد اهتمامي بها.. فقد بدأت أكتشف العوالم الخارجية.. لكنها كانت دائماً ترجعني إليها.. ومع أني لم أعد ألبد لها على السطح (لخروجي كل صباح) فإن الشبشبة التي بدأتها معي (منذ أكثر من سنتين) لم تنته بانتهاء علاقة السطح بل تطورت في الفترات الأخيرة إلى فعل جنسي صامت (وإن كان غير كامل).. كنا نتعرى.. وكانت تتقمص في كل مرة شخصيات مختلفة. بنت صغيرة تجلس في أحضاني.. خادمة وأمَة تركع أمامي وتقبّل أطرافي.. إلهة أسجد لها وأغسل جسدها.. في كل مرة كنت أقرر هذه هي المرة الأخيرة خلاص. لكني كنت أرجع لها في أي وقت أو مكان تطلبني - تأمرني - فيه.

قال لي العملاق وهو يحتسي الزجاجة الثانية من البيرة.. طلبك صعيب ويمكن يكلّف. مستعد تدفع؟ قلت له متضاحكاً: من مية لألف فأجاب متضاحكاً ربنا يستر من

الألوفات.. انشالله مش كتير. همس وهو ينهض أنا عاوز أخدم يا مدير.

خرجت أنجلينا في المساء مع جوديث. قالت إنها سوف تتمشى معها... فهمت أني غير مرغوب أن أخرج معهما. نادى عليّ عامل التليفون.. كان العملاق على الطرف الآخر قال.. الليلة دي.. قابلني عند المعبد الساعة عشرة. رجعت إلى الغرفة كانت الساعة ما تزال الثامنة بعد. ارتديت ثياب أولاد البلد (الجلابية الطويلة السابغة) ولفلفت رأسي ووجهي بالشال الكبير ـ على عادة البلد هنا ـ وأخذت مصباح الجيب الصغير ونزلت متلصصاً الى الخارج. كنت غاضباً.

... لم نذهب إلى الكهف السابق بل إلى مقبرة مفتوحة حديثاً كما قال لي مرافقي. تسلقنا الجبل، وكنت ألمح بين وقت وآخر الأضواء البعيدة لمدينة هابو. لعل الأصوات التي أسمعها هي أصوات بنات آوى.. ترددها أحجار الجبل والريح والإحساس المفاجىء بالوحدة وبسخف الأشياء وعدم جدواها. أقاوم هذه الأحاسيس بالتركيز على معرفة الطريق وشراكه بعد أن صمت مرافقي واستغرق في عالمه. تسلقنا الدرج الحجري المتهدم الذي تفوح منه رائحة غريبة.. ليست بالتأكيد رائحة الرطوبة ولا حتى رائحة الموت.. لعلها رائحة ما بعد الموت. أشار مرافقي إلى طاقة صغيرة مستطيلة لم أتبينها في الحائط المظلم. أشار إليّ محذراً واضعاً إصبعه على فمه.. تركني وخرج. لبدت عند الطاقة أنتظر.

أمامي غرفة دائرية. بمواجهتي مباشرة المائدة الحجرية التي تقدم عليها الذبائح. خلف المائدة أرى تجويفاً عميقاً في الحائط

وضع في أرضيته مصباح نفطي يلقي بضوئه على السقف من فوقه وعلى مائدة الذبائح وعلى الحائطين ـ وعلى جزء منهما ـ على يمين ويسار المائدة. الضوء يكفي لأن أرى صليباً مسيحياً لكن يشبه كثيراً الصليب الفرعوني.. عنخ مفتاح الحياة. الصليب منحوت بشكل بارز في التجويف. يبدو ـ وكالعادة ـ أن المسيحيين المصريين الأوائل هاجروا بدينهم إلى هذه المعابد الفرعونية للعبادة (وللموت أو لكليهما أيام الاضطهاد في بعض العصور الإسلامية). على يمين المذبح أرى الإلهة إيزيس بثيابها الشفافة مبرزة استدارة ردفيها وصلابة ثدييها. الثوب يحدد تفاصيل الجسد المقدم إلى الإله «مني» رب الجماع والتكاثر. يقف هو عارياً بكل بهائه ورمز ألوهيته الضخم المنتصب يكاد يخترق أسفل بطنها. تنظر إليه كأنها متضرعة. هو لا ينظر إليها. إنه ينظر خلفها حيث يقف الإله «ست» ملتصقاً بها من الخلف وقد وضع يده اليمنى على ردفها ويده اليسرى على كتفها.

على الحائط المقابل يقف الصقر حورس (وجه صقر وجسد غلام) و«ست» يضع بذرته فيه.

أسمع خطوات أقدام وأرى الفتاة التي كانت موجودة في المرة السابقة تضع مصباحاً آخر داخل التجويف فتمتزج حركتها مع الآلهة في الجدران. تركع أمام مائدة الذبائح محنية رأسها على الحجر. تأتي الامرأة الأخرى وتقف بجوارها ثم تقيمها لتضمها فوق المائدة الحجرية. تنضو عن الفتاة ثيابها وهي ترتل بصوت خافت منغم. أرى أنجلينا ومعها جوديت تقفان على جانبي الامرأة ال‍ـ‍ي تضع يديها على رأس كل منهما

محنية إياها إلى الأمام على المائدة الحجرية.. تشير إليهما فتقوم كل واحدة منهما بنزع ثياب الأخرى. تأخذ الامرأة الثياب وتكومها في كومتين خالطة بينهما. ترقد أنجلينا عند رأس الفتاة وجوديت عند قدميها. يظهر الرجلان (بالجلد فوق الحقوين) يرقصان بجوار الامرأة التي تتناول الدف من أحدهما وتبدأ في الدق عليه منغمة ترتيلها. تركع الفتاة بين الفتاتين ويعطيها واحد من الرجلين خنجراً معقوفاً فتجز شعيرات من بين فخذي الفتاتين.. تئنان وأسمع أنينهما يتردد في الجدران الحجرية. تحضر الامرأة منقدها المشتعل وتلقي فيه بالشعيرات التي جزّتها الفتاة التي تقفز واقفة فوقهما واضعة قدميها حولهما. تعطيها الامرأة المنقد المشتعل فتدور راقصة به فوقهما. تتناوله الامرأة وتتجه إلى إيزيس وتمد المنقد إليها والرجلان يرقصان حولها. ينزع الآن كل من الرجلين منطقته الجلدية ويعطيانها للفتاة ويتجه أحدهما ليقف تحت الإله «مني» وآخر تحت الإله «ست». تضرب الفتاة البنتين أسفل البطن بالمنطقتين. يتعالى أنينهما. تقيمهما وتنزلهما وتقودهما إلى الرجل العاري تحت الإله «مني» ثم إلى الرجل الآخر.. تأخذ المرأتان الفتاتين تهصرناهما فيما بينهما... مثل الإله «ست» وإيزيس بينما يقف الرجلان تحت الإله «ست» و«حورس» متقابلين. ترقص النسوة كتلة متماسكة من اللحم والعري والأنين والهمهمة. يقفز الرجلان ويختطفان المصباحين ويخرجان... أسمع لهاثهن وأنينهن لفترة طويلة حتى يأتي مرافقي ليقودني إلى الخارج.

أسير وحيداً في ضوء القمر أحاول أن أتبين طريقي مرة أخرى.

... في الصباح كنا نعرف، دون كلام أن ثمة علاقة جديدة بيننا الآن ـ أو على الأقل بيني وبينهما ـ حزمت أغراضي القليلة. ثم الوداع بهدوء. لم أعن بأن أسأل عن خطتهما. فقد تبادلنا العناوين وحاسبنا بعضنا البعض. جاء التاكسي الصغير ليأخذني إلى المعدية. ذهبت مباشرة إلى موقف السيارات المتجهة إلى أسوان.

ها هي النوبة الجديدة.. البيوت التي هجرها أهلها. البيوت التي غش فيها المقاولون، والتي حدّد الموظفون الجهلة شكلها القبيح وأبعدوها عن النيل. شعرت بالخجل. لقد أتينا إلى أسوان لنكتب عن السد العالي (وكان ذلك بعد الإفراج عنا عام ١٩٦٤ حينما بدأ البناة من الروس والمصريين يتوافدون على هذا الجبل وعلى هذه الصحراء. كنا ثلاثة: صنع الله إبراهيم، وكمال القلش، وأنا) حضرنا تهجير النوبيين.. هجرتهم الأخيرة من قراهم المعلقة أعلى النهر منذ أن كان النهر. كنا نغني ـ ونحن في السجن ـ للسد العالي.. للكهرباء.. للأرض التي سيكسبها الوادي... الأرض الزراعية الآن أصبحت بايرة وبدلاً من زراعتها، تُنصب فوقها الأفران لصنع الطوب الذي يستخرجونه من التربة الخصبة ويحرقونها في القماين. بدأ ذلك في عصر السادات حيث تم تمصير الحلم الأمريكي في الحصول على الثراء السريع السهل. النوبيون تركوا المساكن الغبية في ما أسموه النوبة الجديدة وهاجروا.

خالي صليب كان يعمل هنا منذ بداية المشروع في قسم الحسابات.. ألتجىء إليه أيام العطلات هرباً من ملل القاهرة وجفوتها. الفيلا التي يقيم فيها بنوها أيام خزان أسوان القديم

على الطراز الكولونياني. نجلس في الصباح الباكر في الفراندة الخشبية نشرب الشاي ونحكي. أتجول بمفردي في أسوان. أذهب إلى سوق البشارية (يقال إنهم بقايا المصريين القدماء الذين اختلطوا بالدم الزنجي والنوبي). أقلّب في بضاعتهم من الخناجر والتمائم.. ترجعني إلى أيامي.. أيام السودان.

بعدها بسنوات - بعد السجن - نأتي لمشاهدة التجربة. الروس ينعزلون عن المصريين. ناد خاص بهم. أتوبيسات خاصة بهم.. ومساكن خاصة بهم أيضاً. قمت بمحاولات فاشلة للاقتراب من نسائهم. لكننا كتبنا الكتاب في النهاية.

عشرون سنة الآن على الكتاب. وخمس عشرة سنة على آخر مرة رأيت فيها أسوان. يدخل التاكسي بي إلى مدينة لا أعرفها. أطلب من السائق أن يدلني على فندق معقول. يقودني إلى فندق متواضع على النيل. أصعد إلى غرفتي التي تطل على الكورنيش. أغتسل وأنزل لأتمشى. أجد أمامي نادي التجديف الذي كنا نتناول فيه طعامنا أحياناً ونشرب البيرة المثلجة أيام كتابة الكتاب. أجد لنفسي كرسياً في نهاية الشرفة التي تطل على النهر. أطلب بيرة لكن الرجل يعتذر - بصدق - .. وجهه النوبي خجلان. لم يعد النادي يقدم البيرة أو المشروبات الروحية - كما أسماها - منذ زمن. أعرف السبب لكنني أسأل مستعبطاً. ينكس رأسه للأرض ولا يجيب. أكتفي بالشاي. أطلبه باللبن. ينظر إليّ مندهشاً، فأقول له إني عشت في السودان. يرتاح وجهه قليلاً. أقول له عن الباخرة وأسمّي له المحطات النوبية المعلقة بين الجبل والنهر. يهرع ليحضر الشاي باللبن. يتسكع حولي يريد أن يتونس. نحن نقارب بعضنا في

العمر. أسأله لكي أتأكد. أكتشف أنه أصغر مني قليلاً.. لكنه الزمن على حد قوله.. أسأله عن الطعام هنا فيلوي وجهه. أقول له ممازحاً إني مشتاق لأكلة بالكسرة والملاح. يتهلل وجهه ويقول اتفضل عندي في البيت. بكره على الغدا. أحاول أن أتملص لكنه يعلّق باستياء يمكن إحنا مش قد المقام. نتفق على الموعد، أسأله بحذر أين أجد دكاناً أشتري منه البيرة وخلافه يشرح لي الخارطة المعقدة لدكان واحد قبطي.. على حد قوله. أحس من نبرة صوته أنه شرّيب للمشروبات الروحية. أذكّر نفسي أن أشتري في الغد من القبطي أحسن نوع براندي مصري وأحضره معي لمضيفي الذي اكتشفت بعد أن غادرت النادي أني لا أعرف اسمه.. وهو أيضاً.

أدلف مستعيناً بذاكرتي المشوشة إلى منطقة السيل حيث سوق البشارية. لا أجد أثراً. أسأل عابري السبيل. لا أحد يعطيني إجابة شافية. لا أحد يهتم. يسقط عليّ إحساس باهظ بالخواء.. وتعب هائل... أذهب إلى الفندق وأنام نوماً ثقيلاً.

كنت على فراشي في الغرفة الضيقة حينما أيقظوني ليقولوا لي أبوك بيموت. هرعت إلى غرفته.. إلى سريره الذي يفوح برائحة مرضه وعرقه.. الوجه ساكن. العينان مغمضتان. الجسد الهزيل يبدو أكثر هزالاً ويغوص داخل المرتبة. كنا كلنا هناك. قالت أمي نائحة.. مش تبوس أبوك؟.. ترددت لكن أحدهم لا أعرف من هو وضع يده على رأسي وأحناها باتجاه الوجه. لامست شفتاي الخد الذي نبت عليه شعر الذقن الأشيب (نسوا أن يحلقوا له ذقنه في الأيام الأخيرة) ملمس اللحم المتهدل البارد فاجأني فاعتدلت بسرعة... خائفاً.. مشمئزاً

ومكسوفاً.. لا أذكر التفاصيل التي أعقبت ذلك، لأني أيامها كنت أعاني من نوبة من نوبات الملاريا (التي تسمى الراجعة).. أظن أني رجعت إلى فراشي لأسقط في الحمى مرة أخرى.

كنت قد تركت البيت قبل أسابيع خوفاً من الاعتقال. أنام كيفما اتفق عند بعض الأصدقاء الذين لم يرحبّوا تماماً بهارب سياسي. هناك صديق من عزبة منصور يقاربني في العمر يتردد على منزلنا، ويلتقي بي في مواعيد محددة سلفاً لكي يوصل للبيت أخباري ويقول لي أخبار البيت. آخر مرة التقيته قال لي إن كل شيء تمام. لكن ذلك الإحساس الغامض دفعني أن أقول له: لا بد أن أرجع إلى البيت. ناقشني ليثنيني لكني أصررت. في اليوم التالي لعودتي جاءتني الملاريا. وفي نوبات الصحو عرفت من أخي (الدكتور الآن) أن حالة أبي خطرة. حينما استيقظت بعد ساعات.. وأنا معافى تماماً كانوا قد غسلوا جسده وألبسوه ثيابه التي لم يرتدها منذ سنوات. جلسنا حوله نتحدث بهدوء وهمس ونتحاشى النظر إليه. في الصباح التالي صلوا عليه في الكنيسة المجاورة ودفنوه. لم أحضر الدفن ولم أزره في قبره بعد ذلك أبداً. منذ ذلك اليوم انقطعت عن الصلاة والذهاب إلى الكنيسة.

تغديت عند النوبي ـ الذي عرفت اسمه: ربيع. عبرنا إلى الجزيرة بقاربه الشراعي. البيت نظيف وواسع مريح. قدمت له الزجاجات والحلوى تقبلها خجلاً لكن بترحاب. بعد الغداء السوداني جلسنا مع بعض أصدقائه وأقاربه الذين شاركونا الطعام نشرب في التكميبة الخاصة بعائلته على شاطىء النهر. اتكأنا على الحصر الملونة النظيفة.. والأولاد الصغار يحيطون بنا

ويخدّمون علينا بالماء البارد والثلج والمزات. سألت مندهشاً.. ألا يحرجهم أحد من الجماعات. أجابوا باستهانة.. إن هذه أرضهم.. وهذه جزيرتهم وإن الجماعات في أسوان لكنهم لم يدخلوا إلى الجزيرة بعد. للنهر هنا رائحة مختلفة عن تلك التي في الأقصر.. رائحة الماء النقي التي تروّح عليه نسائم الصحراء حاملة معها رائحة الشجر والعشب.

في الصباح كنت أستقل القطار السريع إلى القاهرة.



حكاية من الحكايات

ذهبت إلى جنيف عام ١٩٧٣ لكي أتكسب بعض النقود من العمل اليدوي المتاح لشخص مثلي. دبرت لي ميشا صاحبتي البولندية دعوة من أصدقاء لها هناك.. واحدة بولندية متزوجة من سويسري. أخذت إجازة دراسية من مدرسة المسرح لمدة ثلاثة شهور ووجدت عملاً من خلال صديقة ميشا في شركة للنظافة يمتلكها مليونير بولندي مهاجر. كنت أنظف المراحيض في قصر الأمم هناك (التابع للأمم المتحدة) وتعرفت على كورين السويدية التي تعمل في فندق صغير. هي مثلي في حوالى الثلاثين من عمرها.. وترسم لوحات لا بأس بها في أوقات فراغها. كورين تحب زميلتها في العمل في الفندق ـ وهي سويدية أيضاً ـ وقد أعلنت لي هذا بصراحة منذ لقائنا الأول في مقهى ومطعم شعبي صغير يؤمه «الغرباء الفقراء» أمثالنا.. لكننا من باب الفضول وتمتين الصداقة التي بيننا كما قالت هي مارسنا الجنس مرات قليلة.. ولم نستمتع به.. وهكذا استقرت العلاقة بيننا ورحت أتجول معها في نوادي المساحقات التي لم يكن باستطاعتي بمفردي الدخول إليها أو حتى

اكتشاف مكانها. أثناء ذلك وجدت عملاً مؤقتاً ككومبارس صامت في فيلم تلفزيوني. رحبت به إذ يبعدني لعدة أيام عن المراحيض. البنت المسؤولة عن الكومبارس اسمها ساندرا وهي سويسرية إيطالية تدرس تاريخ الفن في جامعة جنيف. تلك الأيام كنت ما أزال أقيم مع أصدقاء ميشا في شقتهم الواسعة الأنيقة في الحي الراقي... وإلى هناك استطعت أن أدعو ساندرا إلى العشاء في الويك أند بعد أن عرفت أن أصحاب الشقة سيذهبون في رحلة طويلة. (وجهها عادي، لكن ذات صباح حين كنا نصور الفيلم على شاطىء البحيرة، وفي فترة الاستراحة كنت أقف بالقرب منها، وضوء الشمس ينهمر عليها من الخلف مخترقاً فستانها القطني الأبيض الخفيف، كاشفاً لي ثدييها المندفعان إلى الأمام بدون حمالات وبطنها الصغيرة وجزءاً من الردفين المنفلتين من إسار اللباس وفخذيها المنبجسين من الردفين المكتملين)، يلمع شعر ذراعيها وزغب ساقيها الذهبي برائحة النظافة والفتوة. لم أستطع تحويل عيني عن هذه «الرؤية» التي تكشفت لي بدون توقع، عن ساندرا الجادة التي تتولى مساعدة الإنتاج بتقطيب في معظم الأحوال. قلت لنفسي معابثاً ـ كما قال بطل نجيب محفوظ، محجوب عبد الدايم: من يركبها يركب طبقتها، فما أنا إلاّ منظّف للمراحيض. استجمعت شجاعتي المتناثرة وانتهزت لحظة انفراد ـ متعمدة من جانبي ـ ودعوتها على العشاء عندي في البيت، وكان ذهولي شديداً حينما قبلت بدون تردد. لعل الشقة الراقية (حين أعطيتها العنوان هي التي حسمت الموقف. الله أعلم فقد كففت منذ زمن عن بحث أسباب مثل هذه. أذهلتني ثقافتها

الواسعة وبساطتها (أهل سويسرا متزمتون.. متعنجهون.. لا يختلطون بالغرباء.. وخاصة الذين يعملون لديهم). أدرت الحديث إلى الحب والعلاقة بين الجسد والعقل.

كانت ترتدي ثوباً أبيض أنيقاً بسيطاً ـ كنا في الصيف ـ وقد تركت شعرها العسلي منسدلاً على كتفيها العاريين. جسدها فتيّ رياضي وبشرتها ذهبية لوحتها الشمس. ثوبها يبرز الساقين الطويلتين وانحناءة البطن الصغيرة والردفين المنفتحين حيث يتموج النسيج الحريري بينهما وهي تتحرك بين مائدة المطبخ حيث أكلنا والبلكونة حيث جلسنا نحتسي النبيذ المثلج. الوجه الجاد ـ هي قليلة الابتسام ـ يرتكز مرتاحاً على رقبة منبسطة تنسحب إلى بلاطة الصدر العريضة والثديين الصلبين. قالت إنها زهقت من الرجال (عمرها في منتصف العشرينيات).. وصلفهم.. واهتمامهم بمزاجهم فقط. عرفت منها أن صاحبها يقاربها في السن. قلت لها معابثاً.. إذاً فالعواجيز أمثالي مالهمش حظ معها (هذه حيلة جديدة تعلمتها وأنا أطعن في السن) قالت ـ كما توقعت ـ أبداً.. ليس صحيحاً.. فالشباب خضر بدون تجربة أو حنان. أكدت أنا على قولها بحماس... ولم أعرف ماذا أفعل بعد ذلك أو ماذا أقول. أنقذتني هي قائلة؛ إنها تحب صديقها. لكنه لم يعد يهتم باكتشاف جسدها. باللعب معها. كنت أستمع إليها مأخوذاً. قلت لنفسي لعل ساندرا الجادة قد ثملت بعض الشيء.. فمنذ دخولها بوجهها الجاد تناثرت ثقتي الهشة ومعها أحلامي الهوجاء في جسدها و«اللعب».. قلت لها متفلسفاً: إن اللعب هو بداية الاكتشاف الجسدي وليس من المهم ـ قلت كاذباً ـ

فعل الحب (استخدمت الكلمة الفرنسية المهذبة عن عمد). أضافت هي بثقة: وليس مهم عندي الوصول به إلى النتيجة التقليدية عند فعل الحب. قالت؛ إن «اللعب» يعطيها الإحساس المتجدد باكتشاف جسدها ومعرفة مفاتيحه الخفية.. خاصة أنها تترك لشريكها أن يبحث بنفسه ـ في ظلام الجهل بالجسد في اللقاءات الأولى ـ عن مفاتيحها، وهي عن مفاتيحه. أضافت بابتسامة خفية: هذا كان من زمان قبل أن أرتبط بصاحبي. كنا نجلس مقابل بعضنا في البلكونة الصغيرة الملحقة بغرفتي وسكينة جميلة تحيط بنا.. مددت يدي أتلمس برفق الزغب الخفيف الحريري فوق ساقها المستندة على أفريز البلكونة حيث كان النور الخفيف المنبعث من الغرفة ينعكس على لحمها الذهبي. ارتاحت في جلستها فاردة ساقيها مميلة برقبتها على حافة الكرسي، مقوسة ظهرها، ووجهها الجاد ينظر إليّ متمعناً.

ما الذي أطلق سراح جسدينا.. وفك أسرهما؟.. لعلها الصدفة التي جاءت في اللحظة الصحيحة لجسدين قررا أن يفتحا صناديقهما المليئة بالمفاجآت (لعلنا لم نكن نعرف حتى بوجودها) فأصبحت كل مساحة مهما صغرت تفرز رائحتها الخاصة بها منفصلة عن بقية الجسد ومحققة اكتمالها بفعلها وردود فعلها بدون سيطرة الأجزاء الأخرى عليها.. بذلك التناسق النادر الذي تجده في حركة حيوان الغاب.

.. أصبحنا الآن على أرض البلكونة نزحف ـ ككيان خرافي ـ نلهث ونعري بعضنا بدون كلام وبدون لهوجة بل بكثير من البطء المتعمد.

لم نتحدث قبلها وأثناءها وبعدها إلا كلمات وجملاً محددة قليلة وضرورية تحمل لهجة الأمر..

هندمت نفسها وطلبت تاكسي بالتليفون. لم نفترق على موعد محدد. وإن كنت «أعرف» أني سألتقي بها ثانية. تبادلنا أرقام التليفونات.. ونزلت معها إلى الباب الخارجي ننتظر التاكسي الذي لم يتأخر. ودعنا بعضنا بهزة خفيفة من الرأس. صعدت لأنام فوراً نوماً عميقاً لذيذاً..

في عصر اليوم التالي وجدت طرداً صغيراً باسمي في صندوق البريد. كان رواية لم أسمع بها من قبل بعنوان: «قصة أو».

إنها حكاية شابة اسمها «أو» تعيش في باريس ولها عشيق. يحبان بعضهما. يأخذها إلى مكان خاص حيث يمارس رجال آخرون ـ أعضاء في هذا المكان ـ أو النادي الخاص ـ الجنس معها.. كل بطريقته. إن الفتاة موافقة على دخول هذه التجربة ـ المغامرة ـ عن طيب خاطر بهدف اكتشاف جسدها وفانتازيتها الخاصة المختبئة داخلها. إن النساء في هذا المكان يخضعن لنظام صارم ويتعرضن للعقاب إذا ما لم يلبين رغبات الرجال الذين يترددون على المكان (باعتبارهم أعضاء) كذلك فانهن يخضعن لرغبات السيدة التي تديره إذ إنها تختار البنت التي تروق لها لتفعل بها ما تريد (تنام معها) إن «أو» مثلها مثل الأخريات تقدم جسدها لرجال لا تعرفهم بل وليس من المسموح رؤية وجوههم أو محاولة التعرف عليهم. إنهن حينما لا يكن في خدمة الرجال يعاملن كالأميرات. إن المكان كله

كالحلم. وفي لحظات فك إسار أجسادهن يقبلن أن يستخدمن وفق ما يريد الآخرون وبدون مقابل (بالطبع!).

كانت الرواية مرسلة من ساندرا مع كلمات قليلة تقول فيها إنها تهديني هذه الرواية التي تعتقد أنها تهمني.

في البداية لم أفهم الرواية جيداً لكن أشرت إليها خلال لقائي مع كورين.. التي انتزعت مني قصة ساندرا واهتمت كثيراً أن أروي لها بالتفصيل ما حدث بيننا وأن أسرد لها ما قالته.

قالت كورين إن ساندرا شخصية مثيرة ويجب الالتقاء بها على أرضية جديدة. قالت إنها مهتمة بها بشكل شخصي. وقالت إنها تود الالتقاء بها. شرحت كورين سبب اهتمامها: إن ساندرا من الطبقة المثقفة (والدها يعمل كخبير في التحقق من أصالة اللوحات الفنية للرسامين العالميين).. وإنها في هذه الطبقة السويسرية المنغلقة والمتزمتة البروتستنتية لا تعيش أحلامها المحبطة، حتى وإن مارستها.. فإنها تمارسها من خلال الإحساس الدائم بالخطيئة.

كنا - أنا وكورين - نحس بوحدة في هذا المجتمع السويسري.. كنا نبحث عن رفقة.. (لم نجدها في البارات أو في نوادي المساحقات واللواطيين.. حيث يوجد الكثير من الادعاء والاستعراض (.. لذا أحست كورين أن ساندرا قد تكون هي «الابن الضال» الذي نبحث عنه... فهمت أن عليّ أن أشرك كورين فيها. ورغم عدم حماسي الطبيعي للمشاركة.. إلا أني حسمت ترددي ورتبت الموعد

المطلوب. لم أقل لساندرا الكثير. فقط قلت لها إن لي صديقة فنانة ترغب في التعرف عليها.

التقينا في مقهى شعبي.. شربنا بعض النبيذ. كانت كورين تدير دفة الحديث. انتقلنا بعد ذلك إلى أحد الأماكن التي تعرفها كورين.. ولا يمكن للغرباء اختراق بابها المغلق دون سابق معرفة من الحارس. المكان ديكوراته كلاسيكية متحفظة.. والموسيقى مرحة انسيابية مع الضوء الخافت. بيست الرقص مزدحم بالراقصات.. بعضهن يرقصن فرادى. الراقصون من الرجال قلة ولا يرقصون مع النساء. على الموائد تجلس النسوة يتهامسن.. يضحكن.. متحاضنات.. أو يقبّلن بعضهن البعض. قامت كورين ترقص مع ساندرا على الموسيقى الهادئة البطيئة. رأيت ساندرا تميل برأسها على رقبة كورين التي احتضنتها إليها ممسكة بها من ردفيها.. دعاني أحد الأولاد للرقص.. لكني لم أكن متحمساً. أعتقد أننا شربنا كميات كبيرة من النبيذ.. وأننا مررنا بمرحلة السكر ووصلنا الآن إلى المرحلة التي تليها.. مرحلة التنبه الحساسة للأصوات.. وعدم الإحساس بالتعب.. بل بخفة الجسم وبأن هناك تلك الأفكار الهائلة التي تريد أن تقولها.. لكن لا تعرف كيف. اقترحت كورين ـ دائماً كورين ـ أن نذهب إلى غرفتها الصغيرة القريبة. في الغرفة كنت أراقب ما يحدث وأراقب نفسي (أعرف عن نفسي أني غيور مثل البشر العاديين).. لم أكن أحس بالغيرة لأن كورين تقود الموقف. إنها كسبت ود ساندرا.. بل وإنها أثارتها. كانت ساندرا الآن بين ذراعي كورين تهصرها... لكن كورين أخذت يد ساندرا ووضعتها بين فخذي. ابتسمت

البنت إحدى ابتساماتها القليلة هذا المساء.. وقالت: هللّو يا صديقي القديم.. لقد أخذتني كورين منك لكني واثقة بأنك سوف تتفهم الموقف الجديد. سنعرف كيف نستمتع ببعضنا..

أكلنا كل ما هو موجود بالثلاجة. وجهزت كورين إبريقاً كبيراً من القهوة السوداء القوية شربناها بامتنان.. ثمة جو من الزمالة يتوهج بيننا.. يملؤنا بالضحك والحبور والدعابة. خلعت كورين ثيابها وقفزت واقفة فوق الفراش تتنطط. فبرغم أنها تمتلك مقاسات جسد الصبي.. إلاّ أن قوة آسرة تشع منها. قالت: من يشتري؟.. أخذنا نزايد أنا وساندرا في السعر.. قالت أريد أن أرى النقود.. ألقينا بكل النقود التي معنا ـ بضعة فرنكات ـ تحت أقدامها.. لكنها أزاحتها جانباً وواصلت رقصها فوق السرير. حذت ساندرا حذوها. بنتان صغيرتان تلعبان وتتصايحان. تصبب العرق منهما وسالت خيوطه بينهما ممتزجاً بجسديهما.

لم أكن أعرف ـ ولم أهتم ـ أي شفاه أقبّل.. أو أي جسد في فمي أو أي جسد يدخلني. كنا ثلاثة نمتلك بعضنا نلتهم ونعطي بكرم الأعضاء ذاتها.. التحرق نفسه.. الرائحة والفم واللسان واللهاث ذاتهم.

كنت أسمع ساندرا تغمغم «خذوا جسدي لتأكلوه.. خذوا دمي لتشربوه». كانت هذه ـ حينما تذكرت في صباح اليوم التالي ـ كلمات المسيح في العشاء الأخير.

تفننا في اللعب بعد ذلك. لعبنا لعبة السيد والمسود.. لعبنا لعبة اختيار شخص غريب من الطريق أو من المقهى (أو واحدة)

ودعوته أو دعوتها لقضاء الليل معنا. (كنا ذلك قبل ظهور الآيدز).

حينما كان أحدنا يحس بالملل كنا نفك أسره. نسمح له بالاختفاء بضعة أيام ونلتقي بعد ذلك لنحكي ونلعب.

استأجرنا غرفة صغيرة.. كل منا معه مفتاحها.. نلتقي فيها فرادى.. أو ثلاثتنا.. أو نحضر صيدنا إليها. كانت ساندرا هي سيدتنا وعبدتنا. ولم يتمرد أحد منا على هذا الوضع أو حتى فكر في تغييره.



الرحيل والترحيل

قطاري الأول كان من مدني إلى الخرطوم ومنها إلى الشلال بالقطار أيضاً في رحلة تستغرق يومين أو ثلاثة حسب حالة القطار وحالة القضبان وحالة الأمطار (أحياناً كان الخط ينقطع نتيجة لسقوط أمطار الخريف الغزيرة التي تزيح القضبان الحديدية من مكانها فترسل الحكومة من يصلحها بينما ينتظر الركاب أياماً في القطار يقتصدون في تناول طعامهم وماءهم القليل حتى تهرع القرى والنجوع المجاورة إلى نجدتهم بالزاد والزواد. أما إذا ما توقفوا في صحراء العطمور الشاسعة التي يقطعها القطار عادة في الظروف الطبيعية في حوالى يوم كامل.. حينئذٍ يكون حالهم حال!).. إن رحلة بالقطار في تلك الأيام كانت تستدعي انهمار المودعين على المسافر يغمرون وجهه بالقبلات والدموع.. واستقبالهم له بالزغاريد تهنئة بالسلامة.. بل إن البعض يقدمون الأضاحي شكراً لله ووفاءً بالنذر. كان السفر بالقطار مغامرة، لكننا كنا نتمناها ونترقبها. ومن الشلال إلى أسوان بالباخرة ـ ليلتان ـ ثم بالقطار المصري الذي يتفوق عن قرينه السوداني بالسرعة والانضباط ـ

إلى حيث سنقضي الإجازة الصيفية عند أهل أمي بالدلتا.. أو في الزقازيق أو في شبين الكوم، أو غيرها من البلاد التي كان ينتقل إليها خالي الكبير خلال عمله كمحاسب في الحكومة.

أيامها كان الاستعداد للسفر يسبقه بأسابيع.. من شراء الهدايا للأهل.. وتحضير الزوادة للسفر وهي الكشك الذي تصنعه أمي من لبن المعزة التي نقتنيها ومن الدقيق الذي نطحن قمحه في طاحونة عبد المنعم المجاورة لبيت المبشرات والإنداية. وهناك القراقيش التي تخبزها أمي في الفرن الذي بناه أبي بيديه في حوش البيت.

الحجز للسفر يتم من خلال عمي عجيب لاوندي الذي كان يعمل في السكة الحديد في مدني (وهو ليس عماً لي ولكن كنا نخاطبه هكذا من باب الأدب). لست أذكر أو لست أعلم ماذا كان عمله.. لكنه صديق لأبي مثل معظم أعضاء كنيستنا، وهو متزوج من تلك المرأة الضخمة التي ابتلاها الرب بخلفة البنات كما تقول أمي (ثم تستدرك قائلة: سامحني يا رب). عمي عجيب يسكن في مساكن السكة الحديد.. بلوكات من طابق واحد مبنية بالطوب الأحمر ـ في الأصل ـ لكنها اسودت من دخان القاطرات التي كانت تسير أيامها بالفحم. نزوره في بيته وأخالس النظر إلى ابنته الكبرى ـ زميلة أختي الكبرى ـ والتي أحببتها سراً لفترة من الزمن من جانب واحد بالطبع وهناك نأكل الجيلاتي المصنّع منزلياً ونشرب الشربات أو الكركدية الشديد الحلاوة. أنسل من بيت عمي عجيب لأشاهد القطارات وهي تدخل المحطة أو تناور..

واجف القلب أحلم وأنا على عتبة باب الحوش الخلفي الذي يطل على المحطة.. أحلم بالسفر والرحيل.

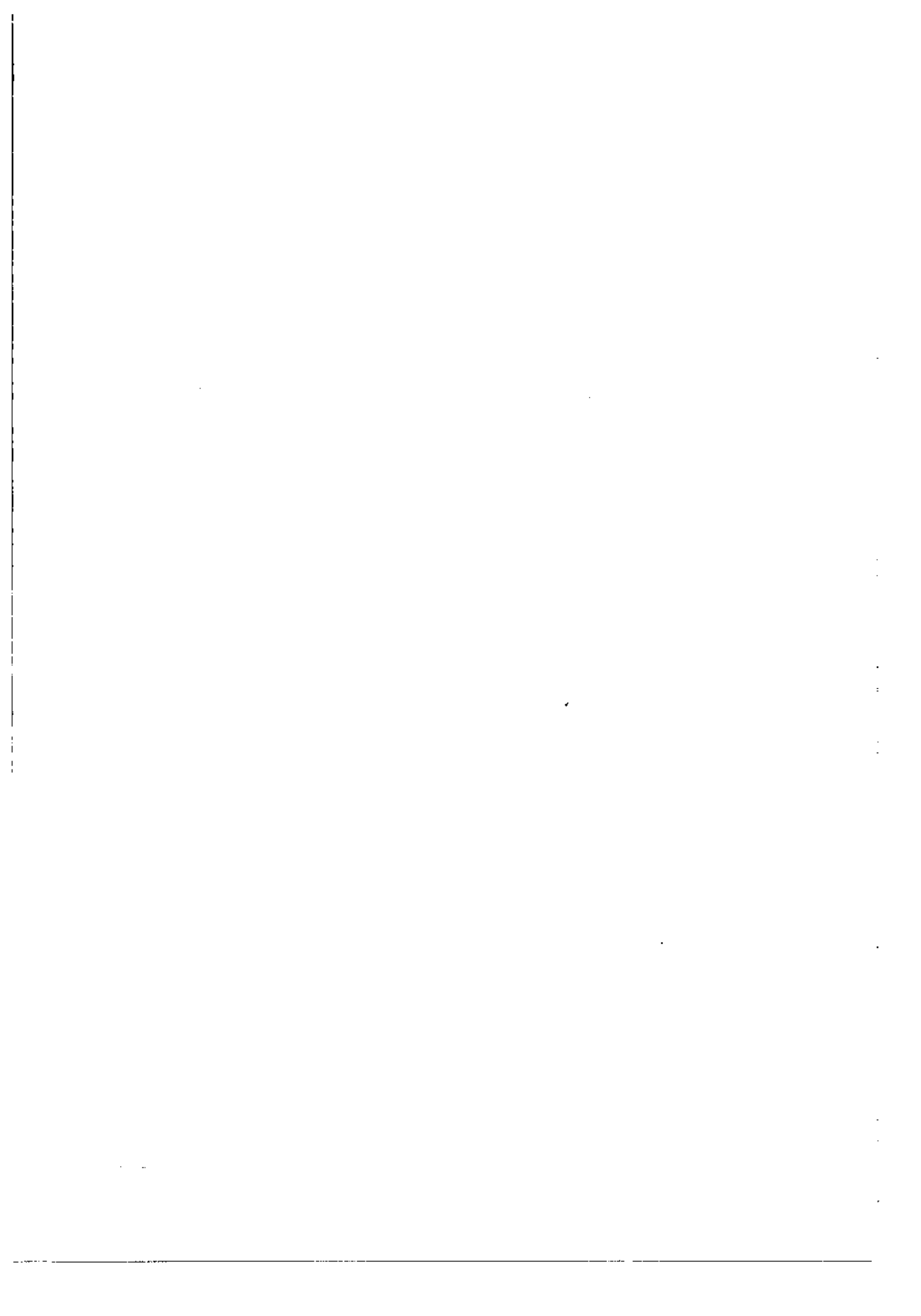
عمي عجيب يحجز لنا قمرتين في الدرجة الثانية في القطار ويحجز لنا أيضاً قمرتين في الباخرة. هنا ينتهي نفوذه. وما إن يصل القطار المصري حتى تضيع هيبتنا ونتكدس كيفما اتفق مع ركاب آخرين غرباء تحوطنا أقفاص الدجاج واللهجة الصعيدية والنظرات المتسائلة.. أقضي الرحلة ملتصقاً بالشباك الذي أناور لكي أصل إليه تخطف عيناي مناظر الريف المصري وفقره الذي لم أعرفه في الريف السوداني.. طائرتي الأولى كانت من القاهرة إلى وارسو. تصيبني المطارات بالجزع. هل سأجد البوابة إلى الطائرة؟ وهل نسيت البطاقة أو جواز السفر؟ تنتقل يداي بلهفة فوق جيوبي.. أرى المطارات كمصيدة مليئة برجال الشرطة الذين سيوقفونني ويعرضونني للإهانة أو السخرية. رائحة المطارات تقززني. الطائرة تربك توازني وطعامها يصيبني بالغثيان. القطارات تهدهدني. أنام مرتاحاً على أنغام عجلاتها الحديدية وأستيقظ فرحاً على صفيرها وهي تصل إلى المحطات.

هناك أيضاً الأتوبيسات والحافلات التي تعبر بالواحد من بلد إلى بلد ومن حدود إلى أخرى. الأتوبيسات الخشنة التي تسافر من الخرطوم إلى الشمال إلى نيالا في السودان، أقصى الغرب على حدود تشاد. ألف وخمسمائة ميل نقطعها في ثلاثة أيام وثلاث ليال عدا ساعات قليلة من الراحة التي أنتظرها بتلهف لكي نريح مؤخراتنا المرضوضة من المقاعد الخشبية. نستلقي على الرمال الحنونة لنقفز بعدها إلى السيارة التي

تزحف بإصرار دؤوب فوق الرمال والمدقات الصحراوية. يأتلف الركاب ويتبادلون الأحاديث والسجائر. تتوقف السيارة في الظهيرة حتى صلاة العصر. ثمة حلل صغيرة (جمع حلة بكسر الحاء وهو تعبير سوداني - فصيح - عن تجمع سكاني أصغر بكثير من القرية).. أكواخ من القش والبوص أو الحطب. ستجد دائماً في أحد الأكواخ من يطبخ الطعام. ندخل ونستلقي على الحصير أو العنقريبات. ننعس قليلاً في الطراوة. نستيقظ لنأكل. نشرب الشاي الحلو بالنعناع. ندفع قروشاً قليلة. يتجمع المصلون خلف إمامهم الاختياري يصلون العصر. تتحرك السيارة حتى ساعة العشاء. نتوقف في حلة أخرى. نأكل ونشرب الجبَنة (القهوة السودانية وهي من قشر البن وطازجة دائماً) ونسافر حتى قبيل منتصف الليل. نتوقف. الحلة مظلمة. نتوسد الأرض فوق أغطيتنا. تراود الواحد فكرة.. وماذا عن الثعابين أو العقارب أو حتى قطاع الطرق.. تتلفت حولك لتجد الجميع قد استغرقوا في النوم. تزدرد مخاوفك لتستيقظ في الصباح على رائحة الجبَنة.. على ترتيل صوت رخيم خافت لم يتخلص بعد من آثار النوم.. تسحب إبريق المياه وتبتعد في الصحراء الواسعة العارية إلا من أشجار قصيرة لتنزوي تحت إحداها... وحولك كل هذا الصباح!

هناك أيضاً لوري الترحيلة. إنه لوري السجن الذي ينقلني من سجن إلى آخر. شاحنة مغلقة إلا من بضع طاقات مجلّدة بالحديد. على جانبيه من الداخل تمتد أريكتان من الحديد. اليد اليمنى مقيدة بالحديد في اليد اليسرى لمن يجلس بجوارك من الزملاء. الحديث هامس. العرق الوسخ يختلط برائحة السيارة

العفنة التي رحّلت آلاف المساجين من قبل. الهواء مكتوم وثقيل مختلط برائحة الأحذية والجوارب التي لم تخلع منذ أيام. تحاول أن تتطلع من الطاقات الحديدية فلا تشاهد شيئاً. السائق غير المدرب يرج السيارة التي تتطوح بشكل خطر في الطريق المليء بالحفر والمطبات. أتمنى أن أصل إلى السجن.. حيث يفكون قيودي وأخلع ثيابي لكي ألقط القمل الذي التصق بي من السيارة والذي أشعر به يقفز بين لحمي وثيابي الداخلية.



مذكرات

القاهرة ـ أواخر أغسطس ١٩٨٢

رجعت اليوم إلى كتابة المذكرات. لا أريد أن أسميها اليوميات ـ لأني لن أكتب يوماً بيوم ـ كنت أكتبها في بيروت ومزقت بعض الأوراق منها وأنا خارج من لبنان عابراً نقاط التفتيش الكتائبية والإسرائيلية والسورية وبالطبع احتمالات التفتيش في مطار القاهرة... هناك بعض المعلومات والأفكار التي سجلتها في بيروت ولم أكن أرغب أن تقع في أيدي أولئك الذين أشرت إليهم. وهكذا بعد أن استقر بي الحال بعض الشيء في القاهرة عدت من جديد أكتب فيها والحقيقة لا أعلم لماذا أكتب هذه اليوميات اللهم إلا أني أتسلى بذكر ما جرى. أحياناً أقلّب الصفحات القديمة وأندهش حينما أقرأ ما كتبته. المهم أني عدت أكتبها من جديد لعلي أستخدمها يوماً ما حينما أكتب كتاباً عن الناس والسفر.

أسكن الآن في شقة مفروشة في الزمالك. هي في الأصل ترجع إلى السيدة (ر) التي أعرفها من سنين طويلة. بعد الحبسة

مباشرة. هي الآن داخلة على الستين. أدفع إيجاراً معقولاً. ليس لي عمل محدد بعد لكني أعيش على مدخراتي القليلة من أيام بيروت والعراق.

ما زلت أتجول مندهشاً في الشوارع القاهرية، أؤجل مرواحي إلى الإسكندرية لأزور من تبقى من أهل أمي ولأعرف أخبار الأحياء منهم والأموات. كنت قد قطعت الاتصال بهم بدون سبب أو لعله الكسل خلال الأثنتي عشرة سنة الماضية وأنا خارج مصر لا أنوي العودة إليها لولا الغزو الإسرائيلي للبنان. لم أكن أرغب أن أنفي نفسي مع الفلسطينيين وهم يطردون من بيروت. قررت الرجوع إلى القاهرة وليحدث ما يحدث. حتى الآن لم يحدث شيء (يعني لم يطلبني البوليس أو المباحث لسؤالي عن ما كنت أنشره في بيروت ضد السادات الذي كان قتله برصاصات «الإسلاميين الأصوليين كما يسمونهم في الغرب»). موت السادات كان السبب المباشر لعودتي بالإضافة لهروبي من بيروت بعد الغزو الإسرائيلي. الشقة الزملكاوية تطل على شوارع صغيرة متقاطعة بالقرب من شارع «شجرة الدر» - وهي الملكة التي كانت جارية مملوكة لأحد السرطين المماليك «العبيد» الذين حكموا مصر. حاربت الصليبيين في المنصورة وهزمت لويس التاسع وسجنته هناك. ماتت مقتولة في الحمام على أيدي جواريها ضرباً بالقباقيب الخشبية في فصل من فصول الصراع على السلطة بين الحكام المماليك بعضهم البعض - على ناصيته يوجد مسجد صغير أسفل عمارة. عرفت فيما بعد أن أصحاب العمارات يقيمون هذا النوع من المساجد استغلالاً للقانون

الذي ظهر في عهد السادات والذي يعفيهم من نسبة كبيرة من الضرائب إذا ما خصصوا جزءاً ولو صغيراً من العمارة كمسجد أو حتى كزاوية للصلاة. وقد استولى المتطرفون على هذه الأماكن في غيبة الاهتمام الرسمي باحتياجات الناس.. وفرض المتطرفون آراءهم على الجيرة المحيطة من خلال المايكروفونات في كل أوقات النهار. المهم أن المايكروفون الخاص بالمسجد موجه ناحية عمارتي حيث أستمع يومياً خمس مرات إلى الآذان ينطلق به صوت أجش بعد محاولات لضبط المايكروفون تصاحبه أصوات النحنحة وإخراج البلغم والسعال بالإضافة طبعاً إلى التفسيرات الخاصة بهم. مقابلي يوجد معهد الموسيقى الشرقية في فيلاً أخنى عليها الدهر. على بوابته يقف أو يجلس جنود الحراسة ببنادقهم ومسدساتهم. في الداخل أرى من البلكونة، الأولاد والبنات يتمشون أو يجلسون على الحشيش يتسامرون أو يتمرنون على الآلات الموسيقية. حاجة تشرح القلب. من الناحية الأخرى من الشارع يتوالى الدق والحفر ليل نهار لبناء عمارة سكنية وإدارية ـ هكذا تعلن اللافتة المعلقة ـ مملوكة لأمير سعودي. مكان العمارة كان الفيلا المخصصة كناد للخبراء الروس وعائلاتهم أيام عبد الناصر.

القاهرة ـ ديسمبر ١٩٨٢

أيام عادية ليس عندي علاقة مع امرأة أو حتى بنت. احتمالات مع لمياء (كانت لي علاقة مع أمها). ثم هناك البنتان بتوع البوتيك في الدور الأول من العمارة. تعرفت على الخواجا الذي يسكن في آخر دور لعله في نهاية الستين. أعزب لكنه

على علاقة برجل نوبي متزوج من امرأتين. واحدة في النوبة وواحدة مصرية. عرفت كل هذا من (ر) لأنها أيضاً صديقته. قلت لها ضاحكاً تلمين حولك المنفيين اجتماعياً وسياسياً. قالت هذا يجعل الحياة أكثر إثارة. إنها تفكرني بجامعي التحف. علاقتها بينتها ليست على ما يرام. ولعلها تعوّض هذا بفتح بيتها للناس التحف. رأس السنة مرت كئيبة كعادتها.

القاهرة ـ يناير ١٩٨٣

تعرفت منذ بضعة أيام على واحدة ست قبطية تعيش لوحدها في شقتها الخاصة.. تصوروا وفي المعادي. تعرفت عليها من خلال صديق مشترك، أعطتني رقم تليفونها وقالت إنها تود الاستماع عن بيروت بعد أن عرفت هي من الصديق المشترك أني أمضيت معظم أيام الغزو هناك. مجرد حجة. لا بأس. ذهبت إليها وجلسنا في البلكونة المغلقة بالزجاج نشرب. الشارع هادىء وشبه مظلم. البلكونة تطل على صف من الفيلات. لعلها في منتصف الثلاثين. ملفوفة. تمتلك ذلك الجسد الذكي (هناك أجساد غبية حتى وإن كانت جميلة) الذي ما زال يحتفظ بطزاجته وينضح بخبراته. هي تعمل مدرسة في إحدى الكليات. حكينا في البداية كلام عمومي، لكن صدرها الذي كان يبرز نصفه من البلوفر الديكولتيه فرض نفسه عليّ. كانت تميل أحياناً لتتناول شيئاً من الطاولة الواطئة فيكاد صدرها يندلق من الفتحة. مرة ضبطتني ألتهمه فنظرت إليّ متعابثة. قلت لها بدون مقدمات صدرك حلو. ضحكت هي بغنج وقالت أنت فلجير. نطقتها بالفرنسية. احلّو الجو

بيننا. قامت لترد على التليفون وأحضرته معها إلى البلكونة ووقفت تواصل حديثها بالفرنسية التي لا أجيدها. سحبتها تجاهي وأجلستها على حجري. عادة لا أفعل هذا. أنا خجول. لعلي كنت في حالة من عدم الاهتمام بردود الفعل منها. فلو طردتني غاضبة كنت سأنسحب بدون أي إحساس بالخسارة. أمالت ظهرها عليّ وهي ما تزال تواصل الحديث في التليفون.. أخذت أتحسس من تحت الجيب الواسعة. أنهت الحديث ضاحكة ونظرت إليّ وقالت إنت مستعجل أوي. قلت لها صادقاً إنها أول امرأة أتحسس جسدها منذ أكثر من شهرين. يبدو أن هذه العبارة أثارتها فقامت وأطفأت نور الصالة الذي يضيء البلكونة. رجعت تجلس في حجري وأخذنا نقبّل بعضنا. قلت فلنذهب إلى الداخل. قالت: وماله هنا في البلكونة؟

لم تصبني الدهشة من سلوكها. كففت عن التفلسف والاندهاش.

القاهرة ـ فبراير ١٩٨٣

اليوم زوغت من صاحبتي في المعادي بحجة أني عندي شغل. مزعجة تستيقظ مبكرة حوالى السادسة صباحاً وتبدأ في ضرب التليفونات لكافة البشر وأولهم أنا. تعلمت أن أدفن التليفون بعيداً في الصالة تحت الوسائد. اليوم تأكدت من تعليق البنتين بتوع البوتيك. حينما تراني نادية السمراء تبتسم بكل جسدها الأسمر الذي يعاني من سوء التغذية. أحس به يخرج من فستانها صائحاً مثل التلاميذ بعد انتهاء اليوم الدراسي. أما

فريال البيضاء فإنها تنظر إليّ بعيني القطة.. حذرة لكنها تقول.. جربني. الموضوع ليس جاذبيتي التي لا تقهر... الحكاية كلها في الوضع الطبقي الذي تفرضه الشقة التي أسكن فيها فوقهما. واحدة أمها خدّامة والثانية أبوها يعمل في الكشك الذي في الشارع يبيع السجائر والتفاهات الأخرى. زمان أيام الرومانسية السياسية كنت بالتأكيد سأحاول تجنيدهما وإدخالهما الحزب وإثارة حسهما الطبقي والثوري... إلخ... إلخ. لكنني اليوم غير مهتم بأرواحهما. بل بجسديهما.

نهاية فبراير

قالت لمياء.. أمي بتسلم عليك. فوجئت. قالت: ما بتضربلهاش تليفون ليه؟ كانت تنظر إليّ مبتسمة متخابثة. كنت أسأل نفسي هل تكاشفت المرأتان وقالت كل منهما للأخرى عن علاقتها بي. الأم من حوالى خمس عشرة سنة. الزوج ما زال هو.. هو. الشقة نفسها. أذكر أن الأم دعتني لآكل عندهم فسيخ بمناسبة شم النسيم. ذلك كان أيام العلاقة. لمياء أيامها بنت صغيرة. أذكر أن الزوج الذي كنت أعرفه معرفة عابرة جلس معنا بعض الوقت ثم انسحب إلى غرفته. كنت أنا مكسوفاً منه ومتضايق من الأم التي كانت تتصرف كأن ما فيش حاجة. تجنبته أنا أيضاً بعد ذلك. كنت أسأل نفسي أحياناً هل يعلم بعلاقات زوجته المتعددة والمتوالية؟ والآن هل تعلم الأم بما تفعله لمياء؟ هل يجلسان على السرير ويتبادلان المعلومات؟.. لمياء تعرف بعلاقة أمها الحالية. إنها تناديه بأونكل. هي تقول إنها تحب أباها. هذا صحيح. فكيف توفق

داخلها بين كل هذه المشاعر؟ العلاقة بيني وبين لمياء لم تستمر طويلاً. كام مرّة وخلاص. نحن الآن أصدقاء. تحكي لي عن صاحبها الجديد وعن مغامراتها السابقة. أحس أنها الآن مستمتعة بارتباكي. تجلس مسترخية على الكرسي الفوتيل الذي عريتها أول مرة فوقه. أنظر إلى ساقيها وأغص بالحسرة.

مارس ١٩٨٣

اليوم عيد ميلادي. أحس بالأسى. هأنذا أعبر الخامسة والأربعين ولسه ما عملتش حاجة. تسع عشرة سنة مرت على خروجي من المعتقل. سنوات بين وارسو وأوروبا وبغداد وبيروت وما بينها من بلاد وأحداث. شفت الموت بعينيّ. تزوجت وطلقت مرتين. اشتغلت في ألف حاجة. حققت بعض الأحلام مثل السفر والنسوان. طيب وبعدين... وبعدين إيه؟

أسجل حلماً غريباً

أنا ماشي في منطقة الحقول المتاخمة للأهرامات. عصرية يوم صيفي عطشان. أقول لنفسي عاوز أقعد على قهوة. أجد أمامي مقهى صغير مدفون تحت تعريشة (لبلاب أو عنب.. لا أعرف). أدخل. لا أحد سواي يأتيني الجارسون بكوب شاي باللبن. أندهش وأقول له لم أشرب شاياً باللبن من سنين طويلة. يقول عارف. أنظر فأجد امرأة داكنة السمرة مكحّلة ترتدي ثوباً أسود شفافاً وأرى لحمها العاري. أعرف أنها المعلمة. تقترب هي وتتفحصني جيداً. أحس ببعض الضيق. تمصمص

شفتيها وتقول لشخص أو أشخاص لا أراهم «حالته صعبة خالص». تقول الحل الوحيد لازم نكويك بالنار. أهلع. أسألها ما فيش حل تاني؟ تقول الحل التاني إنت عارفه. أستيقظ وإحساس بالقرف يغمرني. قمت إلى المطبخ وصنعت شاياً. جلست في الردهة المظلمة الباردة أحتسيه انتابني فجأة ذلك الإحساس بأني رأيت كل هذه الحاجات من قبل.. وبأني أعرف المرأة.

مارس

ذهبت إلى الإسكندرية عبر الطريق الصحراوي. أحبه أكثر من الطريق الزراعي الذي يمر عبر قرى وبلاد الدلتا الرتيبة الموخمة.. ذهبت إلى شقة أخوالي. تغيّر اسم الشارع في دانتيمارو (وهو المهندس الإيطالي الذي بنى الكورنيش) إلى اسم آخر نكرة. نظرت إلى صندوق البوستة الخشبي القديم المتهالك. لا توجد خطابات. طبيعي فمن يراسلهم؟ لكن اسم خالي الكبير المتوفى من سنوات ما زال على الصندوق، وبجواره اسم خالي الآخر صليب. تحته اسم خالتي. صعدت درجات السلم المظلمة حتى في النهار. لا يوجد نور أتوماتيكي أو خلافه. أدق باب الشقة. أسمع الخطوات البطيئة المترددة والصوت الخائف يسأل بوجل.. مين؟ أقول بصوت عال: أنا. نجلس ثلاثتنا في غرفة النوم مثل زمان. خالتي تدهور حالها. ما زالت تصبغ شعرها بالأسود الفاحم. الروماتيزم والرطوبة قيّدا حركتها. لا أعرف عمرها.. لا أعرف ما إذا كانت أصغر من أمي أو أكبر منها. خالي ما زال متماسكاً. إنه على المعاش

الآن. عملية البروستاتا. بطلّ التدخين. يقرأ الصحف بانتظام ويسألني عن الجماعات الإسلامية. يظن أني أمتلك الأجوبة. أحاول أن أقلل من شأنهم. أريد أن أطمئنه. يسرد لي أخبار الإشاعات التي سمعها في الكنيسة عن الهجوم على بعض الكنائس في الصعيد. أهوّن من الأمر. تقول خالتي.. لازم ده يحصل.. علشان دي علامات من ربنا تؤكد مجيء المسيح ثانية ليحكم العالم ألف سنة يعم فيها السلام ثم تقوم القيامة. نتبادل النظر أنا وخالي. يقول لها ضاحكاً: يا أختي؛ ابن أختك مش بيآمن بالحاجات دي. تقول خالتي بطيبة.. بس أبوه كان قسيس.. كان راجل طيب ومؤمن. يقول خالي قومي إعمليلنا لقمة. تسير متوكئة على عكازها إلى المطبخ. نتحرك نحن لنجلس في الصالة على الكنبة الأسيوطي القديمة من أيام ستي. أمامنا على الحائط المقابل صور أمواتنا. أقضي الليلة في الشقة. أبيت على السرير المجاور لسرير خالي. تختفي خالتي في الغرف المظلمة في البيت الذي لم تفتح نوافذه منذ سنوات لا صيفاً ولا شتاء (أغلقوا النوافذ الخشبية ذات شتاء قاس منذ بضع سنوات.. دقوها بالمسامير. وحينما انقضى الشتاء وجاء الربيع والصيف، لم يفتحوا النوافذ. وهكذا مرت السنون والنوافذ مغلقة). ذات مرة سألت خالي عن السبب في عدم فتحها. نظر إليّ مندهشاً وقال: كده أحسن. لم أسأله بعد ذلك. أنام مرتاحاً على السرير الذي تصالبت مرتبته بفعل الرطوبة والقدم. في الصباح أحاول أن أقنع خالي أن أعزمه على فنجان قهوة في مقهاه المفضل (زمان) مقهى ديليس الأنيق المطل على البحر. يرفض. أنزل لأتمشى في الإسكندرية التي لا

أستطيع أن أعيش فيها بالرغم من أني أحبها. سألتني خالتي: زرت قبر أمك؟ أجبت كاذباً بالإيجاب مع أني لا أعرف مكانه، ولم أحاول أن أعرف. خالي يعرف كذبتي. قال لي مش ضروري. قال: المهم أنك تفتكرها في قلبك. اعتبرت هذا حلاً مناسباً.

تابع المذكرات

مارس ١٩٨٣

التقيت اليوم مع صديقي ص. أ. قلت له إني أود أن أكتب كتاباً عن فكرة استخدام الجسد في أغراض مختلفة. قلت إني أود أيضاً أن أكتب عن السجن (كان معي في الواحات وقبلها في سجن القناطر وفي سجون أخرى).. وعن العلاقات التي تتم بين بعض المسجونين وبعضهم البعض. لم تعجبه فكرة الحكي في هذا الموضوع. قال: إن المباحث وغيرها من الجهات المعادية سوف تنتهز هذه الفرصة لمزيد من التشنيع على الشيوعيين والديموقراطيين الذين يدخلون إلى السجون في بلادنا بانتظام. حاولت أن أشرح له فكرتي؛ وهي أن الجسد هو الشيء الوحيد الذي يبقى للسجين بعد أن تأخذ منه إدارة السجن كل شيء.. أوراقه.. كتبه.. خطاباته.. ملابسه.. وحتى شعر رأسه. باختصار هويته. لا يبقى له من نفسه سوى عقله وجسده. قلت له: حتى الجسد تحاول الإدارة أخذه منه (الحمّامات الجماعية والمراحيض التي ليس لها أبواب. جرادل الخراء في الزنزانة المغلقة لأكثر من عشرين ساعة في اليوم). باختصار سحب كل الخصوصية. الخطابات تمر على الإدارة

وأنت ترسلها وأنت تستقبلها. إذاً فمحاولة استخدام الجسد بوساطة السجين السياسي - وأكدت هنا على السياسي - للحفاظ على آدميته المهدرة والتمسك بمساحة من الرغبة في الحب المتبادل.. في العطاء لشخص بعينه.. لاحظ هنا مبدأ الاختيار المنعدم تماماً في الحياة اليومية في السجن.. كل هذا يعطي السجين فرصة شديدة الخصوصية في التعبير بجسده ومن خلاله وعن تمسكه بنفسه وبروحه. هو لم يقتنع.. مع أنه كاتب مهم. أنا أعرف أنه ينطلق من موقف أخلاقي وسياسي.. لكني أعتبر أن من يريد أن يكتب عليه بالضرورة.. أن يحتفظ بمسافة بين الكتابة والمواقف الأخلاقية والسياسية.. وأنه قد يجد نفسه أحياناً على مسافة بعيدة عن هذه الأشياء... تماماً مثل أفعالنا السرية في الحياة.

سأذهب قريباً في رحلة إلى الصعيد. يمكن حتى أسوان. كنت قد التقيت بنتين من هولندا واحدة رسامة واسمها أنجلينا والأخرى دارسة آثار. الاثنتان على مشارف الأربعين.. لكن صحة وعافية. الجمال عادي وخاصة البنت الأثرية. اسمها جوديث. الاسم يهودي.. لكن أعتقد أن هذا غير مهم. فقد كانت لي علاقتان في بولندا بيهوديتين.. وإيه المانع؟ سياسياً؟.. أم أخلاقياً؟ فإذا أزحنا الأخلاقي جانباً تعال نبص في السياسي. هل غير اليهود لمجرد أنهم غير يهود يتميزون سياسياً عن اليهود؟ بإيه؟ وماذا عن اليهود واليهوديات في الحركة الشيوعية المصرية والعالمية؟ وماذا حتى عن بعض اليهود داخل إسرائيل نفسها. من يحاول أن ينكر أن البلد الوحيد في المنطقة الشرق أوسطية والعربية الذي قامت فيه مظاهرات ضد الغزو الإسرائيلي على

لبنان.. كانت إسرائيل. ولا بلد عربي واحد وأنا كان لي ـ وما زال أصحاب يهود ـ وليسوا صهاينة.. ـ الله يرحم خالي وديع لما كان عايش في السودان.. كان له واحدة صاحبة يهودية. يبدو حكاية اليهود في عائلتنا المقدسة، قديمة.. على رأي خالي صليب. سنذهب ثلاثتنا في اللاندروفر تبعهم إلى الأقصر مباشرة. الاستقرار بها بعض الوقت.. ثم إلى أسوان. أخذت أحبذ لهما فكرة الذهاب إلى السودان عن طريق البر. أعجبتهما الفكرة وسيطلبان فيزا من السفارة السودانية في القاهرة. بدأت حمى السفر المحببة تستولي عليّ من الآن. أحس أني أريد الحركة الطويلة فبعد أن أتيت من بيروت في الصيف الماضي لم أذهب إلى مكان خارج القاهرة سوى الإسكندرية. أنا الآن ليّ حوالى أثنتا عشرة سنة خارج مصر مرة واحدة وأعتقد أن هذه فرصة ذهبية للتعرف من جديد على مصر.. لكن بسكة مختلفة.

تابع أنجلينا

اتصلت أنجلينا بي اليوم وقالت إنها تود أن تراني حتى نناقش بعض تفاصيل الرحلة. حددنا موعداً. كانت قد أشارت بوضوح منذ أيام أنها على علاقة جنسية بجوديث. قالت إن علاقتهما مستمرة من حوالى خمس عشرة سنة. أنجلينا، في نظري تمتلك الجسد الأنثوي. فصدرها يبرز صلباً متماسكاً من تحت البلوفر الصوفي الخفيف. وجهها حلو وعيناها لعوبتان حساستان. جسدها شمالي فاره ومدملج. أما جوديث فليس فيها أي شيء حلو. قصيرة، مسترجلة بدينة. سريعة الحركة

ولها شارب أسمر خفيف. كانت هي دائماً التي تقود الحديث. أحياناً تسخّف أنجلينا الحالمة والمزاجية. حينما أتت أنجلينا اليوم. أتت بمفردها. سألتها عن جوديث (من باب الأدب)، فقالت إنها مشغولة بشراء بعض الأشياء وإنها فضّلت أن تأتي بمفردها. جلسنا في الصالة نشرب النبيذ. كنا في المغرب. تحدثت هي عن زوجيها السابقين. أستمع إليها مدهوشاً. تزوجت مرة وهي في العشرين والثانية بعد بضع سنوات. كانت جوديث أول أنثى في حياتها. تعرفا على بعض في معرض لأنجلينا. كنت أجلس غير مرتاح بسبب الآلام التي تعاودني في العمود الفقري. قلت لها ذلك. قالت إن يديها تتمتعان بالقدرة على تخفيف الآلام واقترحت عليّ أن أتمدد على الكنبة وتدلّك لي ظهري ولعلي هوّمت بعض الشيء بعد أن استرخيت بسبب التدليك. استرددت نشاطي وهي ما تزال تسحب الألم من ظهري. كنت قد خلعت البنطلون. ضوء أرجواني ينبعث من الدفاية الكهربائية الصغيرة. ليس بالغرفة ضوء سواه. موجات من الراحة تنساب إلى جسدي تزيح بعيداً مناطق التوتر. انقلبت على ظهري غير خجل من انتصابي. شعرها القمحي الطويل تتخلله دفقات الضوء البرتقالي. ملامح وجهها ليست واضحة. تظهر وتختفي وهي تتحرك بجذعها إلى الأمام وإلى الخلف. أصابع اليدين تمسك عضلات ظهري وأحس بها قوية مغتصبة. بعد ذلك قالت إنها لم تمارس الجنس مع رجل منذ سنوات وإنها أرادت أن «تتذكر» كيف يكون ذلك مرة أخرى مع رجل. أحسست أنا ببعض المهانة بسبب الطريقة التي استخدمتني بها (لكن الشعور الذكوري بممارسة

الجنس مع مساحقة هوّن عليّ). قالت إنها مكتفية بجوديث سألتها: جوديث بس؟، ضحكت وقالت جادة إن لكل منهما علاقاته الأخرى العابرة. قامت لترتدي ثيابها وقالت إننا سوف نتعشى ثلاثتنا في الغد في الشقة التي تؤجرانها في الدقي.. وعدت بالحضور. قالت وهي على الباب: لا تخبر جوديث بما حدث. قالت: دعني أقول لها بنفسي حينما أكون مستعدة. لم أفهم. لم أهتم.

تابع المذكرات

بداية الرحلة. أول أبريل ١٩٨٣

انطلقنا اليوم باللاند روفر إلى الصعيد. تركنا القاهرة حوالى الثامنة صباحاً إلى الجيزة في زحمة المرور الصباحي لكن سرعان ما دخلنا على طريق الصعيد من الجيزة حتى انفتح الطريق أمامنا. وجهتنا المنيا التي سنبيت فيها ليلتنا ثم الانطلاق مباشرة في اليوم التالي إلى الأقصر بعد أن قررنا الدوران حول أسيوط نظراً لخوف البنات من الدخول إلى أسيوط بعد انتشار الأخبار في مصر وفي الخارج عن سطوة وعنف الجماعات الإسلامية ورجمهم بالأحجار أتوبيسات السواح وسياراتهم. إحساس رائق بالراحة والبهجة يلفنا جميعاً في السيارة التي تولت جوديث قيادتها. نجلس ثلاثتنا في المقعد الأمامي. أنا في الوسط بينهما. ارتحنا بعض الوقت في الطريق تحت ظل شجرة. شربنا قليلاً من القهوة الموجودة في الترموس وأكلنا من السندوتشات التي صنعتها جوديث الليلة الماضية. لم تترك البنتان أي احتمال لتناول طعام أو شراب من الباعة في الطريق.

معاهم حق. نظرة واحدة إلى البضاعة من أكل وشرب المفروشة على قارعة الطريق تحط عليها جيوش الذباب وخلافه تجعل الواحد يفضل الموت جوعاً. ولا الموت بالإسهال أو التسمم. أنا مستمتع بالرحلة إلى أبعد الحدود. هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أعبر فيها مصر على مهل من الشمال إلى الجنوب متسلقاً عمودها الفقري إلى أعلي... كنت أسافر من قبل بالقطار إلى الصعيد. عدة مرات إلى أسوان أيام الجامعة لأزور خالي شاكر في أسوان حيث كان يعمل في السد العالي كمراقب حسابات وكان يسكن بمفرده في فيلاً من بتوع الري ويخدمه سفرجي نوبي - أو لعله من أسوان - يطبخ ويتولى شؤون البيت. كنت أقضي عنده إجازة نص السنة مسافراً بالطبع في الدرجة الثانية ذات المقاعد الخشبية (كانت ثورة يوليو في محاولتها الساذجة لتطبيق شعارها «تذويب الفوارق بين الطبقات» قد ألغت الألقاب وألغت معها الدرجة الثالثة). مجرد تغيير العلامات المكتوبة على جدران العربات لكن مصلحة السكة الحديد واصلت تشغيل العربات على الخطوط البعيدة باعتبارها درجة ثانية ولكن بالأسعار نفسها بتاعة الدرجة الثالثة وبالمقاعد الخشبية نفسها باعتبار أنها «درجة ثانية عادية... وليست مكيفة». كنت أستقل قطار الليل متسلحاً بالسجائر التي حصلت على حق تدخينها العلني بعد معارك ومناورات طويلة مع أهلي وأمي على وجه الخصوص. ومعي أيضاً مجموعة من الروايات العربية والمترجمة (كنت وما أزال يصيبني السأم من الكتب السياسية والنظرية والعلمية).. أحياناً أذهب مع خالي إلى مكتبه في السيارة الجيب الروسي وأحياناً

أستقل الباص الخاص بالمصريين (كانت هناك باصات خاصة بالروس وممنوع الاختلاط) وأذهب إلى أسوان أجلس على مقاهيها الشعبية. وفي المساء كنا نذهب أنا وخالي إلى فندق كتراكت القديم (اسمه هذا الآن بعد أن بنوا فندقاً قبيحاً بجواره أسموه نيو كتراكت) نجلس في الشرفة ونتقاسم زجاجة بيرة ستيلا ونرقب البر الغربي وقراه النوبية الفقيرة وحديقة كتشنر الشهيرة بحديقة النباتات... إلخ إلخ.

بعد ذلك ذهبت إلى أسوان مع صنع الله ابراهيم وكمال القلش أصدقائي من أيام السجن لنكتب كتاباً ـ صحافياً أدبياً ـ عن السد العالي. كنا نخطط للكتاب أثناء ليالي السجن الطويلة ونهاراته المملة. كان ذلك في الواحات. في أسوان اكتشفنا المسافة الرهيبة بين الحلم والتنفيذ. هذا كتابنا الأول وسوف نكتبه ثلاثتنا.. اختلفنا كثيراً لأسباب تافهة لكن تمسكنا بالكتاب. كان خالي ما يزال يعمل في السد في أسوان. صادفتنا عقبات كثيرة. نصحنا بالالتجاء إلى المهندس إبراهيم زكي قناوي وهو نائب الوزير صدقي سليمان المشرف على تنفيذ السد. قدم لنا قناوي كل العون الممكن وكتبنا الكتاب الذي بدونه لم يكن ممكناً. كان المفروض أن نهدي الكتاب إليه. لم نفعل. أعتقد أن السبب كان انعدام خبرتنا تماماً.

البنات والنسوان الروس بأجسادهن الفتية وملابسهن الصيفية الخفيفة ـ حينما كنا نلتقي بهن في أسوان أو في السوق أو في المكاتب ونحن نجمع مادة الكتاب ـ.. كن مستحيلات (حسب التعليمات التي اكتشفنا أنها كانت

متبادلة بين الجانبين الروسي والمصري: منع الاختلاط تماماً) أذكر أني أفلحت في توثيق علاقتي بواحدة تعمل في معمل تحليل التربة. استطعت أن أنتزع منها موعداً بعد تمنع شديد منها. كانت مرعوبة، وحينما ذهبت إلى بيتها حسب الموعد قابلتني بالطريقة السينمائية التي يلتقي بها الجواسيس. أطفأت أنوار الشقة (كان الروس يسكنون في بلوكات سكنية مقصورة عليهم). كانت رغبتها الجنسية ملتهبة لكن خوفها التاريخي من السلطة ضاعف رعبها وتوسلت إليّ أن أخرج فوراً بعد أن قبّلتها. وهكذا تسللت من الشقة المظلمة وقد انعكس رعبها عليّ أنا أيضاً. عرفت بعد ذلك حينما أقمت علاقات مع روسيات في القاهرة مدى الرعب الذي يعشن فيه. كان الترحيل والفضيحة والمساءلة الحزبية هي المصير المنتظر لمن تتجرىء على إقامة علاقة مع مصري.. كما حدث مع أكثر من واحدة.

وصلنا إلى المنيا في العصرية. مدينة رقيقة جميلة بها كورنيش طويل على النيل الواسع.. عليه بعض المقاهي. وجدنا مكاناً في فندق متوسط الحال يطل على النيل. بالطبع حجزت غرفة منفصلة لي حسب القواعد المتبعة مع المصريين الذين يسافرون في صحبة سيدات لا تربطهم بهن علاقة زواج. موظف الاستقبال أعطاني الغرفة متضرراً فكيف يحق لي كمصري أن أسكن في فندقه ـ ولو لليلة واحدة ـ وقد أتيت إليه في صحبة السيدات الأجنبيات اللاتي يراهن من وضعه العبودي الموروث أرفع مني ومنه. البنتان طبعاً لم يلحظا شيئاً. ازدردت الإهانة المستترة وذهبنا إلى غرفنا لكي نتحمم ونستعد

للعشاء. فرّاش الفندق كان يراقبني من ركنه الذي جلس فيه حتى لا أخترق الخط الأحمر وأذهب إلى غرفة البنات. لكنِ أسقط في يده حينما جاءت أنجلينا إلى غرفتي تتحدث قليلاً حتى تنضم إلينا جوديث التي كانت في الحمام. إنه لا يستطيع أن يقول لها شيئاً فهي الخواجاية الشقراء. استمتعت بتخاذله وخوفه.

تعشينا في مطعم لطيف على الكورنيش. بل وشربنا النبيذ أيضاً.. تصورا تمشينا بعد العشاء نستمتع بنسيم النيل وبالأصوات المنبعثة منه. حينما رجعنا إلى الفندق همست لي أنجلينا بأنها سوف تأتي إليّ بعد شوية. من طرف عيني لمحت بارتياح غياب حارس الحدود وحينما جاءت أنجلينا كنت مستلقياً على الفراش أتظاهر بالقراءة. كنت أريد أن ألعب معها الآن دوراً جديداً حيث إن جوديث ستكون معنا طوال الوقت. قلت لها إني تعبان شوية. ذهلت هي. خبأت شهوتي وتظاهرت باللامبالاة. اغتاظت هي. فقد كانت تريد مواصلة لعب دور السيد معي. دارت بيننا معركة حرب إرادات صامتة. انهزمت أنا. بدأنا اللعب بقوانينها التي استنتها هي بذكاء منذ اليوم الأول فهي التي تحدد الوضع والإيقاع. البداية والنهاية. لكنها كريمة ومعطاءة. تريد أن تمارس الأشياء بكافة أشكالها.. متهيبة بعض الشيء.

معبد الحية المقدسة

الأقصر (البر الغربي) مدينة هابو

وصلنا أول أمس إلى هنا. استقرينا في هذا الفندق المتواضع في البر الغربي في الجزء المسمى «مدينة هابو» أو كما يقول أهل البلد.. هابو.. الفندق يحمل نفس الاسم. من طابقين. الدور الأول الأرضي به الإدارة والمطعم البسيط. الدور العلوي به الغرف الصغيرة المبنية على الطراز القديم.. الذي يمثل الصوامع. وقلايات الأديرة. دائرية بعض الشيء وسقفها على هيئة قبة. الغرفة صغيرة.. سرير وطاولة متوسطة ومقعد واحد ونافذة واحدة. كلها مبنية في صف واحد تطل على المعبد. معبد مدينة هابو لعبادة الحية المقدسة (أو لعل اسمها الصل المقدس؟) على امتداد الغرف بالطول يوجد سكن صاحب الفندق وأسرته. يوجد مطبخ صغير في منتصف الممر وثلاجة متهالكة. الحمامات والمراحيض في الجانب الآخر. نتناول الإفطار في الحديقة الخلفية التي تطل على الحقول.. إفطار كبير من الفول والبيض والعسل مع الخبز الشمسي الصعيدي. المكان هادىء

بوجه عام اللهم إلاّ من بعض الأتوبيسات السياحية التي تفرغ حمولتها من السياح أثناء النهار ليزوروا المعبد ثم إلى الفندق ليتناولوا المرطبات والمياه المعدنية. لا أحد في كامل قواه العقلية من السواح يغامر بشرب المياه من الصنبور مثلنا نحن الذين اكتسبت أمعاؤنا مناعة ضد ميكروبات المجاري المختلطة بمياه الشرب.. في الليل بعد الغروب يعم هدوء حلو المكان كله. يتكوم العاملون في الدور الأرضي يتابعون التليفزيون المرتعش الإرسال. يوجد تليفون وحيد يمكنك من الاتصال بالأقصر خلال ساعات عمل صاحب الفندق في مكتب السياحة الصغير الذي يدير منه أعماله في الأقصر.. حينما وصلنا وحتى الآن لا يوجد سوانا من النزلاء لعل السبب هو انتهاء الشتاء وبداية فصل الحر الأقصري الطويل الملتهب.. أحسن! نجلس بالليل في الشرفة التي تفتح على الغرف ونشاهد المعبد الذي يفصل شارع ضيق بينه وبيننا. نتعشى بالمجهود الذاتي.. أي بطبخ الطعام الذي نعده بأنفسنا. عرفنا من العاملين أن ثمة سوقاً يقام مرتين في الأسبوع لأهالي القرى والنجوع المجاورة حيث يمكننا شراء ما نحتاجه من خضار طازج. أما اللحوم فيمكن شراؤها من الأقصر بالذهاب إليها بوساطة المعدية.

اليوم الثامن

تعرفت أنجلينا على لص آثار قديم. بيته بجوار الأوتيل. بل إنه حوّل بيته إلى نوع من الأوتيل. كنت أراه كل يوم وهو جالس يتمشى على فتحة باب البيت ـ الأوتيل ـ يشبه المومياوات التي يسرقها ولعل هذا من طول العشرة.. عزم خيرتي ونحن

بالتبعية على أكلة حمام.. وعلينا الشرب. ذهبنا ورأينا المائدة التي في الصالة في الطابق الأرضي مرصوصة بالحمام المحمر والمحشي والمسلوق. كنت أتساءل.. لماذا كل هذه المصاريف وأهل البلد مشهورون بالبخل.. شرقاً وغرباً. ثم عرفت السر حينما سكر. عينه على جوديث. يبدو أنه يحب هذا الصنف من الأجسام. فقد لمحت قبل ذلك ولداً أشقر شكله ألماني يسكن عنده في الأوتيل. ولما قلت له ـ كاذباً ـ إني مش مبسوط من الأوتيل بتاعي وأريد أن أسكن عنده ـ بدون البنات ـ لم يبد ترحيباً. هو يجيد الألمانية من طوال خدمته للبعثات الأثرية الألمانية التي تنقب في البر الغربي. يعلق على الجدار صورة فوتوغرافية مكبرة لمقبرة نفرتاري (الممنوع زيارتها أو تصويرها إلا بإذن خاص).. يقف هو في الصورة أيام شبابه البعيد يسلّم على أحد الخواجات الذي قال عنه إنه هو الذي اكتشف المقبرة. كان ينظر طوال الوقت إلى الصورة حتى وهو يرمي غزله على جوديث ويقول بالألمانية «يا.. يا.. نفرتاري» في النهاية لم يستطع أن يتحمل.. فقام ليقبّل البنت من فمها. قاومته هي مشمئزة فهي لا تعرج بين الفرقتين حسب كلامها.. وبالفعل اضطرت أن تهدد بالانسحاب.. وإن كانت خيرتي قد استمتعت بالمشهد كله. المهم أكلنا الحمام وشربنا بعد أن تطامن هو وتخاذل وإن ظل يرمق البنت بنظرات حزينة ويقول بدون مناسبة يا يا نفرتاري. هو كنز من الأخبار. بينه وبين صاحب الفندق الذي نسكن فيه ما صنع الحداد. مضيفنا كان نسيب الآخر الذي تزوج من أخته. لكن الزوجة الأخت ماتت في حادث غامض.. إذ سقطت من سطح فندقنا ـ بيته ـ

مضيفنا يتهم نسيبه السابق بأنه قاتل ولص آثار وله يوم مصيره يقع وفي الوقت نفسه عرض علينا مجموعة من الآثار لكن بثمن خيالي (لعلها لعبة ليوحي لنا أنها غير مزيفة) لكن جوديث خبيرة الآثار (القبرصية) لم تستطع أن تفتي فيها..، وإن كان هو قد لمّح انه سيعاملها معاملة خاصة. نحن لم نأخذ الموضوع بجد.

هناك أيضاً عملاق حرامي آخر في استراحة عبد الرسول الأب الروحي لكل لصوص الآثار في البرين الغربي والشرقي ويمكن في بر مصر كلها.. وهو ابن عبد الرسول الشهير الذي قاد المستر كارتر إلى اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون وأصبح بعدها شخصية عالمية.. هذا قبل اختراع التليفزيون بالطبع. عبد الرسول عنده استراحة ومطعم بالقرب من معبد حتشبسوت. نذهب أحياناً مشياً لنشرب البيرة ونتفرج على بقية نزلاء البر الغربي اللذين يقيمون عنده. الطعام لا بأس به.. البيرة موجودة بوفرة فليس هناك داع للذهاب إلى الأقصر كلما دعت الحاجة. والعملاق اللص موجود دائماً. إنه لا ينزعج إذا ما قلت له إن بضاعته مزيفة.. بل يجيبك بوقار بأنك مدير كبير وفاهم وإنه كان يختبرك.. وفي الغد إن شاء الله سيحضر البضاعة الأصلية. وبالطبع في الغد تتكرر الحكاية نفسها. أعتقد أنه ذاهل معظم الوقت من أكل الأفيون الذي يستحلبه في فمه. نعزمه على بيرة.. يأخذ الزجاجة ويجلس بمفرده ليشربها.

جو الاستراحة يشع بالذبذبة الجنسية. الأولاد الحمّارين يأتون بحميرهم التي هي ملك لعبد الرسول.. الى الاستراحة ليقاولوا الزبائن على رحلات ليلية في ضوء القمر أو العتمة ـ

حسب الفصل - إلى وادي الملوك.. أو الملكات. أسمع التعليقات من الحمّارين على الزبائن والزبونات (من ليلة إمبارح.. أو أول عمن أول كما يقولون) هناك بنت في جمال الملائكة لا تتجاوز العشرين تأخذ ثلاثة دفعة واحدة ومشهورة بكرمها بدون الدخول في التفاصيل. أحياناً إذا كان العملاق في حاجة إلى زجاجة أخرى من البيرة فإنه يحكي لنا. وبالطبع يفوتك من الكذاب صدق كثير.

اليوم العاشر

بدأت الأشياء تأخذ إيقاعها الطبيعي. أصبحنا مثل الكلاب التي تعلّم حدود مناطقها بأن تبول عليها فلا يأتي كلب غريب ويقتحم المكان فصاحب الفندق يأتي في المساء من مكتبه في الأقصر. أسمع دبيب حذائه الثقيل. يتجه مباشرة إلى جناحه. يظهر بعد ساعة في الطابق السفلي يتحادث مع مرؤوسيه ويراجع الحسابات. أراقبه من الشرفة وهو يدلف إلى الباب الخارجي. يقف لحظات طويلة وهو يحك أسفل بطنه، ثم يختفي في الظلام.. يضيء حارس المعبد الكشافات المسلطة أضواؤها على بوابة المعبد وعلى ردهاته الداخلية والخارجية. تكون خيرتي قد أخذت حمامها اليومي مع زوجة صاحب الفندق. نكون أنا وجوديث قد فرغنا من إعداد العشاء الذي نتناوله في الشرفة مكتفين بضوء الكشافات من المعبد تكون. الكلاب السايبة قد بدأت جولاتها الليلية. يكون عبد الرسول قد أضاء استراحته والعملاق يعرض بضاعته على السواح الجدد والقدامى. يكون الطباخ الأعور في فندقنا قد أنهى العمل في

مطبخه الصغير وأغلقه واغتسل ووقف لحظات يدردش مع بقية الخدم والمساعدين وهو يلوك فص الأفيون في فمه الخاوي من الأسنان. تكون خيرتي قد بدأت تحكي عن مغامرتها اليومية في الجبل.. ما صادفها حقيقة وما تخترعه نكون ثلاثتنا في هارموني جميل نتسامر ونضحك خالي البال وقد حددنا مواقعنا لما تبقى من الليل. خيرتي كسبت معركة التحديد.. تحديد مع من ستقضي جزءاً من الليل. ارتضينا أنا وجوديث هذا الاستسلام الصامت.

حينما يكون دوري تتمدد أنجلينا في فراشي الضيق تحكي عن زوجيها وعن جوديث وعن البنت اليونانية التي أحبتها وعن بيتها في أمستردام وعن كهفها (هكذا تسميه) في جنوب فرنسا.. تذهب إلى هناك في الشتاء تبتعد عن برد هولندا وأمطارها إلى الدفء والشمس لترسم وتعيش في القرية الصغيرة التي لا يتجاوز سكانها بضع مئات. أحياناً نمارس الجنس.. وأحياناً نكتفي بالحديث وشرب النبيذ. حينما تذهب أستلقي على الفراش أقرأ أو مجرد أسرح. الجو هنا يساعد على السرحان. أنا سيد وقتي.. الهدوء الشامل بعد ضجيج القاهرة ورصاص بيروت يجعل جسدي يتواءم مع روحي.. أسترجع الصور القديمة العالقة بالذاكرة مثل شخص يقلب في ألبوم قديم للصور وعنده كل الوقت الخالي.

السائحات يتمددن على كراسي البلاج وقد لبسن المايوهات. تسحب أجسادهن الشاحبة البيضاء الشمس اللاهبة إلى لحمهن الذي كان مختبئاً في الشتاء الغربي القارص تحت الثياب الصوفية الثقيلة. الحمّارون اعتادوهن.. ينظرون إليهن

باعتبارهن نقوداً وفروجاً ومؤخرات. يجلسون في الغرزة يشربون الشاي الأسود الشديد الحلاوة ويسحبون الدخان من الجوزة مختلطاً بسعالهم وضجيج حوارهم وحكاياتهم عن إنجازاتهم الجنسية مع الخواجات من الجنسين.. العلاقة هنا (الجنسية) مع الرجال الخواجات تعتبر شطارة تعود على ابن البلد بالنقود الوفيرة أكثر من تلك التي يحصل عليها بوساطة الحمار. السائحات لا يدفعن النقود لمن ينام معهن. السائحات العجوزات قد يدفعن لكن لا يجدن هنا سوقاً رائجة. سوقهن في المدينة.. في الأقصر مع الصيادين المحترفين الذين يفرشون شباكهم في الفنادق وصالات الرقص وفي السوق وعربات الحنطور والكورنيش.. السائحات الشابات لهن سوق أيضاً لكن مع أولئك المتحذلقين من الصيادين الذين يجيدون لعب دور الشرقي الرومانسي. يرتدون ثيابهم الأنيقة ويجلسون بهدوء في ردهات الفنادق يرمون بسهام أعينهم المسبلة إلى المتعطشات للحب والحنان.

الحمّارون يتميزون بالوضوح والمباشرة. إن عملهم يتيح لهم الاقتراب الجسدي اللصيق بالزبائن. يسندونهم بأذرعهم وهم يمتطون بارتباك ضاحك الحمير المتوفزة المستعدة دائماً للرمح برعونة.. يسيرون بجوار الركوبة صعوداً وهبوطاً إلى المعابد. يأخذونهم بعد ذلك إلى استراحة عبد الرسول ليحتسوا البيرة أو يتناولوا الطعام في جو سحري تحيط بهم المعابد والمقابر من التلال المجاورة. هناك تتحدد العملية.. إما أن يستمر الحمّار مع الزبون أو يبيعه إلى زميل له... في الاستراحة يتخلى السائح تماماً عن حذره التقليدي، فها هو كل شيء قد تحقق بدون

مفاجآت. زار المعابد واستمع إلى الدليل ويجلس الآن في مكان آمن ونظيف يحتسي البيرة أو النبيذ ولم يقتله أحد أو تسرق نقوده عصابة. والفضل كله بالطبع يرجع إلى الحمّار الدائم الابتسام الذي كان يلهث بجواره يحميه من السقوط ويحافظ عليه ويسليه بالحكايات. إنه يجلسه معه على مائدته ويعزمه على الشراب والطعام. إنه يحبه. دليله البلدي المحلي منذ أيام لفنجستون واكتشاف منابع النيل. بعد ذلك تسير الأمور في شكلها الطبيعي. هناك تسهيل الحصول على الحشيش لمن يرغب. هناك الجنس لمن يرغب. هناك بيع الآثار المزيفة... إلخ. توجد سيارات بالطبع. تاكسيات بيجو سبعة راكب. الحمّارون لا يحبون التاكسجية؛ يخطفون الزبائن الذين يرغبون في الفرجة بأقل قدر من التعب، لكن ما باليد حيلة وقانون البقاء يفرض على المتصارعين الالتزام باللائحة. الشجار العلني نادر لأن هذا معناه تدخل شرطة السياحة من باب حفظ ماء الوجه. شرطة السياحة تحب أن يتم كل شيء بسلاسة، لأنه في نهاية اليوم تتم القسمة وتبادل المعلومات عمن تجاوز الخط الأحمر من الحمّارين أو التاكسجية وبالتالي عقاب من أذنب. إنهم مجموعة متعايشة لا تحب الغرباء الذين يسكنون فترة طويلة في الغرب أمثالي وخاصة من المصريين. عاملوني في البداية بذلك الحذر والتحفظ حتى يتأكدوا من هويتي. وحينما تأكدوا من أني لا أشكل خطراً عليهم تجاهلوني أيضاً بذلك الأدب المصري الساخر. فأنا صديق الخواجات في فندق مدينة هابو.. خلاص. إنهم لا يبادرونني بالحديث إلا إذا بادءتهم أنا.. لا يضيعون وقتهم معي فلست

مفيداً لهم.. لكنهم يفسحون لي أحسن جذع شجرة في الغرزة يردون علي تحيتي ثم يواصلون ما كانوا فيه. يعجبني هذا فليس عندي ما أقوله لهم.. لكني أتنصت بانتباه عليهم. إنهم لا يخفتون من أصواتهم وهم يحكون عن مغامراتهم مع السواح.. فأنا مش مهم.. أنا مجرد واحد من مصر من بحري.

أذهب إلى الغرزة الآن يومياً تقريباً.. أحب شايها وجوزتها وضجيجها وحكاياتها. أنظر إلى المراكب وإلى النيل وإلى العيال الذين يهافرون في الدنيا وهم يضحكون وقد اكتشفوا قوانين بقائها مبكراً جداً...

اليوم العشرون

ألاحظ منذ بضعة أيام أن جوديث تعاملني بمزيد من الود.. وأن أنجلينا لم تأت إلى غرفتي.. أيضاً لعل المانع خيراً كما يقولون لا أزعم عدم الاهتمام. مغتاظ بعض الشيء. لكني أحاول أن أحافظ على المسافة التي فرضتها على نفسي بعدم «الاندماج». أراقب وأسجل في كمبيوتر عقلي وأحلل ببطء. ورانا أيه؟ ألاحظ أن جوديث مثلاً تصحب أنجلينا الآن في رحلاتها إلى الجبل. ترى ماذا تفعلان هناك؟ هل تنقبان سراً عن الآثار؟ هل تقابلان شخصاً ما أو أشخاصاً لا ترغبان في أن أعرف عنه أو عنها أو عنهم شيئاً؟.. كله وارد. أستيقظ في الصباح لأجد نفسي بمفردي. أتخيل أن الطباخ الأعور ينظر إليّ هازئاً.. لكن لماذا؟ هل يعرف شيئاً لا أعرفه؟ هل قالتا له شيئاً عني صدقاً أم كذباً يجعله يتعامل معي هكذا.. أم لعلي أتخيل الأشياء من طول الوحدة والصمت. أحاول أن أتباسط

معه في الحديث.. أن أستظرف، لكن عينه السليمة تتجاهلني. لماذا تتجنب أنجلينا غرفتي ليلاً. أحاول أن أتصنت عليهما. أن أتسلل من الغرفة ليلاً بعد أن تأوي كل منهما إلى غرفتها. أتسمع إلى أنفاسهما (جوديث تشخّر).. كل شيء تمام. كل واحدة في مكانها. أجلس في الشرفة المظلمة وأحس بالقهر وبالترك. أغتاظ من نفسي. أسحب زجاجة نبيذ وأشرب وحدي. أتمنى جليساً.. حتى لو كان الطباخ الأعور.

ذهبنا منذ أيام إلى المعبد المهجور لنشاهد طقس الشبشبة... فكرتي. فبعد محادثات ومساومات مالية، استطعنا أن نحقق الهدف لم يكن إقناع البنات صعباً، جوديث ـ كعادتها ـ كانت متحفظة. رفضت الذهاب. منذ ليلة الشبشبة وهما في الحالة التي ذكرتها. أحاول أن أضع همي في الكتابة. أقضي النهار بمفردي. أحياناً أذهب إلى الغرزة، أو إلى استراحة عبد الرسول. لم يعد النزول إلى الأقصر يستهويني. أرسل الخادم الصغير إلى البائع القبطي ليحضر التموين المعتاد. ويشتري لنا أيضاً ما نحتاجه من الخضار واللحم. البنات يطبخن العشاء وقد رفضن مساعدتي بأدب وحسم. أتركهن في المطبخ حاسداً لضحكاتهما، وأنزل لأتمشى في منطقة المعبد حتى موعد العشاء. ألتحف أنا بكبريائي وأتجاهل عبث ساق أنجلينا بساقي من تحت المائدة. أحياناً تشاركنا أليانور. تأتي كعادتها مبتهجة مليئة بالحكايات. آوي إلى غرفتي مبكراً متعللاً بالكتابة. ماذا تكتب؟ كيف حال الكتابة الآن... إلخ لكني أعلم أنها أسئلة على الماشي بدون انتظار جواب. أجاوب إجابات عائمة. نضحك قليلاً. أتمدد على الفراش أو أجلس

على المكتب متصنتاً لغطهن. أقلب أحياناً في الصفحات التي كتبتها أحس بالإحباط.. من الذي يريد أن يقرأ هذا الكلام. ومن الذي سيشتريه أصلاً.. وكيف سيكون رد فعل إخوتي وأصدقائي.. إلى آخره وينتابني إحساس قوي بأن أمزق كل ما كتبته. أرد نفسي بالعافية. أحياناً آخذ حبة منومة لأستيقظ في الصباح ثقيلاً كئيباً. أقوم ببعض التمرينات الرياضية وبالمشي مسافات طويلة في متاهات البر الغربي. أشعر ببعض الراحة وينتابني التفاؤل مرة أخرى وأفكر في الفصول المقبلة من الكتاب.

في اليوم الثاني والعشرين

أتت أنجلينا بالأمس إلى غرفتي على غير انتظار. دخلت في حديث طويل حول الصداقة ومعناها والفرق بينها وبين الحب والجنس إلى آخر هذا الكلام الفاضي. كنت فعلاً في حالة كتابة. كنا قبل الظهر وفوجئت بها. كنت أتوقع أنها في الجبل. قالت إنها فضلت أن تأتي لتتحدث معي على أن ترسم كدليل على اهتمامها بصداقتنا (بصيغة الجمع ـ حسب قولها ـ) قالت إنها مسؤولة عن استمرار جو صحي بيننا (نحن الاثنان هذه المرة).. وهل هدفي فقط أن أنام معها. قلت لها صادقاً (ومغيظاً إياها) أيوه.. ضحكت هي وقالت «ابتذالك يغفره لك صدقك» وما دام هذا ما تريد.. يللا (قالتها بالمصرية الدارجة). وجدتها راغبة أكثر مني مع أنها أفهمتني أنها تنام معي علشان ما أزعلش منها. حينما انتهينا قالت فلنذهب إلى الأقصر ونمكث هناك حتى الليل. نتعشى هناك. كتبت هي

ورقة لجوديث التي كانت غائبة. بالفعل ذهبنا إلى الفندق نشرب وننتظرها. ثم ذهبنا بعد ذلك للعشاء في مطعم صغير لطيف على النيل. تحادثنا في مشروع الذهاب إلى أسوان بعد أسبوع (هذا الوقت حددته خيرتي للانتهاء من رسمها). تحمست أنا وبدأنا نضع الخطط. أسبوع في أسوان ثم الصعود شرقاً عن طريق قنا وعلى ساحل البحر الأحمر إلى الشمال ثم العبور إلى سيناء ثم العودة مرة أخرى إلى القاهرة. أصرّت البنتان أن تدفعا الحساب كله.. قالتا «.. أنت ضيفنا» كنا جميعاً في حالة طيبة كنت قد بدأت أملّ من مدينة هابو وأرغب في الرحيل. كنت في أحسن حالاتي. حينما وصلنا إلى الفندق. غمزت لي أنجلينا قائلة إنها ستمكث مع جوديث بعض الوقت في غرفتها. قالت جوديث ضاحكة: لكن لماذا لا تذهبين معه إلى غرفته؟ أجابت الأخرى ـ ضاحكة أيضاً ـ هذا دورك. ضحكنا ودخلت أنا إلى غرفتي بعد أن قبلتني أنجلينا قبلة طويلة أمام جوديث وهذا نادراً ما يحدث. كانت جوديث تنظر إلينا (لمحتها بطرف عيني) مبتسمة.

في اليوم الخامس والعشرين

تتواصل علاقتنا نحن الثلاثة بهدوء مثل زمان. أحس أني أحسن وأكتب أكثر وبسرعة. جوديث استقرت في غرفتها كالمعتاد. نلتقي أحياناً في الردهة وتعزمني على فنجان شاي في غرفتها.

في المساء أتت أنجلينا متوهجة وقالت إنها سعيدة بإيقاع عملها أكلنا وجلسنا في الشرفة نتحدث. قالت إنها تود مرة

أخرى وأخيرة أن تذهب إلى المعبد المهجور وأن تمارس الشبشبة هي وجوديث هل يمكنني تدبير هذا الأمر. فوجئت أنا لكنني قلت سأحاول. أتت إليّ بعد أن آوت جوديث إلى غرفتها. ثملة بعض الشيء. أخذت هي تقلد جوديث وتتشكى من إنها تحاول الاستحواذ عليها... إلخ. المهم ضحكنا كثيراً خاصة ونحن نذكر «يا.. يا.. نفرتاري» وكيف أنه كان يريد أن ينام مع جوديث النفور. استمتعنا ببعضنا كثيراً. كانت متوهجة.. وكنت راغباً. وماذا عن ليلة الشبشبة؟

بعد أن تعشينا وشربنا ما نستطيع شربه من البيرة تمشينا راجعين باتجاه فندقنا. الكلاب هجعت الآن في جحورها. القمر يسطع وينير شراك الطريق. أوصلنا جوديث إلى الفندق فهي تنام مبكرة. احتضنتها أنجلينا وقبلتها طويلاً في فمها. انتظرنا حتى فتح الحارس العجوز الباب الداخلي لتدلف جوديث منه إلى الدرج المظلم... انطلقنا إلى موعدي الذي رتبه لي معلم الغرزة. سوف ندلف إلى قرية القرنة المهجورة. هناك بجوار مبنى المسجد سنجد دليلنا الذي سيأخذنا إلى الجبل.



الصيف الثاني بعد الهجرة

القاهرة يونيو ١٩٨٣

هذا هو صيفي الثاني في القاهرة ـ ومصر ـ منذ حوالى ثلاث عشرة سنة.. منذ أن غادرت سنة سبعين إلى بولندا. حرارة عالية لكنها محتملة عن قيظ بغداد اللاهب وصيف بيروت المشبع بالرطوبة. أواصل علاقتي بشكل شبه منتظم مع البنتين من البوتيك تحت. لكن بدون وهج وببعض الملل هادم اللذات ومفرق الجماعات (ليس الموت كما تقول حكايات ألف ليلة وليلة الشهيرة).

القاهرة ٢ منتصف يونيو ١٩٨٣

ذكرى الهزيمة التي وقعت عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين. كنا قد خرجنا قبلها من السجون والمعتقلات في أبريل سنة أربع وستين كلنا آمال أن نعمل مع النظام (هكذا كان الاتفاق عند حل الحزب) حللناه في السجن لكن كما في الحياة.. كما في السياسة هناك مصالح ومحسوبيات. فقراء

الحزب وجدوا أنفسهم في الشارع بدون عمل.. أو عمل أي كلام. أغنياء الحزب تسلموا المناصب الهامة. وإذا أردت أن أكون منصفاً فإن بعض الفقراء تسللوا إلى المناصب لأنهم كانوا يتولون المناصب القيادية في الحزب. الباقون سقطوا تحت سنابك الخيل.

التقينا اليوم مع «نصر» صدفة. هو في الأصل ميكانيكي.. بسيط الحال محدود الثقافة. تعرفت عليه في حبسة الواحات. عمره يقارب عمري (منتصف العشرينيات). لم يكن يسكن معي في الزنزانة نفسها... لكنه كان في العنبر نفسه (عنبر واحد). أصبحنا أصدقاء لا نفترق. ندخن سوياً سجائرنا المشتركة من المبسم الخشبي الذي صنعه بيده الماهرة. ساعدني في شغل المزرعة الجديد عليّ. كنت أحكي له عن الكتب التي قرأتها والأفلام التي رأيتها. هو يمتلك صوتاً جميلاً ناعماً وحياء طبيعياً، كان قد وصل قبلي إلى الواحات ويعرف المعتقل وخباياه وقوانينه المكتوبة والسرية والعلاقات المتشابكة بين المعتقلين بعضهم البعض. كان يعرف كيف يخلق السجائر الشحيحة حينما تختفي. والشاي والسكر وكل هذه الطيبات التي تدور حولها أشواق الحياة اليومية للمعتقلين. عرفت منه قصص الحب والرغبة في المعتقل.. ردود الفعل حينما تنكشف العلاقات الخبيئة. ما هي حدود المسموح والممنوع. كان هناك ذلك الشاب الوسيم المثقف الجامعي الذي «أحبه» اثنان.. هناك الولد الجاد الوجه الأنثوي الجسد.. عليه العين لكن قلبه كان قد أعطاه إلى شخص آخر. العلاقات في معظمها رومانسية لانتفاء الخصوصية.. لشبه استحالة الانفراد الكامل والخلوة. الزنازين

في الواحات كبيرة ومكدسة. أحياناً اثنا عشر واحداً في الزنزانة يستلقون على الحصر المجاورة وكل واحد شاء أم أبى يستطيع الاستماع إلي حركة الآخرين في زنزانته. لكن طول الحبسة يخلق حالة من «التسامح» وغض النظر. منظر عادي أن يختلي اثنان ببعضهما في المزرعة (على مرمى حجر من الآخرين) أو في أطراف الحوش يدخنان ويتسامران لوقت طويل، ولا يحب أحد أن يغلّس عليهما، وأن يقطع عليهما الخلوة. قال لي نصر: إنه كان «يحب» شخصاً رحلوه الآن إلى معتقل الفيوم. كان يتحدث عن الحب الذي أحسه تجاه الآخر بشكل عادي.. ليس هناك إحساس بالدونية أو بنقص «الرجولة». قال إن أول مرة في حياته يحس بهذا الإحساس وبشكل مختلف. لم يتطرق للتفاصيل لكنني فهمت ما بين السطور.. لم يكن هناك فاعل ومفعول بل رغبة متبادلة في التواصل مع الآخر وإطلاق سراح المخيلة من الجسد المأسور فعلاً في الثياب الرثة والزنازين العطنة والطعام الحقير والأسلاك الشائكة وفقدان الأمل في الخروج مرة أخرى إلى الشوارع. ثمة علاقة خاصة تنمو بيننا. نهتم ببعضنا نتبادل الأشياء البسيطة التي نمتلكها ونتفق على مواعيد وأماكن اللقاء. وهأنذا ألتقي به صدفة بعد سنوات كثيرة. لا بل التقيت به مرة قبل ذلك بعد خروجنا مباشرة. كان قد وصف لي مكان عمله (يعمل في ورشة العائلة). ذهبت إليه هناك: لم يتغير كثيراً. أحسست أنه يريد أن يتجنبني. لعله خجل من ثيابه.. أو مكان عمله البسيط المهدم. اتفقنا على موعد في المساء في مقهى حدده في منطقته الشعبية. جلسنا نتحدث ونشرب الشاي. الحديث كان عن

الحياة بعد السجن. الصعوبات والمشاريع، ومن نقابل من رفاق المعتقل. لم أجد فيه نصر الذي أعرفه. متحفظاً ومهموماً. افترقنا على التبير المطاطي «إبقى فوت» لكني لم أفت. ندمت على الاتصال به من الأصل. وها أنا ألتقي به الآن مرة ثانية بالصدفة بعد كل هذه السنوات. التجأنا إلى مقهى صغير هرباً من ضجيج الشارع والزحام. كنت أستعد لرحلة إلى السودان (بداية رحلاتي إلى هناك منذ أن غادرناه في بداية الخمسينيات من حوالى خمس عشرة سنة. في محاولة مؤلمة للعودة إلى الماضي) هو يستمع إليّ منتبهاً. لم يحدثني كثيراً عن نفسه. عرفنا أن كلينا لم يتزوج بعد. وضحكنا على هذا التوافق ولم نتحدث عن السجن أو عن الماضي. كنا في الحاضر البشع. وحينما افترقنا لم نحدد موعداً عن قصد. هو لم يسألني عن عنواني أو عن تليفوني ولم يتطوع بشيء يشفي غليلي. حتى لم يعرف أني كتبت كتاباً عن السد العالي. لعله مكسوف من نفسه. فأنا أحقق بعض الأحلام؛ أكتب.. أسافر.. وهو ما زال في الورشة. راقبته يسير متوغلاً في الزحام القاهري.. المشية نفسها.

القاهرة ٣ يوليو

كلي حماس للسفر. فكّرت في البداية أن آخذ الطريق القديم.. القطار حتى أسوان، ثم الباخرة حتى وادي حلفا، ثم القطار مرة أخرى إلى الخرطوم لكني خفت من طول الرحلة وعدم تمكني من احتمالها؛ لا ينسى الواحد عوامل السن! إذاً الطائرة. أؤجر شقتي مفروشة حتى أستطيع توفير بعض النقود

لن أصرف كثيراً. أصدقائي هناك أخبرتهم برغبتي في المجيء وأرسلوا يعلنون ترحيبهم باستضافتي. الوقت مش مهم. كنت أعمل في وكالة نوفوستي لكني استقلت بدافع من الملل والرغبة في التغيير. أنا الآن خالي الشغل.. ليس هناك من يهتم بوجودي في مصر أو رحيلي منها. أفكر أيضاً انه ممكن أن أجد شغلاً هناك؛ في الصحافة مثلاً. يمكن أن أستقر. إذا فشلت ممكن الرجوع دائماً. إذاً يبقى تحديد موعد السفر والرحيل.

الخرطوم ١ يوليو

الحر الفظيع. نسيت كيف يكون الصيف في السودان. لكن نسمة طرية تهب دائماً في العصاري. ننام في الحوش على العنقريبات اللينة التي يفرشها الخادم في المساء. أقيم مع أصدقاء الطفولة في الخرطوم في البيت الكبير الذي أعرفه منذ سنوات يخطئها الحصر. سعادة هائلة تغمرني. حر بلا عمل أو مسؤولية. الجميع يحوطونني بالرعاية وخاصة بعد حكاية السجن التي أضفت عليّ وضعاً خاصاً. أبدأ في تخطيط حركتي. أريد أن أذهب إلى مدني. ثم إلى بورتسودان. لكن قبل ذلك أريد أن أزور عائلة عم جورج (هكذا كنا نناديه زمان.. وهو ليس بعم لنا). كنا نقول عليهم إنهم «شوام»... ذلك الوقت الذي كانت فيه فلسطين ولبنان وسوريا تندرج تحت اسم واحد شعبي هو الشام. يسكنون الآن في الخرطوم. كانوا جيراننا في مدني. ومع أنهم كانوا يذهبون إلى كنيسة الشوام المتواجدة في شارعنا والمقابلة لكنيسة الإجريج (اليونانيون).. إلا أنهم كانوا أصدقاء للأسرة وبالتالي لنا

نحن الأولاد. ثمة ولد واحد كبير ابنهم البكري عرفت الآن أنه مات في حادثة سيارة. هناك ثلاث بنات؛ ميمي.. ونانا.. وهدى التي كانت أصغرهم، أصغر مني بسنوات قليلة. أذكر أني كنت أحملها على كتفي وأجري بها. ميمي الكبيرة لعلها الآن في نهاية الثلاثين. نانا تقاربني في السن أو أكبر قليلاً. حصلت على رقم تليفونهم.

الخرطوم ٢ يوليو

ردت عليّ نانا. عرّفتها بنفسي. سمعت ضحكتها الجذلة وهي تقول بلهجتها السودانية.. معقول؟.. أنا نانا فاكرني؟... اتفقنا على موعد عندهم في اليوم التالي وعزومة على الغداء. كان ذلك يصادف يوم الأحد وحينما قلت لها ذلك قالت عشان نكون كلنا في البيت.

ذهبت حوالى الحادية عشرة. كانت نانا بمفردها (لم أكن قد خططت لهذا) تجهز الملوخية وتسلق اللحم. تبادلنا القبلات ونحن ننظر بفرح ودهشة إلى بعضنا. شربت معها القهوة وهي تسألني عن أخباري وأخبار العائلة.. وأنا كمان. لا أتذكر بالضبط ما حدث.. لعلها كانت تقف منحنية تلم أعواد الملوخية من فوق الطبلية الواطئة.. وجدت نفسي أحتضنها معابثاً من الخلف (كنت أفعل معها ذلك أيام زمان فتصفعني بغضب حقيقي وهي تهمس.. وسخ أو كانت تضحك.. حسب مزاجها). استدارت بوجهها إليّ مبتسمة. لعلها تذكرت هي أيضاً تلك الأيام. قبّلتها. استكانت في حضني. جلسنا متحاضنين فوق الحصير المفروش تحت تكعيبة اللبلابة

أتأمل السنين على وجهها الذي ما زال صبوحاً. تسترجع يداي فوق جسدها ذلك الجسد الصبي الذي كنت أشتهيه وأخافه.. الشعر الكستنائي الطويل ما زالت تسرحه بالطريقة نفسها.. تفرقه من الجنب اليمين وتتركه منسدلاً على كتفيها يصل إلى خصرها. الرقبة القصيرة النحيلة (ظهرت عليها بعض التجاعيد الآن) الصدر الذي كنت أختلس النظر إليه وهي منحنية تغسل. يدي على أردافها التي طالما استدعيتها في خيالي المراهق وهي تسير بخطوها المتعجل وفستانها الصيفي يرتعش فوقهما... طوال الوقت تنظر هي إلى عينيّ.. نظرة صداقة تسترجع زمناً سرياً اشتركنا سوياً في صياغته. قادتني يدها إلى موطن أحلامي الدفينة.. وفي داخلي تتصاعد موجات من الحسرة مختلطة بالفرح وإعادة الاكتشاف مثلما ينظر الواحد إلى صورة قديمة عثر صدفة عليها أثناء بحثه عن شيء آخر.

أذهلتني بساطتها في التعامل مع رغبتينا. اكتشافي أنها ليست عذراء وخجلي من السؤال. غيظي من أني لست الأول. كل ذلك اختفى ونحن نبتسم.. تساعدني على هندمة ثيابي وتواصل الحديث الذي انقطع. لعلها كانت تبحث هي أيضاً عن أشيائها القديمة، مراهقتها ورومانسيتها.

تغدينا جميعاً على المائدة الكبيرة. السنوات تبدو بوضوح على الأب والأم.. لعلها صدمة فقدان الولد البكري.. نانا تكيل الطعام لي تغمرني برعايتها بوضوح. ميمي كبرت أيضاً. سمنت وبان الشيب في شعرها. هدى تستأثر بالحديث. أطولهن.. أطول مني. الملامح نفسها لكن أكثر دقة ونعومة.. لاحظت أن صدرها أكبر من صدر أختيها. قلت لنفسي لعلها

ما زالت عذراء. تشده متباهية. حاولت أن أحسب عمرها. لعلها في بداية العشرين وتعمل في بنك. ميمي تعمل في بوتيك. الأب على المعاش، الأم تذهب كثيراً إلى الكنيسة. بعد الغداء انسحب الوالدان إلى غرفتهما. قادتني البنات إلى غرفتهن. غرفة كبيرة بها ثلاثة أسرّة. المروحة في السقف تدور برتابة وتعطيني إحساساً قوياً بالنعاس. هدى تقرر أن تستضيفني في سريرها فنتمدد أربعتنا نحكي. هدى تسأل عن تلك الأيام في مدني وتحاول أن تعيد بناء ذاكرتها. نساعدها نحن. نركّب الصور. نصحح لبعضنا الأسماء والتواريخ. تذهلني الحرية والبساطة التي يتعاملن بها معي. لهن لغتهن السرية التي يتخاطبن بها في حضور غريب مثلي لا يردن له أن يعرف حديثهن واستغرقن في ذلك. لعلي نعست إذ حينما استيقظت.. وجدت الغرفة وقد عامت في ظلمة خفيفة (أسدلن الستائر والشيش) نانا وميمي قد استغرقتا في النعاس ـ أو هكذا يبدو ـ التصقت بهدى أريد مواصلة النعاس. تكورت هي بجواري بعد أن فرشت الملاءة فوقنا وهي تهمس.. احكي لي حكاية.

الخرطوم ٣ ـ ١٩٦٨

ذهبنا بالأمس إلى «بيت للبنات» وهو اصطلاح سوداني مهذب لبيت الدعارة. كنا ثلاثة: أنا ومسيحة وجرجس. أعرف مسيحة من أيام المدرسة الابتدائية. درسنا سوياً في أسيوط. التحقت أنا بجامعة القاهرة.. وأرساه أهله إلى بولندا ليدرس هناك على حسابهم. تزوّج من هناك. خلّف وطلّق

وعاد إلى السودان يعمل في الخرطوم ويعيش مع من تبقى من أهله في البيت الكبير الذي أسكن فيه الآن ضيفاً عليهم. استقبلوني بترحاب وحب.. أعطوني الغرفة العلوية التي أقيّل فيها ساعة الظهيرة. مسيحة يسير قلقاً في أرجاء الحديقة الساكنة حتى من زقزقة العصافير التي التجأت إلى الأشجار هرباً من الشمس. يسير ممسكاً بالسوط المصنوع من ذيل الثور يبحث عن السحالي ويقتلها بالسوط. خلاف ذلك فهو شخص مرح ذكي بارع الحديث، ساحر الكذب. أما جرجس فأنا لا أعرفه. هو صديق لمسيحة. يعيش ويعمل في الخرطوم. متزوج ومخلّف ويقاربنا في السن. قال جرجس إنها عزومته هذه المرّة. أصرّ مسيحة أن تكون العزومة عليه باعتباري ضيفه. رضخ في النهاية لإصرار جرجس البدين - بعض الشيء - المرح المصري الأصل (مسيحة مولّد) قال جرجس يجب الذهاب مبكراً قبل الزحمة حتى نحصل على أحسن البنات. قال إنه يعرف بيتاً بناته معقولات جداً. أفهم أن هذه العزومة تحية لي وفرصة لهم. الدعارة هنا علنية. هذه إفريقيا التي تتعامل مع الجسد بحرية وصدق وليس مثل العرب. المهم ركبنا سيارة جرجس. قلت لهما هذه أول مرة لي في «بيت». اندهشا ولكني أحسست أنهما مبسوطان لتقديمهما هذا المعروف لي. أنا أيضاً كنت مبسوطاً وهكذا انطلقنا في المساء المبكر نضحك ونزعق في السيارة مثل رعاة البقر الأمريكان. حينما وصلنا قاد جرجس الموكب. «البيت» في الحي القديم «العربي». لا يميزه أي شيء عن بقية البيوت العادية المجاورة التي يسكنها البشر «المحترمون».. دق جرس الباب بكف يده عدة مرات قبل أن

يجيبه من الداخل صوت متضجر لرجل «داير شنو؟» «داير ليلى» «ما عندنا ليلى» ضحكنا بشماتة أنا ومسيحة لكن جرجس استمر «طيب زينب». الصوت الملول «ما عندنا زينب» وهكذا أخذا يخترعان الأسماء.. ويأتيهما الرفض. المهم في النهاية وقبل أن نيأس فتح الباب بحذر وأطل منه صاحب الصوت الملول. قال بغنج «شنو يا جماعة.. جايين من بدري لشنو». أجابه القائد متمحكاً «قلنا نجيكم بدري قبل الخطافة ما يخطفوا بناتكم السمحات» ضحك القواد مستحسناً الإجابة وغمز بعين كحيلة «وإذا ما خطفوهم.. إحنا موجودين يا شباب» أجابه مسيحة «بارك الله في مؤخرتك السمحة لكن اليوم كايسين للبنات.. مرة تاني نجيلك مخصوص» وهكذا تم تبادل التحايا المؤدبة ـ حسب الأصول ـ والقواد يرحب بنا ويقودنا إلى الغرفة الداخلية.. غرفة الضيوف كما أسماها. همس جرجس ما نطلب الشراب إلا بعد ما نشوف البنات ونتأكد.. تمام؟» وافقنا وإن كنت لم أعرف بالتحديد عن أي شيء سنتأكد منه، لكني لزمت الصمت خاصة أني اعترفت لهما أن هذه هي المرة الأولى لي في بيت كهذا، أعطاهما الإحساس بقيمة الحكاية كلها. الغرفة أنيقة نظيفة تفوح منها رائحة البخور تنشرها المروحة السقفية الدائرة وعلى الجدران صور الممثلين المصريين والمغنيين السودانيين. أقبلت ثلاث بنات واحدة حلوة وصغيرة والاثنتان نص نص وباعتباري الضيف غمز لي جرجس باتجاه الحلوة وسألني بالإنجليزية «ما رأيك» أجبت «أوكي» جاء القواد وأشار جرجس إلى الحلوة وهز رأسه رافضاً البنتين. قامت البنتان بدون تذمر (أحسست أنا

بالكسوف).. جاءت بنتان جديدتان. نظر جرجس إلى مسيحة متسائلاً. هز رأسه موافقاً. وافق جرجس على مضض. جاء القواد ووقف بالباب. طلب جرجس البيرة والمزات. سرت في الغرفة أمواج من المرح الهادىء. أدارت البنات الحديث. كيف الصحة وكيف الحال. السنة دي الحر شديد وإنت اسمك منو. كنت الوحيد الذي أتحدث بالمصرية. سألتني عن عبد الحليم حافظ (كأننا أصدقاء) وأعلنّ حبهن لأفلام مصرية لم أسمع عنها. شربنا البيرة التي قامت البنات بصبها لنا في الأكواب. بعد ذلك سحبت كل بنت «صاحبها» إلى غرفتها. كانت الغرفة التي سحبتني إليها ضيقة.. لكنها نظيفة. أحسست أني أفقد حماسي وأصابني هذا بالرعب وتخيلت الأسئلة التي سأضطر للإجابة عنها بصدق. خلعت هي ثيابها المحدودة واستلقت على الفراش تنتظر. أخرجت أنا العازل (الذي كنت قد أحضرته معي وحاولت إقناع صاحبيّ بأن يحذوا حذوي.. رفضا وسخرا من وسوستي التي ستضيع عليّ جزءاً مهماً من المزاج) أكدا أن البنات السودانيات مشهورات بالنظافة إلى آخره. سألتني مندهشة مشيرة إلى العازل «ده شنو كمان؟».. شرحت لها. أعلنت هي استياءها وأكدت لي أنها «نضيفة».. أصررت. ترددت هي لحظات ثم وافقت متضررة معلنة أنها المرة الأولى التي تصادف واحداً مثلي مع أنها كانت تظن أن المصريين ناس لطاف. رقدت بجوارها أستحث همتي مستحضراً الصور التي أعرف بخبرتي تأثيرها عليّ. كانت تجربة سخيفة وانتهينا بسرعة. اغتسلت مسرعاً أيضاً وتجاهلت المنشفة التي قدمتها لي. كنت أريد الخروج بسرعة ومستعد

للمواجهة المتوقعة مع المتوحشين اللي معاي. قادني القواد إلى الخارج قائلاً «أخوانك بره».. فوجئت بهما واقفان في الشارع يدخنان قال جرجس.. انشالله تكون رفعت راسنا. ضحكنا قال مسيحة هل نذهب إلى السينما ونشوف فيلم هندي. أم إلى النادي السوري نتعشى ونتفرج على النسوان المحترمات. سارع جرجس برفض الفيلم الهندي وقال إنه يريد أن يأكل كبده في النادي. هكذا ذهبنا إلى هناك وجلسنا في حديقة النادي نستروح نسائم الليل الندية.. نأكل كبده نية بالبصل والليمون والشطة ونشرب بيرة بالغة البرودة ونخالس النظر إلى الديكولتات العريضة والأذرع العارية. كان هناك بعض معارف جرجس ومسيحة.. سلّموا علينا وأرسلوا لنا التحية من البيرة والويسكي. قضينا ما تبقى من الليل نمرح. سأذهب غداً إلى أهل هدى حسب موعدي السابق... مسيحة كان يريد أن يأتي معي لكني زحلقته.

الخرطوم ٤

تعشيت بالأمس مع جماعة هدى وأخواتها. كانت هدى سيدة القعدة.. تزجر أختيها هازئة. تدير الحديث كما يحلو لها. ومع أن والديها كانا معنا إلاّ أنها حاولت أكثر من مرة إرسال إشارات واضحة ومكشوفة لي بقدمها من تحت المائدة لكني كنت أتجاهلها. أدهشتني جرأتها ومباشرتها. الوالدان كالعادة شربا معنا الشاي بعد العشاء وانسحبا إلى غرفتهما في الجزء الآخر من البيت. اقترحت هدى أن نجلس على العنقريبات المفروشة في الحوش ونتفرج على التليفزيون الموضوع

هناك. نانا وميمي ترمقانني بصمت وابتسامات خبيثة. لم أكن مرتاحاً.. جلسنا على العنقريبات نأزأز لب. الليل ما زال في أوله ونسمة طرية تهفهف فوق الملاءات البيضاء النظيفة وتنشر أريج زهر الليمون وثمرات المانجو الوشيكة النضج من الأشجار المحيطة بنا، البنات بملابسهن البيتية الخفيفة يتمددن على راحتهن فوق العنقريبات. قالت هدى إنها حرّانة واتجهت إلى الحمام في الطرف الآخر من الحوش. كنت أرمقها بنصف عين وهي تسير بجسدها الفارع مباهية أختيها، هازة أردافها. أسمع صوت رشاش المية من الدش يختلط بصيحاتها الفرحانة وجسدها يستقبل المياه الباردة. نادت عليّ طالبة مني أن أناولها الفوطة التي كانت قد تركتها على المقعد المجاور للحمام. ضحكت البنتان. قلت لنفسي المجنونة ستفضحني. كانت تقف الآن مستندة بنصف جسدها على الباب الموارب ونور الحوش الكهربائي الخافت يجعل قطرات الماء تبرق فوق النصف العلوي من جسدها ويدها الممدودة. وقفت أمامها تفصل بيننا خطوات أستمع إلى صوت جسدها.. أكاد أتلقف صدرها المندفع تجاهي. نظرت هي إليّ ساخرة عابثة وقالت «إيه رأيك». يدها تمسك بالفوطة التي ناولتها لها.. أمسك بها من الطرف الآخر. كل منا شدها باتجاهه. كل منا يقترب نصف خطوة باتجاه الآخر. سحبت هي الفوطة بحركة غادرة مفلتة إياها من يدي.. وفي الوقت نفسه رادة الباب في وجهي المندفع إليها وأنا أفقد توازني. قالت من خلف الباب وأنا أدلك أنفي أحاول أن أخفف من الألم «أحسن.. عشان تتعلم.. تاني مرة تبقى تعمل اللي أطلبه منك.. وبسرعة» كانت تضحك من

خلف الباب وأنا أتراجع وقد تبعثرت كرامتي من هدى العيّلة التي كنت أحملها وأجري بها، زمان... ضحكت البنتان على خيبتي وعلى منظري. قالت ميمي.. البنت خطر.. ذنبك على جنبك.. لو أنا منك أديها علقة. قلت متضاحكاً: دي عاملة زي الأمازونيات. أضفت بخبث.. ما قدرش عليها لوحدي. تبادلنا النظرات المتواطئة وجلسنا نتظاهر بالاستغراق في التليفزيون.. هاجمنا مرة واحدة. سقطنا فوقها وهي تسرح شعرها. لعل نانا وميمي كانت تنتظران الفرصة لفش غلهما منها.. وكنت أنا فرصتهما.. لعل هناك أسباب وحاجات أخرى كثيرة تجعلهما يتعاملان معها بهذا الغل. قاومت هي كاللبوة الجريحة تخمش وتخدش وتسب وترفص. لكن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون. بركت نانا فوق ساقيها مثبتة إياها في الفراش. بينما صلبتها ميمي فاردة ذراعيها على أخرهما. تمزق فستانها من أعلى وانحسر من على ساقيها حتى بطنها. هدأت الآن تنظر إلينا وفي عينيها دموع القهر. كنا نتبادل تغيير مواقعنا حتى يستطيع كل منهما أن يضربها. كل ذلك كان يتم بهمس وخفوت خوفاً من إيقاظ الوالدين. كنت أظن أن حكاية الضرب لعبة... أن الضرب سيكون خفيفاً. فوجئت أن البنتين تضربانها بجد. حاولت أن أسترجع جو المزاح السابق لكنهما نظرتا إليّ بتنمر. خفت. تركتهما تستمتعان بضربها.. وأخذت أنا أقبّل جسدها وخاصة تلك المناطق التي تعرضت للضرب كانت هي قد كفت تماماً الآن عن مقاومة أختيها. بقي شرط أخير لهما عليها أن تنفذه حتى يكفان عنها: أن تقسم بروح أخيها الميت أن لا تستفرد بأي منهما لمدة أسبوع.

لم توافق هدى في البداية. لمحت نانا ما كنت أقوم به. لفتت نظر ميمي ضاحكة متظاهرة بالاستياء ضحكت هدى الآن عليهما وهي تقول لهما مصائب قوم عند قوم مزاجات... لكنها أقسمت لهما بروح الأخ الميت أنها لن تستفرد بواحدة منهما لمدة أسبوع. تركتاها. ذهبت ميمي تحضر بيرة من الثلاجة في الردهة بينما أخذت هدى تئن وهي تتأمل وتستكشف مناطق الضرب فوق جسدها. وكلما وضعت يدها على منطقة مؤلمة كانت تطلب مني أن أقبّلها لها «عشان تخفّ والوجع يروح» جلست البنات على عنقريب هدى يضحكن ويشربن البيرة. رجعت هدى الآن وأصبحت الأخت الصغرى؛ متكئة بظهرها على صدر نانا، بينما تدلك لها ميمي قدميها وساقيها أفسحوا لي مكاناً بينهن.. داخل حلقتهن. أطفأن الأنوار والتليفزيون.. مددن العنقريبات لتلتصق ببعضها. أحسست لأول مرة منذ زمن بعيد بأني رجعت مرة أخرى إلى مدني.

كانت رينا مبشّرة في الإرسالية الإنجليزية في مدني. تسكن في بيت المبشرات المواجه للإنداية والقريب من طاحونة عبد المنعم مع مجموعة أخرى من المبشرات.. لعلهن خمس أو ست.. بينهن واحدة أو أكثر من السودانيات اللاتي تنصرن. كانت رينا أقربهن إلينا. تأتي أيام السبت والأحد لتبيت في منزلنا وتساعد أمي في أعمال البيت. جسد رينا كان أول جسد أنثوي أتعرف إليه في نهاية سني الطفولة. اكتشفت جسدها ببطء وعلى مراحل مصحوبة بألم المعرفة والإحساس المبكر بالذنب. هي لم تعطني ذلك الإحساس بالخطيئة.. بل

باللخبطة.. حينما كان العالم أيامها ينقسم إلى أبيض وأسود.. أبرار وأشرار.. كانت رينا أحياناً تتولى مرافقتي إلى الحمام تساعدني في تلييف ظهري باللوفة الشهيرة في البيوت المصرية مثل بيتنا. لم نكن نحتاج إلى الماء الساخن في السودان حيث درجة الحرارة عالية معظم السنة. أمي التي تخلت لرينا عن مسؤولية تحميمي مشغولة بآلاف الأشياء الأخرى في بيتنا الكبير... تجلس رينا على المقعد الخشبي وبجوارها جردل المياه حيث لم يكن عندنا دش، وأقف أنا أمامها عارياً. لعلي كنت بين العاشرة والحادية عشرة. لم أبلغ بعد لكن على المشارف القريبة للبلوغ. تدعك جسدي بالليفة والصابونة دون كلام كثير إلاّ بعض الملاحظات حول الندوب التي في جسدي من جرّاء اللعب الخشن. تتبلل ثيابها وهي تصب المياه عليّ فتلومني. تدعك بالليفة بخشونة بين ساقي، فأتأوه من الألم.. تقول معتذرة.. وجعتك؟ حقك عليّ.. فين؟ فلا أحير جواباً.. مكسوفاً. تقول هنا؟ وتمد يدها تربّت. تشدني إليها لتدعك ظهري فتنغرز خاصرتي في صدرها المبلل أحس بها تلهث وتنهج. ثمة اتفاق صامت بيننا على الكتمان. بعد أن تحمّيني تقول.. كده أنا اتبليت خالص.. وتخلع ثوبها وتجفف جسدها. تطلب مني أن أجفف لها ظهرها بالفوطة. تقف بثيابها الداخلية التي تخلعها الآن وتطلب مني بعد أن أرتدي ملابسي أن أحضر لها هدوم أخرى جافة من الدولاب الذي تحتفظ فيه بملابسها. أطير متجنباً الأماكن المحتمل وجود أمي فيها. أحضر لها ملابسها.. تمد يدها من الباب الموارب وتأخذها سادة الباب في وجهي. في الليل ننام جميعاً في

الحوش. أبي وخالي وديع يناماان بعيداً في الجانب الآخر. أمي تستغرق في النوم بسرعة ومعها في الفراش أختي الصغيرة. أنا لا أنام بسهولة أتقلب كثيراً في الفراش. تسألني ربنا بصوت خافت.. مالك مش قادر تنام.. تحب تنام معايا؟ أتسلل إلى فراشها. تستدير بظهرها إليّ. أحتضنها. أحس بها تلتصق بي. أنعس هانئاً. أحياناً كانت تعاقبني على قلة أدبي كما تقول. كان العقاب يتم في الحمام. عادة تقول إنها سوف تفتن عليّ (هناك عشرات الأشياء التي ارتكبتها خلال اليوم.. ولا أعرف أي منها يستحق العقاب) تقف منحنية مسندة ظهرها على الحائط وتعبطني شادة جسدي إليها. تضربني على أردافي بيدها. وهي ضامة ساقيها على ساقيّ. حينما ذهبت إلى الداخلية وكبرت وعرفت بعض الأشياء أردت تجربتها مع ربنا حينما كنت أرجع في الإجازة الصيفية إلى السودان. كانت ما تزال تأتي إلى منزلنا كعادتها القديمة. لقد كفت الآن عن «عقابي» لم أكن أستطيع أن أذهب معها إلى الحمام.. لكني كنت أختلس الفرص للاختلاء بها وممارسة لعبتنا الصامتة (في المصارعة) خاصة حينما لا يكون أحد في المنزل كنا نتصارع في الجنينة فوق الحشائش. أفاجئها وأعتصرها تحاول هي أن تتملص. نقع على الأرض.. أبرك فوقها وأثبتها.. أحياناً كانت توقعني وتبرك فوقي. نلهث في محاولات غير جادة للفكاك من بعضنا البعض وبعد أن تركنا السودان كنت أتابع أخبارها. عرفت أنها تزوجت من تاجر نقادي متواضع الحال وتركت التبشير (كانت المبشرات يقلن إنهن عرائس المسيح).. حينما ذهبت أزورها بعد وصولي الخرطوم هذه المرة لم تعرفني في

البداية. شاب شعرها وهزل جسدها. كانت ترتدي فستاناً حائلاً. عزمت عليّ مرتبكة قالت إن زوجها في الدكان وإنه لا يأتي عادة للغداء. كنا ما نزال في الصباح. جلسنا في الحوش نتحدث وتسألني عن أخبار أهلي. قالت إنها ستذبح فرخة ونتغدى سوياً.. تملصت بحجج كاذبة وأحسست أنها تضايقت. ندمت على مجيئي أصلاً، شربت الجبنة وقلت عندي ميعاد. سارت معي حتى باب البيت وحينما انحنيت عليها لأقبلها قبلة الوداع (كنت أطول منها الآن) ضمتني إليها. أحسست بوجهها المبلل بالدموع فوق رقبتي. ربت مرتبكاً على ضلوعها الهزيلة وانتزعت مني وعداً بزيارة أخرى وافقت وأنا أعلم أني لن آتي. اتجهت مباشرة إلى الفندق لكي أحزم حقائبي وأسافر. أحسست بأسى طاغ. هذا جزء من طفولتي أحاول الإمساك به لكنه يفلت مني. في القطار خجلت من نفسي. من وعدي الكاذب. من رغبتي الدفينة في جسدها التي ساقتني إليها بعد كل هذه السنوات، ثم من اشمئزازي منها ومن جسدها. بعد كل هذه السنوات لم أعرف شيئاً كثيراً عنها. هذه الفتاة النقادية التي هاجرت إلى السودان في الأربعينيات لتصبح عروسة المسيح.. لتتزوج بعدها التاجر المتواضع الحال. لم تنجب. أصدقاء شبابها القدامى رحلوا.. انتهت رحلتها الطويلة المثيرة في ذلك الحوش المترب. وأنا في القطار افتكرت البنت الأوروبية التي عرفتها في وارسو. ماتت أختها الصغيرة بسرطان الدم وهي في حوالى الخامسة عشرة من العمر. عرفت الأختين بوساطة صديقة مشتركة. الأم ماتت أيضاً بالسرطان.. سرطان الثدي. كنت أحضر الكتب والحلوى للصغيرة وكانت

تحب أن تستمع إلى حكاياتي. حينما ماتت كنت قد غادرت بولندا إلى العراق. وحينما رجعت في الإجازة التقيت بالأخت الكبيرة. توثقت علاقتنا. كنت أراقبها مندهشاً وهي تنغمس في الحياة بشراهة.. جنس.. وشرب، وعلاقات طيارة لا تستمر إلاّ لفترات قصيرة. جسدها الفتي النضر استهلكه السهر والعبث وكنت أعلم كيف كانت وثيقة الصلة بأختها. كانت أيضاً على علاقة معقولة بأمها. أفهم الآن هذه اللهفة على الحياة.. هي التي لم تتجاوز التاسعة عشرة البسيطة الثقافة والقليلة التجربة لم تجد سوى جسدها تستخدمه وسيلة للهروب من مصير الأم والأخت. لكن الجسد لم يستجب لهذا الإرغام. إذ رأيتها بعد ذلك بسنوات قليلة.. النظرة الجائعة حلّت محلها تلك النظرة الغاضبة وتحمل جسدها كأنه عبء عليها. كنت أتحدث معها واضعاً يدي على ظهرها. أحسست بضلوعها التي تبرز من خلف البلوزة. كان آخر ما قالته لي.. إنها سوف تهاجر إلى أستراليا لتعمل في مزرعة هناك.

وأنا أكتب اليوم أستمع إلى لغط السواح يأتي إليّ من المعبد.. قدر كبير من الإثارة يلفهم.. لعلها فكرة السفر. لعلها أيضاً فكرة الوصول.. لعلها فكرة الأهداف البسيطة الممكنة التحقيق.. ألقي نظرة عليهم.. مختلف الأعمار.. منتصف العمر وبعده. أنا أيضاً أحب الترحال أتخيل نفسي واقفاً أمام تاج محل مثلاً.. لكن ليس في رحلة جماعية. مع صديق واحد أو اثنين على الأكثر لكنها رغبة أعرف شبه استحالة تنفيذها.. النقود.. الوقت (فبعد بيروت أحسست كثيراً بفكرة أن الموت ليس بذلك الشيء البعيد.. أو الذي يأتي للآخرين

وليس إلينا) لكنها فكرة ألعب بها مثل ما يفكر الواحد قبل النوم في خطته السرية لسرقة البنك... أو كتابة كتب يعلم أنه لن يكتبها. المهم أن لا ينتهي الواحد في حوش ربنا.

حكاية البواب الأعور
وابنه الأهبل وزوجة ابنه الحسناء

بوابنا في الظاهر عضل الجسد قصيره، في منتصف العمر. رأسه معممة بعمة بيضاء في أيام الجمع والأعياد ووسخة بقية الأيام. يحيط عنقه ـ شتاء وصيفاً ـ بشال من الصوف البني الداكن. هناك بالطبع الجلابية التي تجر في الأرض ويضطر بين وقت وآخر أن يتوقف خلال سيره الملهوج لينفضها فيتساقط منها تراب الطريق وخيراته. الحذاء برقبة تصل إلى ما قبل منتصف الساق. هو حينما يجلس يحب أن يبين الحذاء فيرفع الجلابية بحركة واسعة سريعة ويلمها في حجره كاشفاً سرواله الفلاحي الطويل المدسوسة أرجله داخل رقبة الحذاء. هذه أشياء عادية الثياب ونوعها ودرجة قذارتها.. لكن غير العادي هو الوجه وملامحه المتداخله: إنه يزجج حاجبيه ويكحلهما (لقد شاهدت هذا بنفسي)، يخفف شاربه مثل كلارك جيبل ويحلق ذقنه يومياً ويتعطر آفتر شيف بزجاجة عطر اشتراها من الحاج البركة بجوار المسجد. يسوك أسنانه عملاً بالسنة. أعور العين اليمنى لعل أحدهم فختها له في معارك الشباب

وشقاواته، إذ ما زال هناك واضحاً حتى للأعور الخط الطولي المحفور في خده الأيمن بفعل خنجر أو سكين بصل بنحدر من زاوية العين اليمنى حتى منتصف الخد الهضيم (المعطن). أنت لا تلاحظ العين العوراء من أول وهلة لأن جزءاً من العمة يتهدل بشكل يبدو غير متعمد على العين المفخوتة. عينه الأخرى السليمة لا تستقر على حال من القلق «كما يقول الشاعر» قلقة متوجسة شكاكة متربصة. أنه يقبع دائماً مقابل باب العمارة (هكذا نسميها) على الرصيف الآخر كأنه يباعد العلاقة بينه وبين المبنى، لكنه من موقعه يرى الداخل والخارج وإذا ما رفع عينه السليمة إلى أعلى ـ بزاوية معينة ـ فبإمكانه أن يراقب البلكونات والنوافذ في المباني الأخرى التي تقع في مجال العين السليمة. إنه لا يجلس على مقعد أو دكة أو يتربع على حصيرة لكنه يجلس القنزوزي (بتعطيش القاف الصعيدية) أي أنه يقعمز على كعبيه ـ لساعات متواصلة ـ هذا الوضع يتيح له أن يقفز واقفاً في جزء من الثانية محيياً أو زاجراً لاعناً ويتيح له ـ كما اكتشفت صدفة ـ أن يشمس بضاعته من خلال الفتحة الطولية في سرواله الفلاحي. هكذا كان يقعى أمام الأعين الكحيلة المستحية لزوجة ابنه وهي ترضع ابنها ـ حفيده ـ من ثديها الأمومي الممتلىء جالسة متربعة على فتحة الباب. الرضيع في حجرها. الوشم يزين ذقنها الذي تطل عليه شفتان من تلك التي تلمحهما في تماثيل نساء الفراعنة الحسيات. جسدها مختبىء تحت الثوب الأسود السابغ. هي زوجة بحبح ابن البواب الذي لا يمكنك أن تراه كثيراً، أو طويلاً لأن البواب ـ والده ـ يرسله دائماً إلى أماكن وهمية وعناوين مخترعة. إن

بوابنا يعمل في سمسرة البيوت وقد عين الولد بحبح مساعده ويده اليمين كما يصف بحبح علاقة العمل بأبيه. يقول البواب ليده اليمين «فاكر الراجل اللي كان عاوز الشقة البحرية اللي حدا الجامع، أنا خلاص جمعتها له. روح اندهله علشان نتفق مع صاحب البيت، عنوانه يا سيدي..» ويسرد له عنواناً طويلاً معقداً ويعطيه قرشين للمواصلات وهي ضامن أن بحبح لن يركب مواصلات حتى لو كان المشوار إلى مصر الجديدة بل سيأكل بالفلوس بسبوسة وسيمشي نصف المسافة، ثم يقيّل على النجيلة في وسط الشارع أو يلعب سيجة مع الأولاد. ويرجع بحبح إلى أبيه ينهج. يقول له أحياناً إنه معرفش يلاقي العنوان، أو الأولاد اللي في الشارع ضربوه وأخذوا الفلوس أو أن الراجل بيقوللك استناه الساعة كذا علشان يجي يتفق معاك. وبالطبع ليس هناك راجل (لأن العنوان وهمي) بعد ذلك يزحف بحبح إلى المنور حيث يعيشون كلهم ويتمدد على الحصير المفروش ويغطي نفسه ورأسه بالملاية الصيني المليئة بالورد الجريء ويروح في النوم. بحبح ببساطة يحب النوم.

الزوجة لا تكلف خاطرها بأن تبادله الحديث فهي إما مشغولة بمراقبة الطفل وتسليته وتفلية قمله - بانتظام - أو بتجهيز طعام الغداء الذي تشتري معظمه من الباعة المتجولين. كله من على فتحة الباب التي لا تغادرها إلا لتعلّق الأكل على وابور الجاز المركون بجوار المرحاض في المنور. البواب يتمشى الآن قلقاً في الشارع بعد أن غادرته زوجة الابن. يتحدث مع أصحاب الدكاكين الصغيرة وعينه السليمة تذرع الشارع بالطول وبالعرض. حينما تفوح رائحة الطبيخ يدخل إلى المنور

الضيق - ثلاثة متر في ثلاثة متر - ويأكلون جميعهم على الأرض. هو لا ينام القيلولة لكنه يسرح خارج المنطقة حتى المغرب وأحياناً لا يعود حتى وقت متأخر في الليل.

استيقظت مبكراً ذات صباح بالصدفة وذهبت إلي المطبخ أعد لنفسي كوباية شاي. كل من في الشقة نيام. أنظر من شباك المطبخ الذي يطل على المنور منتظراً غليان الماء. كنت قد شاهدت صدفة زوجة بحبح مطروحة على الأرض ذات قيلولة بعد الغداء وقد اختفى بحبح في أحد مشاويره الطويلة والبواب في إحدى مهماته الغامضة. لعلها نامت وهي ترضع الطفل، إذ برز ثديها الأيمن من تقويرة الصدر، كما انحاش الثوب إلى أعلى وبرزت من فتحته الواسعة ساقها السمراء. كانت مطروحة على الأرض مستغرقة في ذلك النوم العميق المدهش وأخذت أتحين الفرص بعد ذلك لمراقبتها لكنني لم أفلح، فأمي التي تحتل المطبخ معظم الوقت سيلعب الفار في عبها إذا ما ترددت كثيراً على الشباك، كما أني كنت أداوم في الصباح على المدرسة. ها هي الصدفة الجميلة تجعلني أبص من الشباك في هذا الوقت المبكر وثلاثتهم ينامون على المراتب المفروشة على الأرض في المنور. كنا ما نزال في الصيف بعد. الزوجان ينامان بجوار بعضهما. الطفل بمفرده فوق رأس الأم والبواب يرقد مستعرضاً رافعاً رأسه (الآن) ينظر - بعينه السليمة (مثل الطيور) - إلى النائمين بالقرب منه. الرقبة فقط هي التي تتحرك. الابن يرقد على بطنه دافناً رأسه بين ذراعيه كأنه يحميها من الضرب. الزوجة على ظهرها. ساق ممددة والأخرى قائمة. سحب البواب شعرة من الحصيرة ولعب بها

في باطن قدمها الممددة. سحبتها إلى أعلى فانحسر الثوب حتى الخاصرة.. ومد يده كالحية في المسافة الضيقة المفتوحة الآن بين الساقين ووضعها هناك في ملتقى الفخذين بقوس الأرداف. تركها هنا فترة (لم أستطع أن أتبين ماذا فعلت اليد هناك). انقلب على بطنه ونظر طويلاً باتجاه بحبح. قام إلى الستار فأزاحه. دخل. سعل قليلاً. أثناء ذلك كانت هي قد استدارت بوجهها تجاه زوجها (ظهره بالتحديد). رمى الأعور نفسه ـ بخفة ـ في المكان الضيق الخالي الآن التي كانت تحتل بعضاً منه زوجة الابن. سحب ملاءة كانت ملقاة جانباً وغطى نفسه بسرعة والتصق بها مثبتاً إياها إلى الأرض بساقه وذراعه. حاولت هي أن ترفض لكنه لكزها بكوعه حاسماً الموقف. رأيت جسده يتحرك كالمكوك من تحت الملاءة. بعد قليل سحب نفسه إلى موضعه السابق آخذاً الملاءة معه. غطى جسده ورأسه. أما هي فلعلها أحست بلسعة الفجر الآن. سحبت جزءاً من البطانية التي كان بحبح يلقيها فوق جسده. تقبل هو دخولها معه تحت الغطاء بتذمر.

حينما رأيتهما بعد ذلك في الظهر، كان كل منهما في وضعه التقليدي هو على الرصيف المقابل وهي على فتحة الباب. هو مقعى على الأرض وهي مسندة ظهرها إلى الحائط ترضع الطفل. كانا يتسامران بهدوء وحينما أحست بنظراتي فوق ثديها العاري. أرخت طرف الطرحة عليه وامتعاض حقيقي ينتشر فوق وجهها الحلو.

١٩٦٨ الفجالة مرة أخرى...

بدأت أكثر من التردد على الظاهر والفجالة. أدلف إلى المقهى المهدم. أشرب الشاي وأدخن وأراقب الشارع. كنت كمن يقلب في أوراقه وخطاباته القديمة ولا يعرف عن أي شيء يبحث.

(مرت الآن حوالى عشر سنوات على أيام شقتنا القديمة في الفجالة).

ذات يوم التقيت ببرسوم. إنه الآن ـ كما قال لي بوقاره المعهود ـ القس برسوم راعي الكنيسة الإنجيلية. أعطاني عنوان الكنيسة ورفض دعوتي المخلصة لتناول كوب شاي في المقهى المتهدم. ووعدته أن أحضر موعظة الأحد التالي في كنيسته التي أعرف أنها واحدة من الكنائس المهمة والغنية والتي يؤمها جمهور متحذلق من المصلين خاصة صباح الأحد. معظمه من رجال الأعمال والتجار الأغنياء المحافظين والمتعصبين.

أعرف برسوم من أيام أسيوط. كان في الداخلية أيضاً لكن في أفقر أقسامها. يدرس في القسم التهذيبي. أي القسم الذي يعد الدارسون فيه لكي يصبحوا قساوسة بروتستنت. إنه القسم الذي درس فيه والدي في بداية القرن. لا يمكن للواحد أن ينسى برسوماً. إنه أحد الطلبة الكبار في العمر وفي الحجم أيضاً. إنه يصلي بنا في المطعم في معظم الأحيان (قبل كل وجبة) إنه أحد أعمدة جمعية الخطابة التي كانت «تعقد» خطباً علنية.. في قاعة الاجتماعات الكبرى يتبارى الخطباء أمام جمهور من المستمعين المتحمسين لا يقل عددهم عن أربعمائة.

وبرسوم أيضاً كان يقود الهتافات في المظاهرات في تلك الأيام.. أيام الفدائيين والتل الكبير والإضرابات (ذلك الزمن قبل انقلاب الجيش على الملك فاروق) كنا نعرف من الليلة السابقة على صباح المظاهرة، أنه بكره إضراب. وأنه علينا نحن طلاب الداخلية أن ننتظر طلاب الخارجية على البوابة الرئيسية في الصباح ونقنعهم أو نمنعهم ـ بالقوة ـ من دخول الفصول. نذهب في الصباح الباكر إلى المطعم المتوتر الآن بالإشاعات. إنها اللحظات الحاسمة التي تسبق المظاهرة، لأن نقطة التجمع الأولى هي أمام باب المطعم وفي معظم الأحيان يكون جواسيس الإدارة من الطلبة قد أبلغوا المدير بالإضراب. أحياناً يحضر الى المطعم ـ وهو الشيء الذي لا يفعله في الأيام العادية ـ مصطحباً معه القسيس ـ إبراهيم ـ ومساعدي الإدارة. الأعين تراقب الآن المعركة الصامتة بين الطلاب الكبار وبين الإدارة. الطلاب الكبار يعتمدون على العدد الكبير من الصغار. الكبار يعرفون أن الموقف الشجاع أمام تهديدات الإدارة الصامتة والعلنية هو الذي سيدفع الصغار إلى الإضراب. الأعين المدربة ترقب برسوماً بوجهه الممتقع (عادة شاحب مصفر من سوء تغذية تاريخية). نبحث عن الطربوش. ثمة خبرة متوارثة: إذا ما أحضر برسوم طربوشه اليوم الإضراب فلن تستطيع قوة في الأرض ـ حتى المدير الأمريكي ـ أن تحول بين برسوم وقيادة الهتافات.

قال له المدير مرة مغيظاً ساخراً «جيت بطربوشك يا برسوم» فيجيب برسوم صارخاً بصوت مرتعش من الخوف والتوتر «اليوم حرام فيه العلم» حينئذٍ تنطلق المظاهرة لا يوقفها أحد أو

شيء.. إنها اللحظة التي ينتقم فيها الطلبة الفقراء الذين يتعلمون بالمجان من المدير الذي يحلو له أن يذكرهم علانية بوضعهم. لكن لبرسوم أيضاً لحظات ضعفه، إذ يختبىء صباحيات بعض الإضرابات ـ مثل بقية الجبناء ـ ساعتها ننسى بالطبع مواقفه الشجاعة الأخرى وتحاصره الأعين الساخرة، فيختفي برسوم لعدة أكلات من المطعم ـ وهو الشغوف بالأكل ـ حتى ننسى الموضوع.

أراه الآن وقد سمن بعض الشيء وخف امتقاع الوجه. الطربوش ما يزال بالرغم من أنه أصبح موضة قديمة الآن. البدلة تبدو غالية ولكنها ـ كعادته ـ تبدو كأنها ليست له من الأصل. أتذكر هتافه وهو يحاول أن لا يقع من فوق أكتاف المتحمسين الذين شالوه وقد أمسك بطربوشه يشوح به بيد وبالأخرى يتشبث برأس أحد الذين يحملونه وهو يزعق: اليوم حرام فيه العلم. حذاء مليك مصر فوق تاج ملك بريطانيا.

أراقبه يدلف إلى شارع جانبي بمشيته الواسعة الوقورة.. وطربوشه.. وحذاء مليك مصر.

أستيقظ كل يوم في الوقت ذاته كل صبح ـ تقريباً ـ أمارس الروتين ذاته بالترتيب ذاته. أستيقظ ببطء (أؤمن بما تعتقده بعض القبائل القديمة بأن النوم هو حالة من الدخول إلى العالم «الآخر» وأن الرجوع من ذلك العالم إلى عالمنا هذا يجب أن يتم وفق الطقوس الخاصة بذلك وتسمى طقوس الاستدعاء وهي ما أسميها أنا الصحوان ببطء). أنظر من بلكونة الشقة الى حركة الشارع ـ ما زالت بطيئة ـ إلى عربة الفول على الناصية. إلى المفطرين وقوفاً. يفطرون بلهوجة. أحاول أن

أخمن من هم؟. أستطيع أن ألمح بعض الوجوه التي «أعرفها» من خلال مراقبتي الصباحية. أراقب أيضاً الطلاب في معهد الموسيقى القريب. إنهم يدرسون الموسيقى الشرقية. أحلم أن أتعلم العزف على العود لكنني أتهيب التجربة لعلمي بالصمم الموسيقي في أذني. أبدأ في الاتصال بالتليفون من القائمة التي جهزتها بالأمس. شكوكي ـ في الصباح ـ حول جدوى ما أقوم به أصلاً تنهشني مثل ذلك الرخ الذي كان ينهش كل صباح كبد بروموثيوس. بعد ساعات النهار أبدأ في استعادة الثقة في نفسي وفي العمل (النشر). هكذا يستعيد كبدي نموه حتى ينهشه رخ الصباح التالي. أظبط مواعيدي. أرتب أوراقي. أنظم عقلي وأحرك الماكينة التي تسيطر على جسدي. ويبدأ الطحن.

في وارسو أحب أن أستيقظ على مهلي. أؤجل النظر من النافذة حتى لا أرى المشهد الذي أعرفه جيداً. البيوت والبلوكات التي لا طابع لها. اللون الرمادي يحط على الأشجار والإسفلت والهواء. أنتظر الجليد، هنا على الأقل سوف يسيطر الأبيض على الرمادي. أحب أيضاً أن أستيقظ فلا أجد ميشا في الشقة الصغيرة. إنها عصبية في الصباح. تستيقظ أبكر مني لتذهب إلى عملها في الجامعة حيث تعمل في قسم الدراسات الإفريقية. لم تشبع من النوم بعد. إننا نسهر في الليل لساعة متأخرة معظم أيام الأسبوع. نتحدث. نستمع إلى الموسيقى. نستقبل الضيوف. نذهب إلى السينما. نزور أهلها. آلاف الأشياء التي تخترعها (أنا متأكد) لكي تستهلك أمسياتي حتى لا أتجول لوحدي في المدينة التي أحبها وأحب

نساءها وأستمتع بالصيد فيها. أعلق بناتها الصابحات الوجوه الفائرات بالشهوة السهلات المنال بسبب الملل والرغبة في اكتشاف رجال آخرين طعمهم مختلف. بلهاوات حبيبات، وهي من غيظها وحبها للاستحواذ تسميهن العاملات في محلات اللحمة. أدخل بهن إلى شقق الأصدقاء. إلى الحدائق المهجورة وأستنشقهن.. أتشممهن.. أدور حولهن أتحسسهن.. أضع علامتي عليهن قبل أن ألتهمهن أو أمزمزهن على مهل حسب الظروف. أرجع إلى البيت شبعاناً لا أريد ميشا أو ريحتها، شاعراً ببعض الذنب فأتصيد أخطاءها. عدم ترتيب البيت. عدم الاعتناء بثيابها. عشرات الأشياء الصغيرة التي تقود لخناقة. تنسحب هي مجروحة إلى الغرفة الصغيرة (أريكة واحدة ضيقة للضيوف) وأجلس أنا على الكرسي الفوتيل بجوار المدفأة التي تعمل بالفحم أقرأ مستمتعاً. أسأل نفسي أحياناً.. لماذا لا أنسحب من حياتها. لا أجد إجابة شافية سوى أني خلاص تعودت على العيش معها (بالإضافة إلى تلك اللذة الخفية في إيلامها متذكراً ما فعلته بي بعض القحاب).

لقد عرفتها من حوالي سنتين. أحببتها. بادلتني حبها الأسير منذ طلاقها من زوجها القبطان في أعالي البحار وفساد العلاقة بينها وبين ابنتها المراهقة «ياجوشا». التصقنا ببعضنا واستمتعنا برفقة كل منا للآخر. أحب جسدها الآموي الناضج. في منتصف الثلاثينيات مثلي. أحاول أن أتغلغل إلى داخل عقلها. أن أعرف «جنونها المكبوت» وفنتازيتها وأحلامها الجنسية السرية. أحياناً تبوح وأحياناً تروغ.

ساعدتني الظروف ـ وبمجهود خارق مني ـ أن أحصل على

منحة لدراسة الإخراج المسرحي في بولندا. ذلك عام ١٩٧٠. أذهب إليها مرتبكاً في كل شيء. النهاية السخيفة للعلاقة مع سيفتلانا. مسرحيتي الأولى يصادرها الوزير (وزير الثقافة وقتها: ثروت عكاشة وكان اسم المسرحية يا ليل يا عين وهي تعزو سبب هزيمة مصر في حربها مع اسرائيل سنة سبع وستين إلى الفساد الذي عشش في بطانة عبد الناصر وكنت أنا أبلهاً إذ صدقت ما كانت تقوله السلطات بضرورة تقبل النقد الشعبي والبحث عن أسباب الهزيمة) قبل العرض بيوم واحد. إحساس مرير بعدم جدوى العمل السياسي وبأن سنيّ السجن ضاعت هباءاً. في بولندا. في الشهور الأولى راودتني ـ أكثر من مرة ـ فكرة العودة نهائياً إلى مصر أو الاستقرار في السودان بعد اكتشافي المبكر بأن دراستي في بولندا مملة وغير مجدية وفقداني الحماس لها. الطقس الكئيب. الفجوة الثقافية واستحالة عبورها. النقود القليلة التي يعطوني إياها كمنحة والتي لا تكفي حتى للضروريات وانهيار التطبيق الإشتراكي أمام عيني (المومسات والرشوة والمحسوبية الحزبية إلى آخره ما تسميش). الشيء الوحيد الذي أبقاني هو عدم رغبتي في الاعتراف بفشلي الشخصي وفقداني الشجاعة للاعتراف بتهرأ النظام (هذه أول دولة «إشتراكية» أراها وأعيش فيها بعد السجن)، وبجانب ذلك هذا الكم المهول من البنات اللاتي يلتقطهن الواحد بسهولة حتى قبل إجادة اللغة. ليس هذا بسبب مزايا الواحد الخاصة. لكن لأسباب أكثر أهمية وتعقيداً. ملل الروح وضجر الجسد. وفقدان الأمل في التغيير مضافاً إلى كل هذا الطبع السلافي المتميز في هذا الجزء من العالم خاصة

بعد سنوات معسكرات الاعتقال النازية وضياع مئات الآلاف من البشر... إلخ. هنا يقوم الجسد بكل وظائفه الروحية والحسية. يحملن أجسادهن بدرجة عالية من الحسية والحساسية. رغبة لا فكاك منها لتحطيم أغلال الجسد وحالة متميزة لمغامرة الشبق. هنا يرجع الواحد إلى أولى مراحل الرغبات المستترة وفضها، والبوح بها بدون حذلقة أو كثير كلام. إن «الحفلات الجنسية» هدفها الأساسي هو «التفريغ» بمعناه الحسي ومعناه السايكولوجي. لها طقوسها ونظامها وتقاليدها رغم أنها بالأساس ضد النظام وضد التقاليد. يحضر الناس إلى «الحفل» بدون معرفتهم لبعضهم البعض. يتم التعارف من خلال الجسد وبوساطته. الأسماء. الوظائف. الحالة الاجتماعية، ذلك كله لا يهم أحداً من المشاركين. (بل من الأحسن عدم كشفها لدواع الأمن الشخصي في دولة بوليسية). المهم هنا هو أن يتصرف الواحد كما يريد. أن يفعل ما لا يستطيع أن يفعله في الظروف العادية. هنا تنمو حالة من «المعرفة» النادرة والخاصة. بداية بين الواحد وجسده ـ وروحه ـ وبينه وبين أجساد الآخرين وأرواحهم... مثل احتفالات الكرنفال.. لكن بدون أقنعة وبدون ملابس.

ليمونة الحياة

سافرت إلى لبنان حينما كنت أعمل في العراق، بعد إنهاء دراستي في بولندا. كنت أؤجل رجوعي إلى مصر.. ها قد انقضت عليّ الآن خمس سنوات منذ أن تركت مصر. أصدقائي من مصر الذين يعملون في العراق أكدوا وجود عمل لي هناك. بالفعل وجدت عملاً بسهولة وبسرعة في مؤسسة السينما والمسرح. وجدت شقة صغيرة. المرتب يكفي ويزيد، وبغداد هي أول بلد عربي بعد أوروبا. كوّنت علاقات واستمتعت باكتشاف بغداد. بقيت فيها ثلاث سنوات. ثم بدأ التضييق على الشيوعيين والديموقراطيين الذين كانوا في الجبهة مع الحكومة البعثية. صدام حسين كان أنذاك نائب الرئيس البكر الذي لم يستطع الاحتفاظ بسلطته أمام طموح صدام حسين وانتهى بعد ذلك بتسليمها إليه تماماً والتقاعد رسمياً.

ثمة صديق مصري كان في بغداد ويعمل معي في المؤسسة نفسها في قسم السينما. كلانا كان في السجن في مصر. كلانا كانت له علاقات بالشيوعيين العراقيين. فكرنا في ترك العراق والذهاب إلى بيروت والبحث عن عمل هناك. بغداد

أصبحت كئيبة ومخيفة بعد أخبار الاعتقالات والتعذيب. كان هناك زميل مصري يعمل في جريدة السفير اللبنانية وقد التقيت به مرة في بغداد وأكد إمكانية العمل بالنسبة إليّ في الصحافة اللبنانية (فأنا حاصل على ليسانس الآداب قسم الصحافة من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠) هكذا وجدت نفسي ذات مساء خريفي جميل أجلس على مقهى في الكورنيش البيروتي. أحسست فجأة بسعادة غامرة. أحببت المدينة ذلك الحب من أول نظرة وبدون تحفظ. قلت لمن حولي.. هذه هي المدينة العربية الوحيدة التي أريد أن أعيش فيها. كانت الحرب الأهلية ما زالت في لبنان. لكنها لم تكن قد وصلت إلى ذروتها بعد وبالرغم من كل هذا قررت أن أجرب حظي وبالفعل وجدت عملاً في جريدة «السفير». رجعت إلى بغداد وقطعت عقدي في المؤسسة ولملمت أغراضي. كان أصعب شيء هو إقناع يمامة بترك بغداد. كنا قد تجوزنا (سراً) وإن كنا ما نزال نعيش في مسكنين منفصلين. هي مع أهلها. أمها كانت فقط التي تعلم بما تم بيننا. وافقت يمامة بشرط أن أرتب لها هي أيضاً استمرار دراستها في الجامعة الأمريكية في بيروت في كلية الطب كما كانت تدرس في بغداد. تركتها على أمل ترتيب ذلك لها.

سكنت لوحدي في البداية في شقة صغيرة لطيفة بالقرب من الروشة على البحر في منطقة تسمى نزلة كاركاس (لعل تغربية أهل لبنان في بقاع الأرض تفسر هوسهم بإطلاق الأسماء الأجنبية على بعض أحياء بيروت). التحقت بي يمامة

في العطلة الصيفية وقد أحضرت معها حقائبها الكثيرة، إذاً الموضوع جدي!

من بيروت ذهبنا سوياً إلى عدن ومنها الى إثيوبيا في رحلة صحافية كان ذلك أيام منجستو هيلا مريام بعد الانقلاب على الإمبراطور هيلا سيلاسي (الذي كنت أحبه) من أيام كفاحه ضد الغزاة الطليان. لكن يمامة اضطرت للرجوع مرة أخرى إلى بغداد لمواصلة دراستها لأنها لم تستطع الالتحاق بالكلية في بيروت.

إثيوبيا جعلتني أكتئب. كنت أحمل ذلك الحلم الرومانسي عن إفريقيا القارة الناهضة من نير الاستعمار... إلخ. لكن كمية الفساد والقتل الذي رأيته في الحبشة جعلني أعيد أفكاري. كنا نحن مجموعة من الصحافيين من جنسيات مختلفة قد تمت دعوتنا لحضور احتفالات إثيوبيا «بالثورة». رتبوا لنا طائرة هليكوبتر عسكرية لتقلنا إلى المناطق «المحررة» في إريتريا. ذهبنا إلي مدينة أسمرة وهي الميناء الوحيد في الحبشة يطل على البحر الأحمر من طرفه الجنوبي وهو أيضاً العاصمة التاريخية لإريتريا. هالني منظر التدمير الذي كان يتم من الجو بوساطة الطيارين والطائرات الروسية. هناك بالطبع حظر تجول مستمر من عدة سنوات لذلك اعتكفنا في الفندق قبل غروب الشمس مع مرافقينا العسكريين الذين لم يفارقونا لحظة واحدة. لكن حظر التجول وغياب معظم الرجال البالغين الذين هربوا إلى الجبال والأحراش للحرب أو الذين تم قتلهم بشكل منظم بوساطة العسكر؛ كل هذا خلق حالة جديدة من الحياة الجنسية في أسمرة «فالبنات» يأتين إلى الفندق جماعات قبل حلول موعد

حظر التجول تستقبلهن على الباب مجندة. تقوم بتفتيشهن بعد تبادل التحية والتقبيل وعرفت كلمة واحدة من كثرة ترديدها.. «فتشا» (أخذوها من العرب بالطبع؛ ملوك التفتيش). بعد ذلك تسجل البنات في الريسبشن أسماءهن ويستلمن مفاتيح غرفهن. يقضين الليل في انتظار الصباح. بالطبع يقضين الليل في نشاط جنسي محموم. يدرن على الغرف التي فيها النزلاء المحترمين من أمثالي الذين ليست لديهم الخبرة بالنشاط الجنسي في جمهورية إثيوبيا الإشتراكية الشعبية أثناء حرب التحرير ومطاردة فلول الثورة المضادة!.. لم أفتح بابي بل تمسكت بعفتي الوهمية مدعمة بخوفي من الأمراض الجنسية التي تحظى إثيوبيا بأعلى نسبة لها في إفريقيا التي تحظى بدورها بأعلى نسبة لها في العالم. أثناء العشاء عزم الضابط الكبير الذي كان برأس بعثتنا على صاحبته المومس التي صادها من «فتشا» بأن تشاركنا العشاء. كانت جميلة. إريترية مخلطة بالدم الإيطالي. ولك أن تتصور. تتصرف بنعومة وتهذيب وتدير الحوار بإنجليزيتها المعقولة حول مواضيع لا علاقة لها بالحرب كأي مضيفة محترمة تسلي ضيوفها، كانت تجلس متصدرة المائدة. على الجزء المقابل كانت تجلس المترجمة الشابة ذات الجمال الطبقي الأخاذ (الواحد يلاحظ هذه الفروق الطبقية في البلدان الفقيرة.. الفقراء يزدادون قبحاً والأغنياء يزدادون جمالاً.. هذا هو قانون الحياة الرأسمالي).. تجلس تدير الحوار الأرستقراطي حول الفرق بين الأكلات الإيطالية والفرنسية. تتكلم بثقة. طبيعي فهي سليلة عائلة عريقة كانت في السلطة أيام النظام القديم وبالطبع ولا كلمة عن أهلها. إن الضابط هو الذي قال

لنا مفاخراً عن نسبها الرفيع ولعله في أعماقه الطبقية البسيطة يحس بالزهو لأنها تعمل عنده.. دنيا. الحبشيات أعرفهن من أيام السودان وحتى من قبل البلوغ. يسميهن السودانيون: الحبش... إنهن العمود الفقري للدعارة في السودان. إنهن الزبدة والبهريز. يتكالب عليهن الرجال. أسعارهن غالية. مغناجات خبيرات (كما تأكدت بنفسي بعد ذلك) جميلات ذلك الجمال الناتج عن تزاوج عرق بآخر مع العرق الزنجي المختلط في كثير من الأحيان بدم أوروبي أو كليهما. هناك عرق خاص أيضاً منهن في بورتسودان على الحدود الحبشية مختلط بالدماء الفرعونية القديمة للقبائل الهدندوة التي تستوطن المنطقة منذ القدم. نساؤهم يطلق عليهن اسم «الخساويات» لا يجدن العربية لكن أردافهن الغلامية وخصورهن الدقيقة التي تشيل أثداءهن العارمة تشفع لهن. قمحيات يطاولن الرجال وشديدات البأس.

أرجع إلى بيروت لأكتب سلسلة من المقالات بعنوان «كارل ماركس الأسود». تحتج السفارة الحبشية على موقفي اللاثوري، ويردد «الرفاق» الاتهام. كيف أنسى إنجازات الثورة الماركسية وأذكر الهنات البسيطة مثل الجثث التي كنت أراها كل صباح يجرفها النهر، والجوع والجذام والدعارة والفساد.. وبالطبع.. فتشا!. أستقر في بيروت وقد لصقت بي سمعة اللاثوري. في البداية حاولت أن أناقش لكني في النهاية اكتشفت عدم جدوى هذا. أخذت أستمتع أكثر بحياتي البيروتية. صاحبت صحافية سويدية كانت تعيش هناك مع أولادها البالغين بعد طلاقها من زوجها. كنا نمارس الجنس في

بيتها. غرفة نومها لصيقة بغرفة ابنها الكبير (لعله كان في الثامنة عشرة من عمره) الذي كان مصاحباً أيضاً لفتاة لبنانية تأتي إليه (من بيروت الشرقية. الجزء المسيحي) وتقضي الليل معه في غرفته. صديقتي الأربعينية كانت تعبّر عن انفعالاتها بصوتٍ عالٍ وبكلمات واضحة واللبنانية ترد عليها بتأوهات شرقية. في الصباح نلتقي جميعنا على الإفطار وبجوارنا الراديو الصغير يبث علينا أخبار الحرب اللبنانية وما حدث ليلة الأمس أثناء انشغالنا بأشياء أخرى.

حينما غزت إسرائيل لبنان اهتزت حياتنا جميعاً. السويدية غادرت ومعها أولادها إلى قبرص. اللبنانية ذهبت مع أسرتها الغنية إلى فرنسا، وبقيت أنا. أذهب يومياً إلى المجلة (كنت قد تركت صحيفة «السفير» لأعمل في مجلة «بيروت المساء» التي تصدرها منظمة العمل الشيوعي في لبنان). مكاتبنا في منطقة الكولا التي تتكدس فيها المنظمات الفلسطينية وغيرها. لذلك كان الضرب شديداً على هذه المنطقة. طلب مني أصدقاء عراقيين أن يقيموا معي في شقتي التي تعتبر آمنة نسبياً لبعدها عن مناطق المكاتب السياسية فرحبت جداً، كنت أعاني من الوحدة والخوف الناتج عن القصف المتواصل وغموض المستقبل. وبمرور الوقت والحرب ذهب هؤلاء وجاء آخرون. أحياناً أجد في الشقة أناساً لم أرهم من قبل لكنني كنت أجد دائماً صحبة طيبة وطعاماً وشراباً. كانت هناك امرأة سورية شابة سافر زوجها بالصدفة قبل الغزو بيوم واحد إلى الشام. أغلقت الطرقات وتوقفت السيارات ـ مؤقتاً ـ بين دمشق وبيروت. أحضرتها صديقة لها إلى الشقة حيث إنها تخاف أن

تقيم بمفردها. ذهب الآخرون وبقيت هي بشكل ثابت وتولت تدبير الاحتياجات الضرورية من طعام وماء (ليست هناك مشكلة في الشراب) وغيرها. تتميز بذلك الهدوء الآسر والحس المرهف. نجلس في البلكونة المظلمة المحطم زجاجها ونراقب البحر القريب الذي ستأتي منه قوارب الغزاة والذي تنهمر منه أحياناً حمم مدافعهم وقنابلهم الموجهة بالرادار. لم نكن نحكي عن الماضي أو حتى عن المستقبل. كنا نتبادل الإشاعات ونستمع إلى الراديو الصغير بالبطاريات لنعلم من البي بي سي أو مونت كارلو عما يحدث في الدول العربية من ردود الفعل. كانت هذه أقسى أوقات الغزو. هذا الصمت اللامبالي العربي. كنا نجد الملاذ في أجسادنا من خيبة أملنا وإحباطاتنا. المرة الأولى كانت بعد أيام كثيرة من تواجدها في الشقة. تلك الليلة التي قصف فيها الإسرائيليون بيروت من البحر والجو لساعات طويلة. كنا لوحدنا. ثمة خبرة أن تلك المسافة الصغيرة بين المطبخ والصالة والتي تشكل مربعاً ضيقاً في عمق الشقة.. أكثر الأماكن أمناً فهي بعيدة عن البلكونة وبعيدة عن الشارع أيضاً. لممنا سجائرنا على عجل والبطارية والراديو وفرشنا بطانية وتكومنا عليها القصف ينير السماء ويهز العمائر. أحسست أن هذا هو الموت بجد. لم أقل شيئاً لكنها أحست بالتأكيد بالخوف الذي يغمرني. احتضنتني. أحسست بعضلات ذراعيها تثبتني إلى جسدها. دفنت رأسي في صدرها أرتعش. قالت هي «تعال». حاولت ولم أستطع. خوفي جعلني عنيناً. أخذنا نضحك. زحفت هي وأحضرت زجاجة الفودكا. شربنا مباشرة من الزجاجة. نمنا في حضن بعضنا.

استيقظنا في الصباح على صوت فيروز المنبعث من الراديو الذي تركناه مفتوحاً. الشمس تشرق كأنه لم يحدث شيء بالأمس. حينما قلت لها هذا نظرت إليّ متعابثة وقالت فعلاً. مكثنا طوال النهار في الشقة ننظفها واستخدمنا كل المياه التي لدينا قالت لي تحمم فرائحة خوفك تغطي جسدك سخّنت هي الماء ودخلت أتحمم. أكلنا ونمنا كل منا بمفرده (كانت هذه رغبتي الصامتة التي التقطتها هي بذكائها الحساس). كنت مجهداً وأريد فقط أن أنام. حينما استيقظت وجدت أنها ما تزال نائمة. كانت طفلة ضخمة يملأ جسدها السرير وإصبعها في فمها وبقايا دموع في رموشها جلست في الصالة أنتظر لكن القصف بدأ فجأة فهرعت إليها لآخذها إلى مخبئنا. قالت والنعاس قد طار من عينيها: لا أريد أن أتحرك من الفراش. دخلت إلى جسدها الدافىء من النوم وأصوات القنابل من فوقنا. انسحبنا بجسدينا من بيروت تحت القصف. من رعب مواجهة الموت إلى دهشة التعرّف.

كيف تهاوت أغصان
شجرة العائلة المقدسة

الأتوبيس الصحراوي ينطلق من ميدان التحرير إلى الإسكندرية في الشمال الغربي. أذهب إليها أطلب السلوى. التحادث مع أناس رضوا في النهاية أن يقبلوني على علاتي. أختي الصغرى تعيش الآن في الشقة التي كانت تعيش فيها أمي بعد أن أستقل أخي بشقة في حي بولكلي. تزوج وأنجب. أختي الصغرى تزوجت ـ دون رضاء الأسرة ـ وأنا في السجن. كبر أولادها ومات زوجها ذات صباح وهو في الحمام (تزوجت سراً في السنوات الأخيرة من زميل لها مسلم ويعارض أولادها هذا الزواج وقد تزوجته سراً خوفاً من معارضة العائلة «المقدسة» كما كنا نسمي عائلتنا). أمي صالحتها قبل موتها وأخي تنازل لها عن الشقة (كانت تعيش مع زوجها وأولادها في بدرون مظلم). بنتها تخرجت وتزوجت وتعيش وتعمل في مرسى مطروح بالقرب من الحدود الليبية. أختي الكبرى هاجرت مع زوجها وأولادها إلى كندا وحصلت على الجنسية الجديدة. أخي الأكبر هاجر إلى أمريكا وحصل على

الجنسية. ولداه الآن في الجيش الأمريكي يؤديان خدمة العلم.. (سلّمهما للجيش بعد إتمام دراستهما الثانوية من بخله الشديد إذ استخسر أن يصرف عليهما في الجامعات، فيقوم الجيش بدفع مصاريف الدراسة ويضعهما وأمثالهما تحت الطلب كلما تقع واقعة). سمعت أن أحدهما كان مع القوات الأمريكية في حرب الخليج. أخي المدرّس يعمل في زامبيا. زوجته وأولاده في الإسكندرية. أزورهم أحياناً حينما يكون هو في الإجازة الصيفية. بيت أخوالي في سيدي جابر الشيخ، كان شارعهم اسمه دانتيمارو تكريماً لذكرى المهندس الخواجة الذي أشرف على بناء كورنيش الإسكندرية الشهير لكن في موَجة التأسلم الأخيرة غيّرت المحافظة اسم الشارع باسم عربي نكرة لا أستطيع معرفة من هو. ولا حتى خالي الذي يسكن في الشارع منذ أكثر من عشرين سنة. والشقة ما تزال كما هي منذ أن انتقل خالي الكبير إلى الإسكندرية في منتصف الخمسينيات. في الطابق الثالث في شارع يقترب من البحر الذي أسمع صوته في الليالي الهادئة. غرفة البنات أصبحت غرفة خالتي روجينا بعد موت خالتي لولو. كان خالي وديع ينام في الغرفة القريبة من البحر. بعد موته استخدموها لوضع الأشياء القديمة والمحطمة والتي لا فائدة منها لكنها تبقى دائماً في البيوت وتحتل الأماكن القليلة الفارغة. وبعد موت خالي نجيب استقل خالي شاكر بالغرفة التي كانا يتشاركان فيها. لكن خالتي روجينا انتقلت من غرفتها وتنام الآن على السرير الآخر الخالي في الغرفة. في الردهة التي تفتح على الباب توجد مائدة الطعام القديمة (يفرشون عليها الصحف ساعة الأكل) التي تفتح على

المطبخ الصغير البسيط. بجواره المرحاض الذي يتسرب ماء السيفون منه منذ سنوات. في الردهة الأخرى التي تستعمل كمكان لاستقبال الضيوف الذين لم يأتِ أحد منهم إلى البيت منذ سنوات لا لسبب محدد لكن لأن كل معارف العائلة قد هاجروا أو مرضى أو موتى. «الضيوف» الذين يأتون هم الطبيب الذي يأتي بانتظام والقسيس الذي يأتي مرة في الشهر وبعض الجيران بمناسبة المرض أو الأعياد. معظمهم يفضّلون أن يجلسوا في غرفة نوم خالي يستعيضون عن المحادثة بمشاهدة التليفزيون الموضوع منذ أيام خالي الكبير في غرفة النوم.

رغم الإضاءة المعتمة، ورغم النوافذ المغلقة بالشيش والزجاج صيفاً وشتاء. ورغم صوت ماء السيفون الذي لا ينقطع ورغم رائحة الدواء التي تعبق في الشقة المغلقة ورغم النتيجة المعلقة على الحائط منذ العام الفائت والتي لم يهنَ أحد بتغييرها رغم ذلك أذهب بانتظام ـ بقدر الإمكان ـ إلى هذه الشقة. أدق الجرس وأنا ألهث من السلم القديم العالي المظلم. يأتي الصوت من الداخل مين؟ فأقول «أنا». بعد محاولات بطيئة تفتح الأقفال المختلفة المعقدة التي تقيم قلعة بينهما وبين الليل والخطر والمفاجآت. إنهما في غرفة النوم. كل منهما متمدد على فراشه الذي تصلبت مرتبته بفعل الرطوبة والقدم وعدم التنجيد. التلفزيون يقوم بواجبه ويحل كل منهما من المحادثة المفترضة. إنهما يهومان. ينعسان يقول أحدهما فجأة جملة أو إجابة كانت مختزنة في الدماغ لساعات لا يعنى الآخر بالرد فلم يكن هناك سؤال يستحق الإجابة ولم يعن أحد بها. العطف والشفقة يربطان بينهما. هي تقول لي حينما يكون بعيداً «باخد

بالي منه. ميعرفش يعمل كوباية الشاي». يقول هو حينما تكون بعيدة «مالهاش حد غيري وبساعدها في شغل البيت» هو الصادق فقد أقعدها الروماتيزم عن الحركة معظم الوقت. أما هو فإنه ينزل إلى الشارع ليشتري الفول والخبز الطازج والجريدة التي يقرؤها باهتمام وبعقل صاحي. إنه الآن على المعاش يعلق في غرفة الضيوف نوط الامتياز من الدرجة الثالثة «تقديراً لخدمته الممتازة أثناء عمله في هيئة السد العالي من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٨٢». يرتدي ثياب الخروج كل يوم يجلس في غرفة الضيوف تحت نوط الامتياز من الدرجة الثالثة يقرأ الجريدة ويسألني عن الجماعات الإسلامية. يسرد لي الأخبار والإشاعات عن حرق الكنائس وعن اقتحام متاجر الأقباط. لكنه ليس بخائف. يحس بالحيرة والقلق. إنه لا يفهم ما يحدث. أحاول أن أخفف بل وأسخف من حدة الإشاعات والتي في معظمها مغالٍ فيها. يتظاهر بتصديقي. فلا يريد أحد منا أن يدخل في جدل حول هذا الموضوع. نبحث عن موضوع آخر لا يثير الجدل بل روح الفكاهة الساخرة التي يتمتع بها. أسحبه أنا بموافقته إلى «حكايات» العائلة المقدسة. يبدأ في مدح أبي، وينتقد أمي نقداً خفيفاً. يرجع إلى نقارها مع خالي وديع في السودان وكيف أنها قطعت لقمة عيشه. يسألني هل كان الله يرحمه خالك وديع ماشي مع واحدة يهودية؟ يسأل باهتمام وأجيب أنا أيضاً باهتمام. أحاول أن أتذكر التفاصيل التي اخترعتها المرة الفائتة. لكني بالتدريج اكتشفت أنه لا «يحقق» في الرواية بقدر ما يرغب في أن يعيش تلك المرحلة من الحياة الجنسية لأخيه، الغامضة التي

أثارت كل هذه الدوشة (التي مضى عليها أكثر من أربعين سنة الآن). إنه يهتم بالتفاصيل ـ بطريقته الخاصة ـ اليهودية: هل كانت حلوة؟ طويلة أم قصيرة، وعمرها ولون بشرتها. تعلمت الآن الحفاظ على الخط الرئيسي للحكاية وأعزف في كل مرة ألحاناً جديدة. لم يراجعني ولا مرة. إنه مستمع ممتاز. نجلس على الكنبة الأسيوطي القديمة في مواجهة أمواته وأمواتي، أمه واخوته وأمي وأخوالي وستي وخالتي. نتحدث عنهم دون حرج. بحب وسخرية خفيفة وغفران كامل لسوءاتهم. تشارك خالتي أحياناً في الحديث خالتي لم تتزوج أبداً وقد قرر أخوالي في البداية الانتظار حتى تتزوج البنتان. ثم قرروا عدم الزواج نهائياً حتى لا تتبهدل البنات مع زوجات اخوتهم. ماتت لولو. الأخوال ماتوا بدون زواج وبقيت روجينا وحيدة مع صليب الشهير بشاكر. (لم يتزوج أخوالي لأنهم كانوا في انتظار تزويج البنات اللاتي لم يزوجن، ما عدا أمي بالطبع. هذه تقاليد صعيدية مسيحية).

لا أذكر أني سمعت مرة واحدة جملة تذمر من أخوالي الرجال أو رأيت جفاءً في معاملتهن لخالاتي. المتذمرة الوحيدة في الأسرة كلها هي أمي. حينما أقول هذا أمامهما الآن يسارعان في إيجاد الأعذار لها.

عدم معرفتي الجيدة بشوارع الإسكندرية وعدم وجود هدف لي في معظم الأحايين من التجوال في شوارعها يفرضان عليّ حالة المتسكع الذي يمتلك الكثير من الوقت ليأتنس بنفسه. قسم شرطة باب شرقي حيث كنت أقضي فترة المصاريف (وهي العقوبة المفروضة على السجين المطلق سراحه

لكن ما زالت هنالك غرامة عليه أن يدفعها صادرة مع الحكم. فإذا تعذّر عليه دفع الغرامة فإنه «يخيّر» بين السجن ـ مرة إضافية لمدة ثلاثة شهور أو العمل بدون أجر لوزارة الداخلية التي تشرف على السجون والشرطة ـ غالباً ما يكون العمل في أحد أقسام الشرطة كعامل نظافة وخادم يحضر القهوة والشاي). إلى هذا القسم ذهبت لتنفيذ حكم المصاريف ـ بعد أن رفض أخي الأكبر الدكتور المقيم في أمريكا ان يرسل نقود الغرامة وهي مائة جنيه (كانت أيامها تساوي حوالى مائة وخمسين دولاراً).

أستيقظ كل يوم في السابعة لأكون في قسم الشرطة في الثامنة ـ عدا أيام الجمع والأعياد الرسمية ـ ويوقع الشاويش المسؤول عن حضور «المصاريف» كما نسمى في دفتره الرسمي بحضورنا. كنا ثلاثة. اثنان من الإسكندرية أصلاً، وأنا. استطعنا أن نصل إلى اتفاق ـ مألوف في هذه الظروف ـ مع الشاويش المسؤول عن توزيعنا حتى يعفينا من العمل العبثي المهين ـ مقابل إعطائه ستة جنيهات في الشهر. رحب هو بها. كنا نتسحب خارج القسم ـ حفظاً للمظاهر ـ ونجلس على النجيلة المجاورة نقرأ الصحف ونراقب البنات (اللاتي كبرن وبلغن في غيابنا) خارجات من مدارسهن أو متسكعات وكنت أفكر طوال الوقت كيف أني خلال السنوات الأربع الماضيات لم ألمس جسد امرأة. أرى النساء في الشارع وأنا «محبوس» على النجيلة ولا أستطيع حتى القيام بمحاولة لمعاكستهن. الوقت الحر الوحيد المتاح لي هو بين الثانية ظهراً ـ بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية في القسم ـ حتى غروب الشمس لتبدأ

فترة حبسي في البيت حتى الصبح، وتسمى فترة المراقبة. يمر الضابط المسؤول في أي وقت يحلو له - غالباً في الفجر - أو عدة مرات أحياناً في الليلة الواحدة ليتأكد من تنفيذ حكم المراقبة (يوقع هو أيضاً في الدفتر الخاص بذلك. والفكرة البلهاء الحقيرة هي اعتقال الواحد مرة أخرى في بيته منذ الغروب وحتى صباح اليوم التالي) كنت أفضّل الذهاب إلى السينما من حفلة الساعة ثلاثة. أراقب ساعتي قلقاً لأغادر السينما قبل انتهاء العرض وأستقل الترام عائداً إلى البيت قبل غروب الشمس.

بعد شهرين - على ما أظن - أصدر عبد الناصر قرار العفو الشامل فأصبحت لأول مرة منذ خروجي من معتقل الواحات أحس بأني مطلق السراح. أمارس الآن إحدى هواياتي. التسكع في الشوارع في النهار والتمشي ليلاً على الكورنيش القريب من بيتنا. الذهاب إلى السينما. نومة القيلولة. السهر ليلاً لمشاهدة التلفزيون في بيت أخوالي والونسة الهادئة. السفر أحياناً إلى القاهرة للبحث عن عمل ولقاء الأصدقاء. لم يكن لي أصدقاء في الإسكندرية. بضع علاقات تكونت أثناء السجن. لم أبال بوحدتي. كنت أستمتع بها. أختي الكبرى خصصت لي مصروفاً صغيراً ثابتاً. كذلك أخي المقيم في البيت نفسه في الإسكندرية. وأحياناً بعض النقود من أخوالي. كانت النقود التي أحصل عليها تكفي للسينما والجلوس على مقهى على البحر (احتساء زجاجة بيرة تنفيذاً لوعد قطعته لنفسي وأنا مضرب عن الطعام في سجن الحضرة بالإسكندرية أثناء المحاكمة). خلال كل هذه الأوقات أبحث عن امرأة. بعد

التجربة التي قمت بها مع إسكندراني أعرفه من السجن لإحضار مومس بعد خروجنا ببضعة أيام. كنت مرعوباً من المرض السري الذي يمكن أن ألتقطه منها بعد تعذر شراء عازل لذا في كل مرة كنت أحاول الاقتراب منها أفقد «صلابتي» حتى ملّت هي وقررت الخروج مع مطالبتها بمستحقاتها كاملة بما فيها البقشيش لأني «هريتها» على حد قولها. كنا نتجول أحياناً أنا وصديقي الإسكندراني بسيارته الأوستن السوداء القديمة نحاول أن نعلّق نسوان بلدي من الأنفوشي أو كوم الدكة بعد أن اكتشفنا تطابق أذواقنا. أفلحنا مرة، التقطنا امرأتين - في وقت واحد - تسيران سوياً على الكورنيش ساعة المغربية في المنطقة ما بين محطة الرمل وميدان المنشية. امرأتان بلدي بالملاية اللف. عارمتا الجسد وسيمتان. هما اللاتي التقطتانا إذ ابتسمتا لنا ونحن في السيارة عند إشارة المرور. وما إن تشجعنا وفتحنا الباب حتى انزلقتا إلى الداخل. انطلقنا بهما بعيداً حتى المنتزه. ضحكنا أربعتنا كثيراً على خيبتنا لعدم وجود شقة نأخذهما إليها. لكننا حاولنا أربعتنا أن نتجاوز هذا النقص وأن نستفيد من السيارة. وهكذا يختلي اثنان بالداخل بينما يقف الاثنان الآخران «حراسة» من المفاجآت غير المتوقعة. هكذا امتزج الجنس بالضحك. بالمغامرة.. بالتوتر. اتفقنا على موعد بعد بضعة أيام. كنت الآن أستطيع استغلال الشقة في الصباحيات. أصطحب أمي حسب طلبها إلى بيت أخوالي فقد انهار ظهرها وأصابها رعب من الشارع المليء بأصوات السيارات التي لا تستطيع تبينها. كنت أتفق معها على الموعد الذي تريد العودة فيه لأرجعها إلى البيت. أخي الأكبر يذهب

إلى طنطا يومياً حيث يعمل في المدرسة الثانوية هناك. حتى أختي الكبرى المتزوجة والتي تعيش فوقنا تذهب في الصباح هي وزوجها وأولادها إلى أعمالهم ومدارسهم. أختي الصغرى تعيش بعيداً مع زوجها. بوابنا لا تجده أبداً على البوابة. مثل معظم البوابين في الإسكندرية يسمسر في الشقق المفروشة. في اليوم الموعود ذهبت إلى الموعد المحدد لأحضر أربعتنا إلى الشقة لكني لم أجد صديقي. انتظرناه ولم يأت. اعتذرت المرأة التي اختارته منذ البداية. ذهبت أنا والأخرى إلى منزلي. ومع أني كنت أحس بالقلق خوفاً من الطوارىء. إلا أنها كانت تتصرف ببساطة وتماسك. حكيت لها عن ظروفي. قالت لي القليل عن نفسها. متزوجة ولها أولاد. رفضت أن تقول أكثر من ذلك. امرأة تبادلني الرغبة نفسها، تقدم تفاصيل جسدها بكرم. لا تتعجل ولا تستعجل. هي بحكمتها البسيطة تفهم. فتربت على ظهري وتهدهدني. بعد ذلك ذهبت إلى المطبخ تعد لنا قهوة، وقامت بترتيب الفراش وتهوية الغرفة ومسح الحمام الذي تبلل منا.

كانت تأتي إليّ بعد ذلك في مواعيد منتظمة. ورغم بساطة ثيابها ورائحة الفقر التي لا أخطئها رفضت عروضي بأن أعطيها بعض النقود من مصروفي المحدود. سألتها مرة لماذا تأتي إليّ. ابتسمت وقالت: من باب الزكاة.

أبدأ في الاستقرار تدريجياً في القاهرة حيث إمكانيات العمل متوفرة أكثر من الإسكندرية وحيث الأصدقاء والمعارف. عملت بشكل مؤقت في الإسكندرية كمدرس في مدرسة ابتدائية خاصة (قبطية أهلية) المرتب هزيل لكنه يسد الحاجات

الأساسية ويغني عن المصروف الذي أتسلمه من الأهل. كنت أريد أيضاً أن أستقل بحياتي بعيداً عن دائرة الأسرة. أن أبتعد عنهم بقدر الإمكان. لقد تقبلوا دخولي المعتقل وخروجي منه بطريقتهم الخاصة أحياناً يقولون لمن يسألهم عن «اختفائي المفاجىء» إني في المستشفى أو إني مسافر. تحرجّوا لفترة طويلة من موقفي السياسي ونتائجه. أحسوا بالخجل من أن أحد أفراد الأسرة، في السجن ـ مهما كان السبب ـ أحسست أنا بالغضب فها هم يستعرّون مني. أنا الذي أعارض الحكومة وواقف في وشها (هذا على الأقل ما كانت تحس به الحكومة). لذلك قررت أن أنفصل بحياتي عنهم. بدأت بمحاولة الاستقلال المالي لأثبت لهم أني لست بذلك الخائب.

تعرفت على عواطف في المدرسة. هي أيضاً مدرّسة. أحسست بها مرحبة للدخول في علاقة. لعلها في العشرين. سمينة بعض الشيء. عيناها قبطيتان صغيرتان. تعلّق دائماً ـ حتى حينما تخلع ثيابها وتتهيىء للجنس ـ صليباً ذهبياً صغيراً فوق صدرها الممتلىء.

أحضرتها إلى الشقة في الموعد الثاني. يوم أحد، وأمي في الكنيسة التي لن تنتهي قبل الساعة الواحدة حيث سأرجعها أنا بنفسي للبيت. أخي الآخر في طنطا والجو أمان. الصليب على الصدر العاري. كانت عذراء وقد وعدتها أن أحافظ على عذريتها. احترمت وعدي. لعل سذاجتها وبراءتها ووثوقها في وعود يطلقها أغراب. كل هذا جعلني أعاملها بعطف يقرب من الحب. كنت أشفق عليها. أحاول أن أكون ظريفاً معها. أن أحترم المواعيد. لكنها بدأت بطريقتها البسيطة تحاول أن

تسحبني تجاهها أكثر. سألتني لماذا لا أذهب إلى الكنيسة معها في مساء الأحد. قلت لها أنا بروتستنتي. قالت إذاً لماذا لا أذهب إلى كنيسة البروتستنت. لماذا لا أبحث عن عمل أحسن في الإسكندرية ـ بالطبع ـ وأنا أحمل شهادة جامعية. قلت لها على السجن وبدأت هي تلمّح إلى الاستقرار. هنا أحسست بأني يجب أن أنسحب بسرعة قبل أن أتزوج عواطف ونخلّف صبيان وبنات. ماذا عن الأحلام السرية والعلنية؟ السفر واكتشاف العالم. الكتابة والمغامرات. كان الهرب هو السبيل الوحيد. إنه بالطبع ذلك الهرب الجبان. بدون سابق إنذار أو حتى فرصة للوداع (غالباً حتى لا أضعف). أيامها كان شعاري عاوزين نفك.

في القاهرة استأجرت غرفة في شقة مفروشة بالزمالك (أيامها كانت الشقق المفروشة بالزمالك رخيصة وقد اخترت الزمالك لسهولة التعامل مع بوابيها فيما يخص النساء الزائرات) ووجدت عملاً كمترجم في وكالة نوفستي السوفييتية (من الإنجليزية إلى العربية) المرتب يكفي ويزيد. دائرة الأصدقاء والمعارف تتسع. وأنا أعيد علاقاتي التي قطعها السجن بشلة السودانيين في القاهرة. أنا الآن لأول مرة في حياتي حر. من الأسرة. من الفقر والحاجة. من السياسة فقد حلّ الحزب نفسه. من عواطف التي تريد أن تكلبشني.

من العمل في الوكالة تعرفت على سيفتلانا الروسية. اسمها يعني بالعربية: نور. هكذا كنت أكتب اسمها في مذكراتي غير المنتظمة التي بدأت كتابتها في بداية علاقتي بها (لعلي كنت

ما أزال على خوفي التقليدي من أن تقع المذكرات في يد غادرة).

كانت سيفتلانا هي التي أخذتني إلى أول حفلة لي لسماع أم كلثوم فقد كنت أعتبر أيامها أن سماع أم كلثوم مضيعة للوقت لا تليق بالثوار من أمثالي. تعرفت عليها حينما أتت إلى مكتب الوكالة وطلب مني مديره الروسي أن أساعدها في برنامجها لدراسة اللغة العامية حيث كانت تدرس الفصحى في معهد الاستشراق التابع لجامعة موسكو. رحبتُ بحماس فقد كنت ما أزال حديث العهد بالقاهرة بعد الإفراج عني وليس لي صديقات حتى صداقة (بريئة): راعني جمالها الحزين الذي يثير في الواحد تذكر شخصيات تشيخوف. كان أول ما طلبته مني هل يمكن أن أدبر بطاقات للحفلة الشهرية للست. كانت تريد أن تحضر زميلة معها وأفهمتني أن التعليمات تنص على أن لا تخرج البنت الروسية بمفردها ليلاً مع المصريين. استطعت الحصول على البطاقات المطلوبة وذهبنا إلى دار سينما قصر النيل حيث كانت الحفلة. وقد أدهشني الجو المثير الذي يخلقه الجمهور في الصالة قبل الغناء وأثناءه. هاته النسوة الأنيقات معظمهن في منتصف العمر. أتين متزينات كأنهن ذاهبات إلى موعدهن الغرامي الأول. الرجال في حللهم الغالية الخاصة بالمناسبات. جاءت نور مع صديقتها التي لم أرها من قبل. إنها من كازاخستان. ذلك الدم التتري. هادئة مبتسمة. جلست بينهما وهنّ يشاهدنا ذلك النوع الخاص من الجمهور المصري في واحدة من أحسن حالاته الخاصة جداً. متسامح مضياف ومرح. بعد الوصلة الأولى اقترحت عليهما أن نذهب إلى

جروبي المجاور ونشرب بيرة (أيامها كانت تباع في جروبي قبل أن يشتريه من الخواجه مالكه الأصلي، «إسلاميون» أتوا بنقودهم من السعودية ومنعوا شرب الخمور في جروبي) لكن التترية فضلت أن تظل مكانها تحتسي الكوكاكولا التي كانت مغرمة بها (في تلك الأيام كانت بضاعة استهلاكية رأسمالية في اتحاد سوفييتي برجنيف). أحضرناها إليها من البوفيه. في جروبي طلبت نور كونياك وحذوت أنا حذوها. الجو بيننا اتخذ طابعاً حميماً رقيقاً. شربنا كأسين آخرين وهرعنا إلى الحفلة. في الطريق أمسكت بيدها التي أحسست أنها قوية وصلبة وخشنة بعض الشيء مثل أيدي الرجال. جلسنا في مقاعدنا وأنا ما زلت ممسكاً بيدها. لاحظت التتارية ذلك وقالت لها شيئاً ضاحكة بالروسية جعل وجه نور يتضرج وفي الوصلة الثانية تحدثت أصابعنا وعضلات أيدينا وأظافرنا. لغة غزلة مثيرة صاخبة تمارس كل ما لا يستطيعه الجسد المقيد في الثياب. قلت بأصابعي أني أريدها. وعدتني بأصابع يديها التي أخذت كف يدي وعصرت بها صدرها وحفرت بأظافرها علامات في رسغي وباطن فخذي. كنا نتحدث ونتعانق في كل المساحات المتاحة لنا في جسدينا وآهات صوت أم كلثوم تلهبنا وزئير السامعات والسامعين وتنهدات القلوب المحروقة الحرى تتناغم متداخلة ما بين أظافرنا وجلدنا.

كان موعدي الثاني معها في صباح اليوم الأول من السنة الجديدة فكل منا سيقضي ليلة رأس السنة بمفرده. هي مع جماعتها ـ حسب الأصول الروسية في مصر حتى لا يختلطوا بنا ـ وأنا مع أصدقائي مضطراً.

في الصباح أخذت أتحرك قلقاً في الغرفة الصغيرة تنتابني الشكوك. هل تستدل على العنوان؟ هل تأتي في الموعد بعد سكرة الليلة الفائتة؟ هل ستأتي أصلاً؟ كنت أعرف المخاطر والمحاذير ولكننا احتمينا ـ أو هي على الأقل ـ بالتصريح الذي أخذناه من مدير الوكالة بمساعدتي لها في دروسها. وقد عرفت منها فيما بعد أنها كانت واعية بالتعليمات التي وضعها المسؤولون الروس في القاهرة من تضييق العلاقات بين الروسيات والمصريين لكنها أتت في موعدها. كنت أراقب الطريق خلسة من خلف الشيش الموارب للنافذة التي تقع في الطابق الأرضي. ترتدي بلوزة بيضاء مطرزة بالذهبي، وجيب أسود صارم، وحذاءها الأسود بكعبه العالي يشد إلى الخلف نصف دائرة تامة من الردفان المتناغمان في إيقاعهما النصف دائري الصاعد النازل في الوقت نفسه مع حركة الساقين الصارمتين في خطوهما بدون دلع مصري. حركتهما في تناسق تام مع اهتزاز الثديين يبرزهما إلى الأمام الخصر الصغير النحيل. غص حلقي وأنا أراقبها من مكمني. أحسست بذلك الألم النادر في خاصرتي.. يد تهصر حقوي. كانت قد أحضرت كتبها معها وجلسنا في البداية نتحدث بالإنجليزية التي تجيدها عن حفلة الأمس. قالت إنها استمتعت بمحاولة الرجال المهمين مثل مراسل البرافدا والملحق الثقافي في محاولتهما سحبها إلى الفراش. صدمت أنا بعض الشيء من صراحتها التي اعتبرتها ـ آنذاك ـ استفزازية. لاحظت هي ذلك فواصلت إغاظتي متحدثة عن أولئك الذين التصقوا بها في الأتوبيس وعن البنت الأميركية في بيت الطالبات حيث تقيم

والتي تقبل نور في فمها وتتحسس صدرها من تحت قميص النوم. حاولت أنا التعامل مع هذه المعلومات باعتباري راجل داير، ولكنها أعطتني إحساساً غريباً بالضآلة. غيرت أنا الموضوع إلى برامج دراستها وكيفية مساعدتي لها. قرأت هي فقرات من الصحيفة العربية التي كانت معها. صححت لها ما استطعت. كنت شارد الذهن. فقد خططت أن أغويها بمعسول القول ساحباً إياها إلى الفراش برقة رومانسية إذ أعطتني من قبل الإحساس بأنها رومانسية خاصة أثناء فقرات الحب والحنان في أغنية أم كلثوم في الحفلة حيث كانت تطلب مني أن أترجمها لها واستعادتها أكثر من مرة. طلبت شاياً فقمت إلى المطبخ (المشترك) منتهزاً الفرصة للتماسك واستعادة توازني مع هذه البنت الجديدة. حينما رجعت بالشاي وجدتها تتمشى في الغرفة تتأمل الكتب القليلة والأشياء المتناثرة. استجمعت شجاعتي حسب الخطة الجديدة في المطبخ واحتضنتها من الخلف. تمسحت هي بي كالقط. ثم انفلتت مني وصبت الشاي لنفسها تحسو منه جرعات قصيرة متلاحقة وهي ما زالت واقفة. أخذت أفكر بيأس: إن لم أحصل عليها اليوم فلن أستطيع الإمساك بها بعد ذلك وحولها كل أولئك الرجال المهمين وما أنا سوى مجرد واحد خارج من السجن أسكن في غرفة مفروشة. أخذت كوب الشاي من يدها واحتضنتها أريد تقبيلها. أشاحت بوجهها لكنني أحسست بالثديين ينغرزان في ضلوعي ورائحة جسدها الفائر بالصحة تجعلني ألهث. استكانت لحظات ثم فلفصت مني وتركتني لتجلس على الأريكة وقالت: بعد ما حكيت لك عن الليلة الماضية تريد الآن

أن تأخذ نصيبك أنت أيضاً. هالني اكتشافها لميكانيزم تفكيري ومدى صدق حدسها. ألحفت أنا في الإنكار لكنها نظرت إليّ ساخرة قائلة كيف إذاً تفسر تغير موقفك المفاجىء. لأنك مثل كل الرجال تنظر إليّ وتتعامل معي من خلال رغبتك في جسدي. قالت إنها تحب رجلاً في موسكو (أضافت بأنه متزوج) وأنه رجل بكل معنى الكلمة. وجبنت أنا أن أسأل يعني إيه راجل بمعنى الكلمة. اكتفيت بالصمت. بعد صمت قصير قالت لعلك تريد أن تعرف ماذا نفعل حينما نلتقي في خلوة؟ قلت لها إني غير مهتم (لم يكن هذا صحيحاً) لكنها ضحكت ساخرة. فاجأتني بكل هذه التحولات. بالطبع لم أكن أعرفها جيداً في هذه الفترة القصيرة وها هي الآن تهد كل ما بنيته حولها من رومانسية المحروم. أحسست أني أكرهها إذ كشفتني بسرعة وحطمت ثقتي الهشة بنفسي والجو الرومانسي الحالم الذي كنت أطمح أن أخلقه بيننا. وضعت يدها على خدي لعلها حركة مواساة ساخرة فأزحتها فوضعتها ثانية ضاحكة. فأزحتها بعنف هذه المرة فاستلقت هي على الأريكة مقهقهة بسخرية قائلة أنت مثل الطفل الصغير تحزن حينما تفشل في الحصول على ما تريد. لمتها في ذراعيّ وأنا أتضاحك قائلاً سأريك الآن إذا كنت سأحصل على ما أريد أم لا. حملتها وألقيت بها على الفراش وبركت فوقها لست واثقاً ما أريد أن أفعل بها. قالت بصوت حاسم: والآن احملني مرة أخرى إلى الأريكة التي أريد أن أجلس عليها براحتي وكفاية هذه اللعبة الصبيانية السخيفة التي لم أعد أستمتع بها. لعل الغريزة البدائية الكامنة في أعماق ذاكرة الجسد المنسية

استيقظت لترشد الجسد إلى دروبه القديمة. فككت بلوزتها بلهوجة. حاولت أن أسحب الجيبة الضيقة إلى أسفل فلم أفلح. تزايد حنقي وارتباكي إذ أخذت الآن في مقاومتي بعنف. لم أشعر أني أصفعها إلاّ بعد أن لاحظت أنها كفت تماماً عن مقاومتي وأنها تنظر إليّ بتلك النظْرات التي تقول وماذا بعد؟ نجحت أن أشد الجيبة إلى أسفل. تقوس جسدها كالوتر واستدارت تدفن وجهها وصدرها في الوسادة. جسدها أعدّ نفسه لاستقبالي.

رجعت بعد ذلك إلى مكاني السابق على الأريكة وإحساس بالخزي يسيطر عليّ. أخذت أحتسي الشاي الذي برد الآن وقد توقف عقلي عن التفكير. لعلي غفوت فقد سمعت صوتها يأتيني من الفراش حيث نسيتها هناك. الغرفة أصبحت مظلمة وباردة. قالت إنها بردانة. أشعلت المدفأة الكهربائية الصغيرة التي ألقت على الغرفة ضوءاً أرجوانياً باهتاً. قامت وجلست بجواري على الأريكة بعد أن هندمت نفسها. كنت أريدها الآن أن تمشي ولا تعود أبداً. قالت بصوت هادىء ألا يوجد عندك غير الشاي. تذكرت نصف زجاجة من البراندي المصري الرخيص ملقاة تحت السرير أحضرتها وقدمتها لها بدون أن أكلّف نفسي الذهاب إلى المطبخ لأحضر الكوبايات. شربت جرعة حارقة مباشرة من الزجاجة وناولتني إياها. ظللنا نتبادل الزجاجة في صمت. قالت: ألا تحس بالخجل مما فعلته معي؟ بعناد (غريب عليّ) أجبت بالنفي. قالت إذاً لن تعتذر. قلت: لا. قالت إذاً هذه هي النهاية بيننا

وأنا التي كنت أظن سأتخذك الصديق لي في مصر. قلت بنفس العناد مش مهم.

فكرت: إذا كانت هذه هي النهاية فلآخذ منها أقصى ما أستطيع. ملت عليها وحللت بلوزتها ونضوتها عنها وكذلك حمالة الصدر. أفكر بسرعة إذا ما قاومتني لعلي سأضربها أو هي التي ستضربني هذه المرة. مش مهم كنا نلهث ورائحة البراندي الرخيص ممتزجة بريقنا الذي تبادلناه بدلاً من البراندي. كل ذلك تمّ في صمت. مالت عليّ تفك قميصي وحزام بنطالي. (كتبت في المذكرات: رغم خوفي المقيم من الرفض والفشل فقد استطعت للمرة الأولى في حياتي أن أتعامل مع امرأة بطريقة ليس فيها استجداء أو مذلة. يا ترى هل أستطيع مواصلة ذلك. يا ريت!). حينما جلسنا ندخن كانت تتحدث بيسر. حكت قليلاً عن رحلة تريد أن تقوم بها إلى الإسكندرية مع الطلاب الروس. قالت ضاحكة إن صديقتها التترية تحسدها لأنها وجدت مصرياً تستطيع أن تتمرن معه بالعامية. خلقت هي من جديد جو من الألفة الذي ضيّعته أنا في الساعة الماضية. طلبت مني أن أرتدي ثيابي ونخرج لنجلس في مكان على النيل لنشرب بعض البراندي الحقيقي. ركعت على الأرض تلبسني حذائي وتربطه لي. كنت مأخوذاً من تصرفاتها الفجائية. حينما أوصلتها بعد ذلك إلى بيت الطالبات التصقت بي في الظلمة الخفيفة وقالت جادة. عارف لو كنت اعتذرت لي كنت تركتك نهائياً.

تنتظم الحياة حول نور. أنظم حركتي اليومية طبقاً لرغباتها وللوقت الذي تتيحه لي. أحياناً تجعلني أنتظر بالساعات بجوار

التليفون. أحس أنها تأخذ مرة أخرى القيادة في العلاقة بيننا لعلها أدركت بطريقتها الخاصة كمية اللخبطة التي أعيش فيها. ولعلها كانت تدرك أيضاً أن احتياجها إليّ وإلى جسدي وإلى صحبتي يختلف عن احتياجي إلى ما تقدمه إليّ بل لعلها اكتشفت أني لست ذلك الخشن الذي كنته أول مرة. قالت لي في لقائنا اللاحق لذلك اليوم في غرفة الزمالك قالت خذني كما أخذتني المرة الأولى لكني في هذه المرة كنت أفيض حباً وحناناً ـ كما يقولون ـ فأسقط في يدي. وبالطبع لم يفلح تمثيل دور الخشونة.

وهكذا بعد سنوات الحرمان في السجن والخبرة البسيطة ألتقي بنور التي لها مفهومها الخاص عن «الراجل بمعنى الكلمة» وسنوات من الخبرة والثقافة والحضارة المختلفة تفرّق بيننا لكني أيامها اقتنعت أن العيب فيّ أنا. في طريقتي المرتبكة في التعامل معها. وإنه من المحتمل أن لا أكون رجلاً بمعنى الكلمة حسب مفهوم كل البنات اللاتي أسمهن نور في هذا العالم.

لكن نور من ناحية أخرى ساعدتني على اكتشاف الجسد. جسدي وجسدها. كانت هي أول أنثى تتعامل مع جسدي ليس باعتباره فقط ماكينة لإفراز اللذة. لكنه الجزء الآخر مني. إن تربيتي الكاليفانية المسيحية تجعل من الجسد الأداة الوحيدة المفسدة لعلاقة الإنسان بالرب. مجرد العلاقة الجنسية ـ حتى بين الأزواج ـ علاقة تحكمها الخطيئة. لأننا كما تقول الآية: «قد تمت ولادتنا بالخطيئة» كذلك كنت في تلك المرحلة من العمر التي يتعامل فيها الذكور مع الإناث بمزيج مرتبك من

التقديس والإحساس بالخطيئة. أما هي فقد كانت في مستوى آخر، لم أكتشف كنهه وأسراره إلا بعد سنوات طويلة.

وكنت (طبقاً للتقاليد الشرقية المسيحية والإسلامية المتوارثة) أهرع إلى الحمام لكي أغتسل بعد الفعل الجنسي (باعتبار أن الجنس نجاسة) وبعدها أحس بذلك الخواء الذي كان يصاحبني منذ اكتشافي للعادة السرية وممارستي لها. لكن نور بحدسها الأنثوي المرهف سألتني مندهشة لماذا أهرع هكذا إلى الحمام ولما داريت ارتباكي بكلمات غير مفهومة، قامت بإعطائي الدرس الأول في تفهم ما نقوم به وعدم الشعور بوساخته. تقول لي: أنام وبذرة الرجل داخلي. أستيقظ ورائحة الجنس تفوح من جسدي ومن الفراش.. هذا ما أحبه لأنه يجعلني أحس بجسدي بعد الجنس. بالإحساس نفسه الذي كنت أحسه حينما يكون الرجل في داخلي.

تقف عارية فوق الفراش تتأمل جسدها في المرآة (حيث قامت هي بتعليقها هنا بزاوية خاصة وذلك حسب تعبيرها الساخر المرح لكي لا أهرب مما أقوم بفعله) تقوم ببعض التمرينات الرياضية. تمسد ثدييها. تتحسس مؤخرتها. تمارس هذه الطقوس ببساطة وأحياناً وهي سارحة. تحب جسدها وتنظفه وتغذيه وتدلكه وتقوي عضلاته وتمارس بعض تمارين اليوجا التي تجعلها تتحكم في عضلات فتحاتها. تهدهد جسدها وتطلب منه أن يمتعها بعد أن أعطته كل الاهتمام الذي نعطيه لنبات نادر لا يمكن تعويضه. كذلك تطلب من شريكها في الفراش أن يعطيها كل ما تطلب لأنها تعطي بدون حدود

آمرة جسدها أن ينصاع. أن يخضع فهي تقدم إلى شريك فراشها جسدها جائزة مليئة بالمفاجآت.

وهي تجمع الأضداد. تحب أن تؤخذ. أن تمارس كل طقوس الاستسلام التدريجي. لا تحب أن تخلع ثيابها بنفسها. تقول إنها تحب يد الرجل وأظافره تبحث عن مفاتيح ثيابها لتنضوها عنها. أيضاً تحب أن تمارس مزاجها في إعطاء التعليمات خلال الفعل وبالوصف التفصيلي مثل طقوس التلقين وارتباط الفعل بالكلمات. مرة حينما أبديت اعتراضي، قالت جادة لكني أريدك أن تدرك ما تقوم به ليس من خلال الفعل فقط لكن بوساطة الكلمات أيضاً. أضافت إن هذا ما يميزنا عن الحيوانات. كنت أعتقد أن الجنس هو الإنجاز القيادي السيادي للرجل. أليس هو الذي يقوم بالصيد أليس هو الذي يدبر المكان خاصة في مصر ويهيىء الجو؟ أليس هو الذي يتحمل مسؤولية سلامة المرأة ومنع الحمل.

لكنها أثبتت خطل كل هذا. كان هذا ما أعطتنيه من خلال الألم والسخط وفقد الثقة الهشة والبدأ في التنازل عن افتراض أن كل النساء يتساوين في الفراش أو في الظلام كما يقول أدب الذكور. والتجربة المريرة التي خرجت بها ولكني لم أستوعبها ساعتها بل تنامت ببطء في تربة جديدة هي أن الجنس في أكثر صوره وضوحاً هو أكثر ما يخافه الذكور الذين أصابتهم التجارب الجنسية الخائبة بعنة لا فكاك منها. الجنس الذي يهدف في الأساس إلى المتعة وهذا ما تحاربه مثلاً الكنيسة الكاثوليكية التي ترى وظيفة واحدة للجنس مثل الحيوانات غير الراقية وبعض الديدان.

ويكتشف الواحد أن الوصول إلى مرحلة الرواء الجسدي وبالتالي الروحي لا تتم عبر الدخول إلى كهف واحد. إذ تتحول العلاقة الجسدية من حالة افتراس متبادلة إلى اكتشاف متبادل للذاكرة المنسية للجسد ومفاتيحها السرية. وأنه ليس ثمة ذلك الكهف الأبله الذي كانت تفتحه جملة علي بابا السحرية الوحيدة: «افتح يا سمسم» بل العديد من الكهوف (المليئة بالكنوز) حتى للشخص الواحد أنثى كان أم ذكراً وعلى الواحد أن يكتشف المفاتيح وحده في الظلام لأنه ما من أحد على استعداد للأخذ بيد الآخر ووضع إصبعه على مفاتيح الخارطة السرية وبالطبع هذا الكلام موجه لما تبقى من بني الإنسان الذين ما زال بهم رمق.

(جزء من المذكرات)

عرفت وأنا أرتدي ملابسي أن هذه المرة هي الأخيرة. كنا قد وصلنا إلى أقصى درجات توترنا في العلاقة. كنت قد بدأت أتمرد بالتدريج على قوانينها وعلى عالمها الذي أرعبني الدخول إليه وعلى إحساسي بأن هذا هو ما كنت أبحث عنه. لذا أخذت أفعل كل ما يغيظها. أنالها وفي داخلي ذلك الإحساس بعدم المشاركة. أتعمد أن أنتقم منها في لحظات ضعفها الجسدي بأن أتركها لوحدها ولم تصل إلى منتهاها بعد. تلك اللحظات التي تهبط فيها من عليائها متوسلة وجسدها كله يرتعش كورقة شجر تطلب قطرة من المطر المنهمر بالقرب منها ولا يرويها. أطعنها في كعب أخيلها الذي اكتشفته حينما وثقت بي وأسلمتني أسلحتها، واستكانت على

الصدر تحكي بالساعات عن الطفولة والمراهقة والأحلام والفانتازيا والإحباطات والهزائم. كنت أسجل كل هذا في عقلي الذي لم ينعس على صدرها أبداً مبرراً ذلك بالقول المأثور الحب خدعة وإن المعركة أبدية، انه لا بد من منتصر وبالتالي من مهزوم. وبالطبع كنت أريد أن أكون منتصرها الأول أنا المليء بالهزائم. نسيت في غمرة حماستي للانتصار (ورغبتي الدفينة في التدمير) لحظاتها الحلوة الكثيرة مرحها اللذيذ وهي تفتح النافذة بعد أن نطفيء المصباح وتقف عارية تتأمل السابلة وتعلق عليهم وتعلمني أن أستمتع باللذة المختلفة في النافذة المظلمة والناس على بعد بضعة أمتار. أو طقوس التلقين في العتمة الخفيفة بالقرب من بيت الطالبات ونحن نسترجع أسماء وأوصاف أعضائنا. لعلها أيضاً اكتشفت بحدسها الأنثوي البالغ الرهافة ما يعتمل داخلي. لم تحاول إيقافه أو حتى مناقشته بل تركته ينمو تدفعه بلطف لكن بعناد إلى نهايته المحتومة. لعلها أيضاً كانت تريد أن تلملم نفسها التي أطلقتها انطلاقة عصافير الربيع الحمقاء. هذه المرة كنت مجهداً مشتت العقل وقدمت عرضاً قصيراً مبتسراً أغضب جسدها الطماع. ألقت هي بالوسائد على الأرض ساخطة وانسحبت أنا إلى المقعد أجلس عليه مستغرقاً في التدخين أبحث عن كلمات جارحة أقذفها بها. لعلها أحست أني لن آتي إليها الآن لألعب معها. أحادثها ونشترك في تدخين سيجارة واحدة كما كنا نفعل. أحسست أنا بغضب بالغ عليها لعدم تذكرها «النجاحات السابقة» (لم أكن قد اكتشفت بعد أنواع الخداع الذي يلعب به الجسد على ذاكرته) لعلها كانت تريد عركة

صغيرة ترضي توترها وتخمده لكني لم أكن في مزاج لكي أبذل أي جهد ولو بسيط للاقتراب منها. أعتقد أنها تمتلك ذلك الحدس الحيواني الراقي بقراءة الأفكار، إذ قامت صامتة وارتدت ثيابها بهدوء وخرجنا في صمت نبحث عن تاكسي (هذا بدون أن أسألها عن ماذا تريد أن تفعل والوقت ما زال مبكراً بعد). لم تعلق هي. جلسنا في صمت في التاكسي وحينما وصلنا إلى بيت الطالبات نزلنا في صمت أيضاً. وقفت هي مترددة.. هذه اللحظات أمام البيت كنا نمارسها بطقوس خاصة نلتصق ببعض في الظلام وإحساس ممتع بالخطر يلفنا. نقوم بكل الحماقات اللطيفة من تقبيل وتلامس. نهمس لبعضنا بجسدينا «ونناديِ» أعضاءنا ونمارس طقسنا التلقيني. اليوم تشاغلت بإشعال سيجارة. هي ما تزال هادئة. ساكنة ومنتظرة. قلت لها سأتصل بك قريباً بالتليفون. لم تكن هذه عادتنا أيضاً لصعوبة التعامل مع التليفون في بيت الطالبات كنا نفضل تحديد مواعيدنا مسبقاً أو تقوم هي بالاتصال التليفوني. نظرت هي إليّ مندهشة. لم تعلق. استدارت ودخلت إلى البيت. اكتشفت بعد وقت قليل في المساء نفسه أني ارتكبت خطأ جسيماً (رعبي من فقدان الجسد الذي يخرجني من الشرنقة). حاولت أن أتصل بها بالتليفون مباشرة لكني فشلت. حاولت مرة أخرى في اليوم التالي مبكراً. كانت عكرة المزاج بينة الغضب. قالت إنها تفضل أن لا تلتقي بي. انهارت سدود كبريائي الهشة أمام خذلان جارف وندم حارق.

ورغم أني كنت أعرف أن هذا هو ما سيحدث بالفعل منذ المرة الأخيرة وخططت له. أحسست بالفزع لانتهاء العلاقة

بهذا الشكل المبتسر. أخذت أحوم حول بيت الطالبات مقتنعاً بأنه إذا ما التقينا وجهاً لوجه فإنه من الممكن عندئذٍ إصلاح ما فسد. رأيتها ذات مساء بعد عدة ليالٍ من الترقب ورصد البيت تهبط من سيارة هي وصديقتها. عرفت من كان معهما في السيارة. اثنين من الصحفيين الروس. أحسست ببعض الراحة. تسللت خلفهما إلى باب البيت ولفت نظرها. انسحبت صديقتها بلباقة. وافقت هي مترددة أن تلتقي بي لكنها اشترطت أن يكون ذلك في جروبي مصرة على فكرة عدم الذهاب إلى الغرفة. وافقت أنا فرحاً. أتت في الموعد شاحبة وجادة. قلت لها إني أريد أن أصلح ما أفسدته. أجابت لم يعد هناك ضرورة أو حتى الوقت لهذا. إذ إنها ستسافر خلال أيام عائدة إلى موسكو. ورغم صحة المعلومات التي قالتها إلاّ انني فوجئت بأنها فعلاً راجعة مع أني كنت أعرف هذا طوال الوقت. اكتشافي من جديد لقرب سفرها أزعجني. قالت جادة أيضاً إنها مش زعلانة (استخدمت التعبير المصري) وسوف تكتب لي من موسكو. لم تعطني عنوانها الذي طلبته. قالت إنها خائفة. افترقنا كأصدقاء لكنها أصرّت على عدم لقائنا مرة أخرى. وقد رضيت مرغماً إذ كنت أريدها مرة واحدة وأخيرة قبيل سفرها لكي «أخلص» منها وأنتزعها من لحمي أو هكذا تخيلت لذلك لم أحس بالراحة ولم أرها بعدها (إلاّ في موسكو بعد سنوات طويلة) وحينما أرسلت لي خطاباً واحداً قصيراً عادياً بعد حوالى شهر من سفرها (رفضت هي أيضاً أن أودعها في المطار خوفاً من جماعتها الذين معها) وكان الخطاب أيضاً بدون ذكر عنوانها.

بعد سنوات كنت في موسكو في زيارة قصيرة وكانت تعمل في الإذاعة الموجهة بالعربية كما عرفت من صديق مشترك (أعطاني رقم تليفونها) اتصلت بها. وبعد استيعابها للمفاجأة وافقت ـ غير مرحبة ـ أن تلتقي بي أمام مسرح البولشوي. لم تتغير كثيراً. ازداد وزنها بعض الشيء ـ ولاحظت بتشفي تهدل صدرها ـ عرفت منها أنها متزوجة وعندها طفلة. (لم تتزوج ذلك الرجل بمعنى الكلمة. سألتها) عزمتني على آيس كريم وقالت إن المحل يتمتع بشهرة خاصة. جلسنا نتحدث في التوافه. كانت تنبهني بين وقت وآخر أن أخفض صوتي أو أن أتحدث بالعربية بدلاً من الإنجليزية ـ قالت إنها خائفة ـ لم أكن أعرف من أي شيء خائفة وباخ الحديث بيننا. كلانا يريد إنهاء اللقاء بسرعة. هذا ما فعلناه بترحاب. كانت رغبتي السرية أن أحاول أن أنام معها «مرة أخيرة» لكنني لم أفصح وهي لم تعرض. رغبتي الأخرى كانت معرفة ماذا فعل الزمن بها روحاً وجسداً وقد ابتأست لما رأيته وأحسسته.

لم نلتق بعد ذلك أبداً.

وحينما تهف على مزاجي بين وقت وآخر أفكر فيها بقليل من الأسى لحالها ولحالي.

أذهب إلى الفجالة بحثاً عن بيتنا القديم. أتجول في المنطقة مندهشاً ففي العشرين عاماً الماضية منذ سياسة الرئيس أنور السادات لمحاربة الثقافة وتشجيع المستثمرين الطفوليين، تحولت الكتب إلى محلات قبحة لبيع الأدوات الصحية فقد كان حي الفجالة حي المكتبات والمقاهي والبارات اللطيفة منذ أيام اليهود والأجريج. بقية المكتبات امتلأت رفوفها بالكتب المدرسية

وبعضها تخصص في ما يسمى بالكتب الإسلامية ـ هكذا أسموها ـ أهرب إلى الظاهر إلى شارعنا القديم شارع «يوسف بك وهبي» أحببت الشارع وأحببت اسمه وتقبّلت الشقة التي انتقلنا إليها من غرفة العباسية على عربة كارو (مع متعلقاتنا القليلة) أسير في الشارع ببطء أبحث عن بيتنا القديم. ورغم انهيار الطلاء وانهيار الواجهة إلاّ أني وجدته. ركنت على مقهى يبرز من نصف دكان مظلم ويحتل الرصيف بكراسيّه الحديدية مزاحماً عربات الكارو وخيولها.

هذا هو المقهى الذي كانت ترسلني إليه «جارتنا الغانية».. بالتعبير المهذب لأحضر لها البيرة والبيبسي. ذلك الوقت الغابر قبل الهوس الديني حينما كانت البيرة والبوظة (وهو ويسكي العربجية) تقدم في مقاه الفجالة والظاهر قبل أن يعلن السادات أنه رئيس مسلم لدولة إسلامية ويفتح بذلك القمقم الذي خرج منه المارد الذي احتضنه ثم ما لبث أن قتله في حادث المنصة الشهير. أنظر إلى الداخل المظلم وأعرف دون أن أسأل. خلاص لا توجد بيرة بل بضعة مقاعد حديدية معوجة يجلس عليها بشر يسعلون ويبصقون على الأرض بين روث الخيل وبولها يشربون الشاي والمعسّل. المقهى كان اسمه ولا يزال مقهى العنبة. اللبيب يفهم. اسمه الآن العنبة الجديدة، كأن صاحبه كسب حياة جديدة كما يقول المسيحيون الذين يرتدون عن حياتهم القديمة الخاطئة ويقولون نحن الآن في الحياة الجديدة. أحتسي الشاي الأسود ببطء وأفكر هل دميانة العاقر زوجة التاكسجي البدين الهادىء الذي يحب أكل الكباب ليلاً... دميانة ما الذي حدث لها. عايشة؟ كانت

تسكن في الشقة المقابلة لنا. تفترش فتحة الباب منذ الصباح بعد أن ينزل زوجها. تضع أردافها النحيلة على المخدة التي تحطها على فتحة الباب وتمارس أعمالها المنزلية بل تضع سبرتاية الشاي بالقرب منها. تعمل عليها شايها وقهوتها. حاضرة الابتسامة ودودة تحاول أن تصاحب أمي النافرة وتتبادل أختي معها مجلتي الكواكب وحواء. ولا تقوم من الباب إلاّ قرب الظهر لتطبخ أو تنظف بيتها النظيف لكنها تترك الباب مفتوحاً. لا يغلق إلاّ بحضور الزوج الذي يأتي بانتظام ليأكل معها لقمة الغداء وينام القيلولة صيفاً وشتاء وينزل نظيفاً مغسولاً إلى التاكسي الذي يعمل عليه والمركون أمام باب البناية. تحروس قليلاً بين الباب ـ الموارب الآن فالدنيا ليل ـ والشقة، تتبادل حديثاً خافتاً مع أختي على بسطة السلم. تدخل بعد ذلك إلى شقتها وتضيء الضوء الأحمر الخافت في الصالة ومعها الراديو بالقرب منها تستمع إلى الحلقات فأيامها لم يكن التليفزيون قد اخترعوه لنا في مصر بعد.

في الطابق الثاني تحت طابقنا تعيش ليلى بمفردها مع امرأة عجوز تخدمها وتبيت معها. تقول ليلى عن نفسها إنها فنانة تعمل في المسرح والسيمه. لكن عرفت بعد ذلك أنها شرموطة على الضيق. أي أنها لا تسرح في الشوارع ولا تحضر زبائنها إلى البيت. أي نعم. فهي تعمل في ملهى ليلي لكن كجليسة للزبائن. ذات مرة وأنا أنزل السلم سمعتها تحاجج العجوز قائلة: إن ما وريته النجوم في عز الظهر ما أبآش أنا ليلى الشرموطة. هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها امرأة تصف نفسها بهذه

«السبة القبيحة» وتقولها من باب القسم. من هذه اللحظة ثار فضولي تجاهها.

اكتشفت أنه من الممكن إذا وقفت بزاوية معينة على السلم المظلم دائماً، فإني أستطيع أن أشاهد جزءاً من الصالة وجزءاً آخر صغيراً من غرفة النوم بالنظر من خلال شرّاعة الباب الزجاجية الرخيصة. أما إذا ما نظرت من شقوق زجاج باب غرفة النوم التي تفتح على السلم فإني أستطيع أن أرى السرير والتسريحة وجزءاً من مراية التسريحة. لبدت لها وراقبتها حتى عرفت مواعيدها (خلال رحلة الحياة اكتشفت أن الناس بشكل عام حتى أولئك الذين يعيشون على الهامش يحبون خلق روتينهم الخاص بهم. يبدو أن ذلك يساعدهم على البقاء) تستيقظ في العصاري عكرة المزاج ـ كما يظهر هذا من صوتها وشخطها في العجوز. تخرج حوالى التاسعة ليلاً. لا أعرف موعد عودتها إلى البيت.

أجلس على الدرج بعد الغروب. تحججت بالخروج بأني أريد أن أستعير كتاباً من نجيب الذي يسكن في شبرا. أرهف السمع لدبيب الأقدام على السلم المظلم ولتزييق باب شقتنا. أنا مستعد دوماً للهروب إلى السطح في حالة ما إذا كان الطالع من أسفل، أو الجري بسرعة إلى أسفل إذا ما كان القادم من شقتنا أو من عند دميانة. احتمالات ضعيفة.

إذاً أجلس مستمتعاً بسري وبما سأراه بعد قليل. فبعد قليل ستتمشى ليلى في غرفتها تراقب محتوياتها معلقة على الفوضى والوساخة ـ كما تسميها هي ـ ويأتي صوت العجوز محتجاً بضعف «والله دا أنا لسه النهاردة مطوله الشقة كلها. ربنا يعلم

وبعدين على أد قوتي». تنحط ليلى على الفراش وتقوم العجوز بتدليكها. تبدأ من قدميها وتصعد إلى ساقيها. فخذيها وردفيها. ليلى ترتدي في البيت عادة روب حمام على اللحم. ينحاش الروب إلى أعلى المؤخرة البالونية التي ترش عليها العجوز الآن بودرة تلك. تخبط العجوز بكفيها بقوة «أسمع من مكمني». تتأوه ليلى وتئن قائلة «براحة عليّا بشويش دا نتي غلاوية». تفشخ العجوز ضبها (لعلها تضحك متشفية ولكني لا أسمعها من موقعي) وتتوقف. ترفع ليلى جانب رأسها وتقول لها «بطلتي ليه». أسمع الآن ضحكة العجوز وصوتها الواضح المسرسع تقول لها «يا لبوة». تضحكان.

هذا هو عامي الأول في القاهرة. أستعد لامتحان الثانوية العامة. أدرس في مدرسة راغب مرجان بالفجالة. في التوجيهي. شعبة الرياضة.. لأدخل كلية الهندسة. أصاحب نجيب مساك إثناثيوس - كنت دائماً أناديه باسمه الثلاثي معابثاً. تعجبني موسيقاه. والده كان عامل تحويلة في السكة الحديد لكنه فقد ساعده الأيمن في حادث عمل. أحيل إلى التقاعد وركن في البيت. كنت أذهب إلى نجيب أحياناً لأذاكر بجد. والده يفتح الباب. يرتدي دائماً جلابية كستور مخططة وشعره محلوق على الزيرو بالموس. كُم الجلابية الفاضي مدسوس إلى الداخل. يسلّم بيده الشمال السليمة، أرتبك ولا أعرف كيف أسلّم عليه. يقودني إلى غرفة نجيب الذي يحتل غرفة كبيرة بمفرده تطل على شارع شيكولاني. نجيب هو الابن الوحيد على مجموعة بنات لم أعرف عددهن أبداً، رغم أنهن كن يقدمن الشاي والسندويشات لنا أثناء المذاكرة أو الادعاء بها

(رسبنا أنا ونجيب سنتين متتاليتين) التحقت بعد ذلك بمدرسة ليلية في شبرا ولم أعد أرى نجيب مساك إثنائيوس) نجيب هو الذي شجعني على التزويغ من المدرسة والذهاب إلى سينما شبرا بالاس التي كانت تعرض فيلمين منذ العاشرة صباحاً وثمن التذكرة في الصالة ثلاثة قروش. الأفلام كانت ممتازة. البؤساء.. والكونت دي مونت كريتسو وأفلام رعاة البقر. جاري كوبر وجلين فورد. بعد السينما نأكل كشري وبسبوسة. كنت أدبر هذه المصاريف من الفلوس التي أختصرها في شراء الخضار واللحم والفول للبيت. كانت عملية الشراء قد فرضت عليّ منذ البداية باعتباري الأصغر. تقبلتها متضرراً. لكنني اكتشفت منافعها بسرعة إذ من الممكن غش أمي التي لم تكن تنزل إلى السوق أبداً والتي كانت مسؤولة عن مصروف البيت. فوالدي المريض طريح الفراش.

لعل ليلى رأتني أحمل سبت الخضار والفول والعيش. إذ فتحت الباب ونادت عليّ وأنا نازل في العصرية لكي أذاكر مع نجيب. سألتني بصوت عال إذا كنت أعرف أين أجد لها البواب لأنها عاوزاه ضروري. تطوعت أن أبحث عنه. لم أجده. من النادر أن تجد البواب لأنه دائماً يقوم بأعمال أخرى غير البوابة: سمسرة الشقق. بيع وشراء الأشياء القديمة والتعريص كما قالت ليلى. وهكذا رجعت لأقول لها إنه مش موجود فقالت بصوتها العالي: المعرّص. تمعنتني لحظة وغيّرت نبرة صوتها إلى ألطف وسألتني إن كان من الممكن أن أعمل فيها معروف. هززت رأسي بالإيجاب (ها قد حانت الآن الفرصة لمحادثتها وجهاً لوجه بعد تلك الأشهر من المراقبة السرية

الصامتة) أن أحضر لها من «الأهوة اللي تحت: بيرة أزازتين وكما لو سمحت علبة سجاير بحاري». أضافت: «أصل المرة اللبوة عيانة وراحت عند بنتها» (فهمت أنها تقصد العجوز). طرت إلى أسفل أشتري لها ما تريد. رجعت فوجدت باب الشقة مفتوحاً لكني لم أدخل بل دققت الجرس (كنت أريد أن أبهرها بأدبي) قالت حينما أدخلتني «باين عليك مؤدب وابن ناس». كانت تعرف بشكل ضبابي أني أسكن مع أهلي هنا. ولم أتطوع أنا بالمزيد من المعلومات. كنت أريد أن أحتفظ بها لنفسي بعيداً عن أهلي. أعطيتها باقي النقود. مدت لي يدها بخمسة قروش. لكني رفضت بصدق (فلم يعطني أحد بقشيشاً من قبل نظير خدماتي) ضحكت هي وربتت على رأسي وأعطتني سيجارة. أعجبني منها معاملتي كرجل مدخن مع أني كنت في السابعة عشرة (أدخن خلسة في السينما) أخذتها وأشعلتها في الشقة فلم أكن أريد الخروج الآن. ولم تبال هي بوجودي بل لعلها رحبت بواحد تستطيع أن ترغي معه، فقد اكتشفت بعد ذلك أنها رغاية كبيرة. عملت لنا قهوة وجلست معها في غرفة النوم (طبقاً لروتينها الذي أعرفه عنها). هي على سريرها وأنا على الكرسي الفوتيل المتهالك بالقرب منها نتحدث كأصدقاء قدامى. كانت تسأل ولا تنتظر الرد. تنتقل من موضوع إلى موضوع بسرعة دون أن تستكمله ولم أهتم أنا أيضاً. كنت مأخوذاً بها. أتأمل فراشها ووجهها الذي ما زالت عليه مسحة من جمال وأظافرها التي تشقق عنها المانيكير.. وقاموسها المباشر. وجسدها المسترخي. والأجزاء الظاهرة من لحمها. كنت أعلم أنها ترتدي روب الحمام

التقليدي على اللحم. وها هي الآن بروب حمامها على فراشها. أعطتني مجلة الكواكب وطلبت مني أن أقرأ لها البخت. برج العذراء ـ ضحكت هي حينما قالت ذلك ـ اكتشفت أن نظرها ضعيف وأنها يا دوبك تستطيع القراءة. لم تعترف بذلك أبداً. تقول: «أصل أنت صوتك حلو وانت بتترا» أو «أصلي أنا كسلانة النهارده».

تحددت العلاقة بيننا على اتفاق صامت. أمر عليها ساعة العصرية أحضر لها ما تريد (كل هذا الوقت الذي أنفقه عندها وأهلي يفتكرون أني مع نجيب مساك إتناثيوس) وعلمتني أن أعمل لها القهوة وأن أبحث لها عن ملابسها في الدولاب أو حيث ألقتها على الأرض بجوار السرير. أعد لها الحمام. أسخّن الماء في الصفيحة الكبيرة (لم يكن عندها أو عندنا سخان) وأنتظرها حتى تخرج من الحمام، أتسكع وأتلكأ في الشقة لا أريد الخروج حتى تأمرني شاخطة فيّ صراحة بذلك.

لعلها اكتشفت بحدسها ولعي بها ورغبتي فيها إذ اقترحت عليّ مرة أن أدلك لها رجليها. رقدت هي على فراشها بروبها التقليدي، وإن كانت قد ربطت الحزام حول خصرها، تتصفح مجلة الكواكب. كنت أرتعش وأنا أضع التلك على قدميها. قالت: ايدك باردة. دفيها الأول. أخذت أنفخ في يديّ محاولاً السيطرة على رعشتي. ركزت اهتمامي في الشغل (هذه هي الطريقة الوحيدة للتماسك). قالت فجأة: «مالك خرصت ليه ما تقول حاجة». بدأت أهرف. قالت «قوللي شِعر من اللي بتاخدوه في المدرسة». قلت لها: «مكرّ مِفرّ مُقبل مُدبرّ معاً». ضحكت كثيراً. قالت: «عاوزه شعر غرامي». قلت لها شعر

رابعة العدوية الصوفي ـ دون أن أوضح لها ـ «أحبك حبين، حب الهوى وحب لأنك أهل لذاك». أعجبها هذا كثيراً وطلبت الاستعادة والمزيد.

يداي تتسللان إلى الفخذين المدكوكين. شعر عنترة وعمر ابن أبي ربيعة وحتى الخنساء ترثي أخاها صخراً «وإنك إذ نشتو لنحّار» لا أريد ولا أستطيع التوقف عن الشعر فقد وصلت الآن إلى الردفين العاريين من تحت الروب. ألقت بالمجلة ودفنت وجهها في الوسادة. جاءني صوتها من داخل الوسادة. «إنت مش مرتاح كده، إخلع الجزمة واطلع فوق السرير». مدت يدها فجأة وقبضت على أسفل بطني وضغطت فشهقت من الألم المفاجىء الغادر. ضحكت هي في الوسادة ويدها ما زالت ممسكة بي ـ وإن كانت قد خففت الضغط الآن ـ سألتني بصوت رقيق: «إنت عمرك كام؟» قلت متلعثماً: سبعتاشر». سهمت لحظات وقد احترت أنا ماذا أفعل. فلبدت مكاني ساكناً ككلب أنتظر العقاب أو المكافأة. سحبت يدها وقالت كأنها تحدث نفسها «مش عارفة» واصلت تدليكي بحذر من موقعي محاذراً الالتصاق بها. قالت: «تعال هنا جنبي». سألتني: «عمرك ما عملت مع واحدة ست» لم أحر جواباً متجنباً النظر إليها كنت الآن مستلقياً بجوارها. نظرت إليّ طويلاً. وقالت: «يعني أنا أول واحدة». لم أجب. (أعلم أنها لا تنتظر إجابات). كانت الآن جادة بشكل لم أره من قبل. قالت: «إخلع هدومك». فخلعت متحاشياً النظر إليها. قالت: «أنا عمري ما بوستك، بس إنت عمرك ما طلبت كمان»

سهمت هي لحظات طوال. سألتني: «خايف مني؟» قامت نصف قومة وسحبت الروب وألقت به على الأرض.

لعلها كانت في بداية الأربعين من عمرها.. شاحبة الجسد لكنها ناهدة الصدر عامرته مدكوكة. حلوة الرائحة. شعرها البني الطويل الآن يغطي جانب وجهها ورقبتها وبعض ظهرها. قالت: «دلكني من جديد» بدأت أدلكها بادئاً من قدميها ببطء معطياً لنفسي الوقت لكي أفكر. كنت ما أزال أخاف مزاجها المتقلب متوقعاً أن تكون هذه حيلة منها لكي تطردني بعد أن تهزأني. لكن ظهرها المقوس وردفيها اللذين بدأت تحركهما إلى أعلى إلى أسفل في حركة دائرية بطيئة قدما لي إيقاعاً لتنغيم حركة جسدي المرتبك. كانت تقترب بردفيها مني حتى تلتصق بي ثم تسحب نفسها بعيداً، تفتح ساقيها وتضمهما. تعلقت بخصرها كأننا نسبح في ماء كثيف.

في لحظة مفاجئة استدارت وقد أسرتني بين ساقيها، قائلة بهمس ضاحك: «ذنبك على جنبك». نظرت إليها. كان وجهها رائع الحلاوة.

حينما رجعت العجوز إلى الشقة تمارس مهامها لم أتزحزح من موقعي الجديد. كلانا نخدمها نحضر لها حمامها ونبحث عن أشيائها الضائعة وهي كثيرة. أقرأ لها قصص الحب في المجلات بينما تقوم العجوز بنزع شعر الساقين بالحلاوة. لم تعترض العجوز على وجودي بل لعلها وجدت فيّ ذلك الشخص المستعد دائماً لتلبية طلباتها من السوق فأوفر عليها مشوار السلم.. لكني تمسكت بمكاني كمدلك «وخلافه». لم تمانع العجوز. كانت تجلس أحياناً على الفوتيل بالقرب من

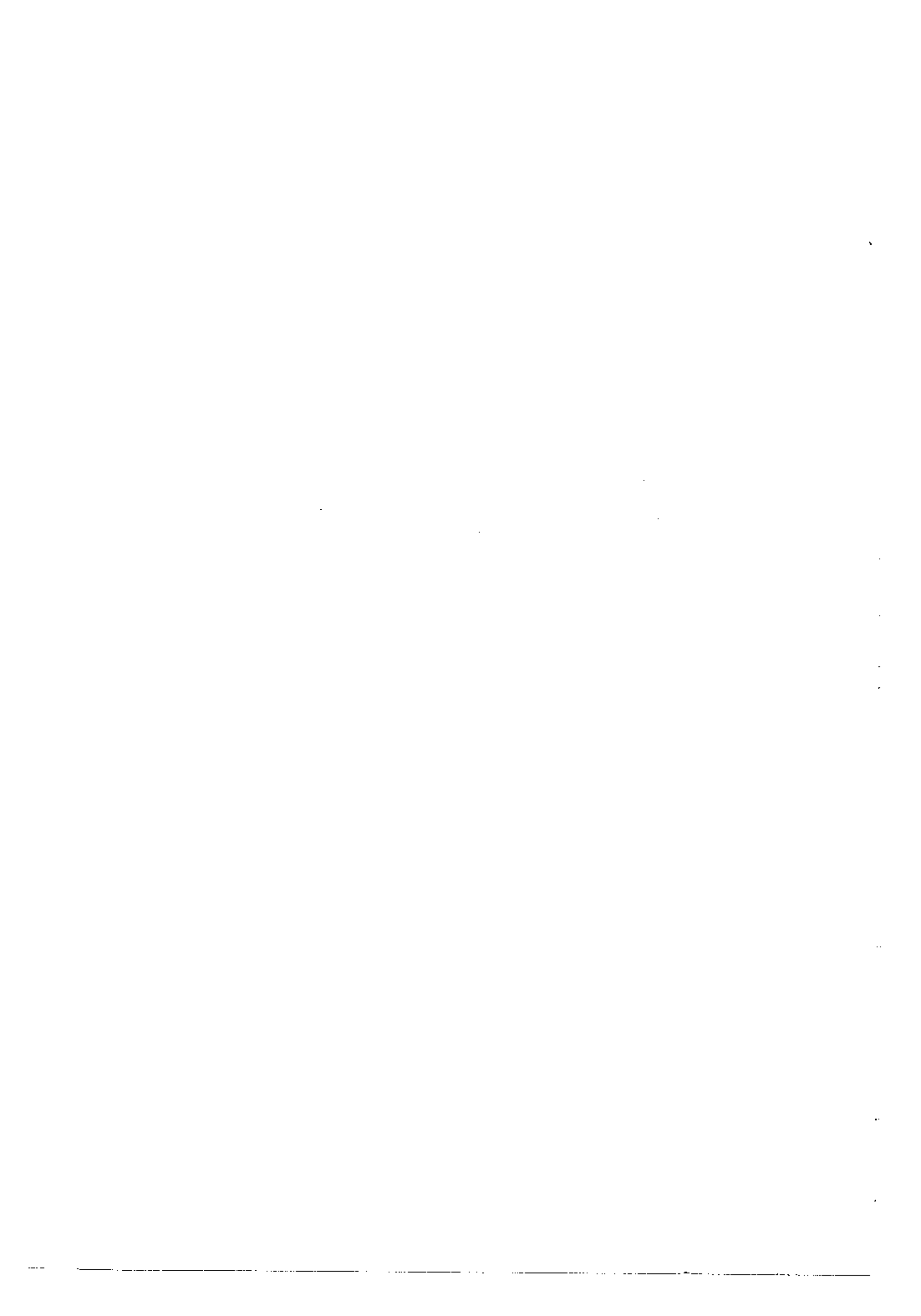
السرير تهوم ناعسة وليلى تهمس لي أن أضع الملاءة وأنا أدلكها. كنا نستمتع - كلانا - بممارسة الجنس والعجوز بجوارنا تبادلنا الحديث. ساعتها تتحول ليلى إلى بنت صغيرة خجولة وأتحول أنا من مدللك وخلافه إلى رجل وسيد.

كنت أختلس الوقت، وقت المذاكرة لأقضيه مع ليلى. مخبئاً سري عن الجميع. لكننا انتقلنا بعد ذلك إلى دير الملاك وانشغلت أنا بأشياء أخرى (مثل السياسة مثلاً ولقيت أكثر من ليلى) ولم أذهب إلى الظاهر ولم أحاول أن التقي بها آنذاك. كنت قد نسيتها.

لكني التقيت بها بعد خروجي من السجن (أي بعد حوالى عشر سنوات)، إذ رجعت إلى الفجالة أبحث عن غرفة أستطيع أن استأجرها (كنت أعلم من الماضي بوجود هذه الغرف هناك) والتقيت بالصدفة مع بوابنا الأعور باعتباره سمسار المنطقة. تذكرني هو فوراً. ولم تعجبني الغرف التي أراني إياها لكني أعطيته بعض النقود ووعدته أن أرجع بعد أيام للبحث عما أريد. سألته بحذر عن الست ليلى «اللي كانت ساكنة تحتينا». فأجاب بلامبالاة: «بطلت شغل الشرمطة بعد ما اتكسحت في الحادثة بعيد عنك وأهي متلقحة في ملجإ العجزة بتاع الكنيسة».

لأول مرة أعرف من الأعور أن ليلى مسيحية. أخذت منه عنوان الملجإ واشتريت علبتي سجائر ونجز (اختفت البحاري مع بقية الأشياء التي اختفت) اشتريت شوكلاته. أعلم أنها تحبها، استجمعت شجاعتي وذهبت. استقبلتني راهبة صارمة من راهبات قلب يسوع واستمعت إليّ مائلة بوجهها تجاه

أيقونة للعذراء كأنها تستلهمها معرفة مدى الصدق في درجة القرابة التي انتحلتها للأخت ليلى. قادتني إليها. إلى الكرسي المتحرك تحت شجرة برتقال في الحديقة. وقفت الراهبة على مبعدة تمكنها من سماع ما نقوله همساً. كانت قد سمنت ونحل شعرها الجميل واضعة بطانية على ركبتيها. عرفتني فوراً. في البداية بدت منزعجة وضمت البطانية على ركبتيها لكنها تمالكت نفسها بسرعة ورحبت بي بتلك الابتسامة الحلوة. أعطيت لها الأشياء واحمرّ وجهها ولمعت عيناها بدموع الكبرياء. تحدثنا في أشياء تافهة والراهبة تتمشى حولنا في دوائر واسعة. قالت: شفت الدنيا غدرت بي إزاي. نظرت إليها الراهبة مؤنبة. حينما ابتعدت همست لي: قل لي الشعر بتاع أحبك حبين».



حكاية البنتين
من البوتيك في الزمالك

في الدور الأرضي من العمارة التي أسكن فيها في الزمالك يوجد بوتيك تعمل فيه بنتان «نادية وفريال» أراهما أحياناً ساعة الظهيرة تجلسان على مدخل المحل. نادية سمراء ممشوقة يتراقص جسدها في مشيتها (دائماً بالشبشب)، وفريال بيضاء قصيرة مليانة. لعلهما لا تتعديان الثامنة عشرة. تسكنان في المقابر (مقابر الإمام الشافعي كما عرفت فيما بعد وذلك أثر زحف سكان القاهرة أو نتيجة لقانون الطرد على المقابر لسكناها في السنوات الأخيرة من حكم أنور السادات). صاحب البوتيك سوري بدين في منتصف العمر وعال الصوت. حينما يكون في المحل تتخاذل البنتان وحينما تكونان بمفردهما ـ وبدون زبائن ـ أجدهما ريلاكس بالشبشب ودائمتي الابتسام. تبادلنا الحديث المؤدب في البداية. عيني عليهما من زمن. أحس أنه من الممكن إيجاد علاقة معهما. نادية هي التي أخذت المبادرة. عاكستني وأنا داخل في الظهر مرة وكنت أحمل كيساً به مانجو. قالت: «اللي ياكل لوحده يزور». قلت لها: «تفضلي».

اقتربت مترددة. خطفت اثنتين. قالت: «واحدة لي وواحدة لفريال». قلت لها: «عاوز أشوفك». قالت: «أطلملك بكره الصبح». قلت: «يعني الساعة كام؟». قالت: «بدري قبل الشغل». وافقت متضرراً فأنا لا أحب لقاء البشر لعمل أو لجنس في الساعات المبكرة من الصباح. أعلم أنها تأتي من بدري. لكن ما العمل. أتت في الصباح حوالى الثامنة. كنت قد استيقظت لتوي وماليش مزاج لكن عزمتها على شاي. قالت: «عايش لوحدك في الشقة دي كلها» (غرفتان صغيرتان وصالة) لم تكن تسأل وتنتظر إجابة. اكتشفت غرفة النوم وتقدمتني إليها وقالت: «يللا بسرعة». قلت لها: معلهش وقت تاني». شعرت أنها تضايقت. تحججت بأني منتظر بعض الناس وأعطيتها جنيهين. قلت لها: «تعالي بعدين ساعة الغدا وهاتي زميلتك معاكي». حضرتا في الظهر تتضاحكان. تتصرفان بعادية وتكتشفان الشقة وتعلقان بمرح ودهشة على الكتب الكثيرة واللوحات القليلة «أنت مضيع فلوسك في الحاجات دي يا عم لو مش عارف تصرف فلوسك في حاجة نافعة إديهالنا واحنا نصرفهالك» تغدينا ثلاثتنا. نادت عليّ نادية من المطبخ وقالت: «فين حلاوتي». «أنا جبت البنت» فوعدتها بخمسة جنيهات. قالت: «حاتديها كام». قلت: «مش عارف. إيه رأيك». قالت: «ما تديهاش كتيرا خمسة كفاية عليها». أضافت: «على فكرة هي مش بنت بنوت». (في الصباح قالت لي نادية عن نفسها إنها عذراء. لكن حسب قولها ممكن تبسطني أكثر من النسوان التانية). توقعت أن تنسحب نادية لكنها تبعتنا إلى غرفة النوم وفريال كانت مكسوفة حقيقي

وحينما تلكأت في خلع ملابسها عاملتها نادية بخشونة ولم تعترض البنت على هذه المعاملة. خلعت نادية أيضاً ثيابها (لدهشتي وترحيبي) واستقرينا في الفراش جميعنا. لاحظت أن نادية تنظر باشتهاء إلى جسد فريال. لم تعطنا الفرصة بل وزعت اهتمامها بيننا. بعد قليل تمردت فريال وحاولت أن تتخلص من نادية. أرادت أن تزيحها لكن الأخيرة كانت تعرف ما تريد. استسلمت فريال لكلينا. صرفتهما بعد أن وزعت النقود عليهما بالتساوي.

هذه نقود تافهة. كنت أفكر بعد انصرافهما. لكنهما فرحتا بها. هذا نوع جديد من البنات لا أعرفه. ظهر في السنين العشرة الماضية. إنهن يعملن في البوتيك عشر ساعات يومياً عدا يوم الجمعة. قالت لي نادية إن أمها تعمل شغالة في نفس العمارة. والد فريال يمتلك الكشك الخشبي الصغير على الناصية. يبيع السجائر والصحف والمثلجات.

أراهما الآن بانتظام عندي. أحياناً بمفردهما.. أحياناً لدقائق خاطفة لمجرد الدردشة أو «لاستدانة» جنيهات قليلة. تطورت العلاقة بيننا وأصبحنا كأننا أصحاب.

اختفى صاحب البوتيك فجأة وجاءت الشرطة ووضعت الشمع الأحمر على باب المحل. عرفت من الإشاعات المتفشية أن الحكومة مسكته في تجارة مخدرات. اختفت البنتان أيضاً، وبعد سنوات كنت أسير في ميدان التحرير ورأيت نادية متأبطة ذراع شاب بلدي (يبدو ذلك من ثيابه الإفرنجية المدهشة) رمقنا بعضنا للحظات خاطفة. هزت رأسها لي محذرة محيية

وطرف ابتسامة سعيدة على شفيتها الحسيتين الغليظتين. لم أر الأخرى بعد ذلك أبداً كأنها فص ملح وداب.

أذكر أن فريال قالت لي مرة إنها فقدت عذريتها حينما كانت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة.. «مش فاكرة أهو تقريباً. ده مهم؟» حسب تعبيرها. كانت نائمة بين شقيقيها واحد أكبر وواحد أصغر منها. أخذها الكبير في البداية بمفرده لعدة شهور وكان يضربها حينما ترفض أو لأي سبب. ثم طالب الصغير بحقه فيها. فتناوباها أحياناً أكثر من مرة في الليلة الواحدة. كانت تجيب على اسئلتي الملحاحة بهدوء وقليل من الضجر. «طيب وأهلك؟» بيناموا معانا في الأودة نفسها» «وما اشتكيتيش لأمك؟» «في الأول كنت خايفة وبعدين خلاص» «خلاص يعني إيه؟» «هي شغلانة؟ مش إخواتي برضه وبعدين عادي» «يعني إيه عادي؟» «عادي يعني عادي.. دانا حالتي أرحم من غيري. فيه بنات في حتتنا أبهاتهم وللا أعمامهم، وأخوالهم بيناموا معاهم. أهو ده الحرام بجد بأه».

تاريخ شخصي

لا يمكن وصف السجن. يمكن توصيفه من «الخارج». الأسوار. الزنازين. الأبواب الحديدية. الروتين. الطعام. السجانة. لكن لا يمكن وصف الرائحة. لا يمكن وصف الصمت الذي يحل عليه أحياناً. لا يمكن وصف ضجيجه. ولا يمكن وصف أصواته ولا يمكن وصف أهم عنصر فيه وهو الانتظار. كل هذا لا يهم. إنه يشكل الإطار الخارجي لفكرة السجن. أما النواة الداخلية للسجن فهي الحرمان. ليس فحسب الحرمان من الطعام الصحي. أو من الكتب أو من السجائر والشاي أو من الفراش النظيف أو من الخلوة بالنفس (وهذه كلها من أساسيات الحرمان في السجن).. بل الحرمان من استخدام الجسد. تعطيل الجسد بالأمر.

في السجن أنواع من المساجين. هناك ذلك النوع الذي يرضخ للسلطة ونواهيها فيتحرك داخل ميكانيزمها وينهرس داخل دواليبها. هناك من يسخر من السلطة لكن من وراء ظهرها ويحول السجن إلى داخل مجاله. يتحرك داخل السجن كأنه في بيته. يتاجر ويبيع ويعرّص ويفتن على المساجين

الآخرين. هناك من يبيع قوة عمله للمساجين الأغنياء ولو نسبياً. ينظف زنازينهم ويحمل جرادل بولهم وخرائهم نظير أجر معلوم. هناك من يستخذى منذ الوهلة الأولى. يتآمر عليه السجانة والمساجين الأقوياء. «يسكّنه» السجانة في تلك الزنازين التي يعرفون أن ساكنيها يريدون جسداً جديداً. ينتهكونه منذ الليلة الأولى. يتبادلونه وهو يصرخ مستغيثاً ونوبتشي الليل يسمع صراخه ويزجره.

وهناك النوع الذي يفهم فلسفة السجن. قد يفهمها بشكل ضبابي أو غريزي. يفهم أنها استلاب للجسد وتعطيله تمهيداً لكسر الروح وتدميرها. إن الفهم هنا لا يكفي. إنه ليس بكاف لإتخاذ قرار مضاد وليس بكاف لفك إسار الجسد من الأغلال التي أحاطت به منذ الطفولة. إنها معركة شرسة وتكون نتائجها في معظم الأحوال ليست في صالحه. تقوده أحياناً إلى الهستيريا، أو المرض العضوي أو المرض العصبي.. عليه أن يقرر أولاً أن ما يفعله، ليس بذلك الأمر الخطير (أو ما سيفعله). عليه أن يجد الهرموني بين آرائه ومعتقداته وبين جسده. هذه معركة أخرى. وحتى إن كسبها عليه أن يتحرك بحذر من يسير في حقل ألغام مغمض العينين.

إن ما يعنيني هنا هو سجين الرأي. الذي يلقى أقسى المعاملة من الإدارة الخاضعة للبوليس السري والتي تحرمه من تلك الأشياء التي يحصل عليها اللصوص والقتلة (هذا في السجون المصرية.. والعربية التي لا تختلف عنها). إن هدف السلطة هنا هو الانتقام بأكثر الطرق بدائية ووحشية. حلق شعر الرأس. نزع كل المتعلقات الشخصية مثل الساعات. الخاتم. دبلة

الزواج. إجباره على ارتداء ثياب السجن المستهلكة والتي تحمل روائح الآخرين. المراحيض المكشوفة بدون أبواب. الحمامات الجماعية. الزنازين بدون دورات المياه حيث يستخدم النزلاء جردلاً للبراز وآخر بجواره لشرب الماء وغالباً ما تحدث أخطاء؛ ناهيك عن الاستخدام المستمر لجردل البراز من النزلاء في الزنزانة الواحدة الذين يتراوح عددهم في المتوسط بين عشرة وعشرين. الضرب والتعذيب. الأعمال الشاقة مثل تكسير الأحجار في الجبل. الحرمان من زيارات الأهل والحرمان من كتابة الخطابات والحرمان من الكانتين البسيط. أي ببساطة نزع الهوية الأساسية، إبدالها برقم.

في هذا الجو عليه أن يصمد. أن يتفاءل. أن يحافظ على سلامة عقله. أن يحتفظ بصحته. أن لا يجن. أو ينهار. أن لا يصبح عميلاً للإدارة أو المباحث وعيناً على زملائه. (كان للحقبة الناصرية في مصر «أعداء كثيرون»)؛ الضباط الديموقراطيون الذين عارضوا ديكتاتورية عبد الناصر. الضباط الذين حاولوا الانقلاب عليه لمجرد الطمع في السلطة والاستحواذ على مكاسبها. الأخوان المسلمون الذين حاولوا الاستيلاء على السلطة بالقوة ومحاولة اغتيال عبد الناصر. الشيوعيون. الأعداء الطبقيون. وغيرهم جميعهم وضعتهم السلطة في السجون والمعتقلات. كانت محاكمتهم ـ إن كانت هناك محاكمات ـ تتم أمام المحاكم العسكرية أو محاكم «خاصة». في معظم الوقت يقضون سنوات طوال بدون محاكمة. يقضونها في «المعتقلات» الصحراوية النائية. أحياناً يتم تعذيبهم بشكل منتظم على أيدي ضباط تلقوا

دورات خاصة في التعذيب على من تبقى من خبراء النازيين الذين استضافتهم القاهرة ـ مستغلة عداءهم لليهود في حربها ضد إسرائيل ـ كان من الطبيعي من وجهة نظر النظام المحافظ بقدر كبير من العداء؛ أن يعتبر كل من يعارضه ولو بالنقد البريء «عدواً للحكم وللشعب» وتتم معاملته على هذا الأساس بوساطة إدارة السجن أو المعتقل باعتبارهم «خونة» للحكم الوطني. إن المعتقل أو السجن السياسي في مصر يخضع للإشراف المباشر للبوليس السري السياسي. وهي إدارة مشهورة بقسوتها السادية. قد تندهش إذ تعرف أن معظم «خبرائها» ورثتهم السلطة الناصرية من نظام الحكم الملكي الذي انقلبت عليه.

ماذا يحدث إذاً لسجين الرأي؟ إنه يفقد اتصاله بالعالم الخارجي منذ لحظة إلقاء القبض عليه، يظل أهله يبحثون عنه لشهور طويلة. يترددون بشكل منتظم على مبنى المباحث العامة (البوليس السري). يتوسلون ويستجدون معرفة أخباره. هذه حيلة من حيل المباحث، إذ يعتقد المقبوض عليه أن لا أحد يهتم به حتى أهله قد نسوه. أحياناً تعزله المباحث ـ حتى وهو في المعتقل ـ عن زملائه في زنزانة انفرادية لمدة طويلة. تتواطء جميع الأجهزة ضده بما فيها النيابة العامة وحتى طبيب السجن الذي لا يسجل جروحه الناجمة من التعذيب. هنا يترك سجين الرأي لنفسه أياماً طويلة. الوجوه الوحيدة التي يراها هي وجوه سجانيه ومعذبيه. يقولون له إن رفاقه إعترفوا عليه.. إن زوجته أو خطيبته ترغب في الطلاق أو إنهاء العلاقة. البعض يصمد والبعض الآخر ينهار. هم بالطبع لا يفرجون عن المنهارين بل

يرسلونهم إلى المعتقلات المكدسة ليواجهوا احتقار زملائهم وجو من العداء المعلن المتبادل. عادة ما يرحب المعتقلون بالخروج من الحبس الانفرادي واللحاق بالزملاء الذين قد استقروا في هذا المعتقل أو ذاك و«أسسوا» حياتهم فيه وحاولوا تنظيمها. يعيدون بناء المؤسسة الحزبية وخلق النظام الداخلي كطريقة للحياة والاستمرار أمام المستقبل المجهول، فليس هناك أمد محدد لفترة الاعتقال، وحتى الذين تتم محاكمتهم ويحصلون على حكم بالبراءة لا يرون البوابة الخارجية للمعتقل أو السجن. إنهم يظلون في المعتقل طبقاً لقانون الطوارىء الذي يعطي الحاكم العسكري «رئيس الجمهورية» الحق في اعتقالهم مرة أخرى لأمد غير محدد.

في المعتقل يبدأ المعتقلون في ترتيب حياتهم هناك. باعتبار أن هذا المكان ـ بسيئاته وحسناته ـ هو مكان إقامتهم لفترة طويلة غير محددة. يبدأ العقل في تقبل الأمر الواقع. تأخذ الروح المعنوية في الصعود مرة أخرى إلى مستواها الطبيعي تقريباً. ويبدأ الجسد في الاستيقاظ من سباته. هنا يواجه الواحد مشكلة جديدة. ماذا أفعل بجسدي الذي يطالب بحقه في الجنس. ماذا أفعل بروحي التي تبحث عن الحب والحنان. تبدأ محاولات مستميتة في قمع الجسد. الكثيرون ينجحون في ذلك. القليلون يبحثون عن جسد آخر. تبقى مشكلة الروح. الكثيرون يبحثون عن «رفيق الروح» والقليلون يجدون بغيتهم. يتم كل هذا في جو من التكتم والحذر والسرية. هناك مراقبة من الرفاق لعدم تجاوز «الحدود». يراقبون نمو العلاقات بين السجناء أو المعتقلين. لا أحد هنا يؤمن بالبراءة. لكن لا يوجد

أيضاً المكان الصالح للخلوة فمعمار السجن يقوم في فلسفة المراقبة المتواصلة. ففي معتقل مثل معتقل الواحات (الذي شيّده الإنجليز لاعتقال الوطنيين المصريين وورثته الأنظمة المصرية اللاحقة قبل الاستقلال وبعده ووضعت فيه - أيضاً - معارضيها) ثمة مساحات من الفضاء المحيط بالعنابر يمكن استخدامها في الجلوس تحت أشجار خروعه القليلة وتدخين نصف سيجارة والإحساس بنعمة الانفراد بالنفس ولو للحظات. هناك أيضاً الساعات القليلة الحرة المتاحة للتجوال والتحادث بعيداً - بقدر الإمكان - عن الأعين المراقبة، في المزرعة الصغيرة، أو في الليل بعد غلق العنابر من الخارج والسماح بمواصلة استمرار فتح الزنازين وانتقال النزلاء من مكان إلى آخر داخل حدود العنبر. هذا المعتقل اعتبره ساكنوه جنة السجون والمعتقلات في مصر وقد حصلوا على هذه المزايا نتيجة صراع طويل مع الإدارة ليس هنا مجال الكتابة عنها. وبالاختلاف عن بقية السجون والمعتقلات التي تتبع النظام الصارم الذي أشرت إليه من قبل. فإن معتقل الواحات يتيح الفرصة للمتواجدين فيه أن ينعموا بقدر من الإحساس بالخصوصية (في الملابس والخطابات والكتب المهربة. في الاختلاء بالنفس. في الإحساس بالرفقة الحميمة والعمل على إنمائها).

هناك ساعات الليل الطويلة التي يهجع فيها المعتقلون بعد نشاط العمل في النهار. إنها ساعات الخوف من استمرار البقاء في المعتقل لسنوات مقبلة لا يعرف أحد متى تنتهي والأمثلة حيّة أمام الواحد. هناك من أنهوا مدة السجن المحكومين بها

واستمروا فيه كمعتقلين (لم تعد السلطة تعنى بالمظاهر والشكليات القانونية الآن. ففي السابق كان السجين الذي أنهى مدة الحكم يرحّلونه إلى القاهرة ليواجه بقرار تحويله إلى معتقل. كان على الأقل يستمتع بالرحلة الطويلة التي سوف يلتقي فيها بأهله ويرى الشوارع. الآن فإن إدارة المعتقل تستدعيه وتبلغه بالقرار ويرجع إلى زنزانته معتقلاً إلى أجل غير مسمى) يتلفت الواحد حوله فيجد وجوهاً وأصوات وحركات من سيقضي معهم البقية الباقية من عمره (مات البعض في المعتقل إما من كبر السن أو من المرض أو من سوء التغذية ومن التعذيب بالطبع) يتلفت حوله ويشم رائحة المكان المختلطة برائحة المطهرات والمبيدات الحشرية. رائحة التبغ الرخيص والطبيخ والمراحيض والجرادل التي يستخدمها المئات يومياً والفراش (البرش والبطانيتين العسكريتين الرماديتين) التي عرق وبال واستمنى فيها وعليها الكثيرون قبل الواحد؛ وما تزال عالقة بها رائحة إفرازاتهم. يتلفت حوله فيجد المشية المشوهة من طوال عدم لبس الحذاء لسنوات طويلة والوجوه التي حفر فيها الألم علاماته، والأجساد الشائهة التي أبرزت عيوبها سوء التغذية والثياب غير المناسبة السخيفة. ينظر الواحد إلى نفسه ويشم رائحته غير النظيفة لعدم التمكن من الاستحمام (لعدم وجود الماء. أو لعدم وجود الصابون أو كليهما) يرى الواحد يديه وقد شوههما العمل اليدوي الشاق بدون الاستعداد له بالأدوات المناسبة والروماتيزم الذي يصالب الرقبة والظهر من النوم لسنوات على الإسمنت الذي يفصله عن جسده البرش القديم المتهرىء. يرى الواحد وجهه في وجوه الآخرين، الأعين

المنتفخة الوجوه الهضيمة النظرات التائهة والشفاه المقشفة من البرد ونقص الغذاء. يرى الواحد كل هذا ويفكر: كيف الخلاص. أين الفرار (حتى من هؤلاء الناس المفروضين عليه) إنه حتى لا يستطيع أن يبكي لأن النظرات التي تحيط به تهدده ولا تسمح له بالدموع خوفاً من أن تقود دموعه إلى فك أسر دموع الآخرين. عينان ذكيتان ترمقانه وتتعاطفان مع أحاسيسه التي لم يبح بها إلى أحد. لعلها نصف سيجارة يدخنانها سوياً وهما يتحسسان طريقهما بحذر. كلاهما لم يثق في الآخر بعد. هناك الخوف من عدم الوصول إلى فهم مشترك. وبالتالي فالفضيحة التي سوف تعزل الواحد عن النهر العام. عن الافاق السري بعدم البوح.

وتبدأ الأشياء الصغيرة في النمو. اهتمام كل منهما بالحياة اليومية للآخر. خلق واحة مشتركة في بحر الرمال هذا، ثم بداية البوح التدريجي. إنه يبدأ بالبوح الجسدي. تلامس الأصابع. تشابك الأيدي. اهتمام الواحد بجسد الآخر، وإذا أسعدهما الحظ فإنهما لا ينكشفان تحت النظرات الفضولية المستريبة. إذا أسعدهما الحظ أيضاً فبإمكانهما أن «يسكنا» في زنزانة واحدة وأن ينقلا برشيهما ليتجاورا أثناء النوم ليقوم أحدهما في النهاية بالحركة المؤجلة.

ويخطىء من يظن انها علاقة مشابهة لتلك الموجودة بين السجناء في جرائم غير جرائم الرأي. ليس هنا أي مجال للمقارنة. إن الجسد هنا يتجرد من فعل ليصبح حالة. من إفراز إلى بوح. ليس هنا «فاعل ومفعول به».. بل واحد وواحد في

حالة متساوية ومتشابهة من الرغبة في مساعدة الآخر على «تخطي الحبسة».

وحينما فتحت المعتقلات أبوابها بعد ذلك يذهب كل واحد إلى حياته السابقة أو حياته الجديدة. إلى عائلته. إلى زوجته (أو يتزوج ويخلّف صبيان وبنات)، لعلهما يلتقيان بعد ذلك (غالباً بالصدفة) يتحدثان عن الحاضر وعن المستقبل. كل منهما ـ يعلم بالغريزة ـ أن ذلك البوح الجسدي كانت له شروطه الخاصة به، وحتى لو حاول الواحد منهما إعادة خلقها أو تخليقها من جديد فلن تجد المناخ الخاص الذي يجعلها تنمو (مثلما ما حدث في السابق).

ثمة حالة واحدة ـ أعرفها ـ ما زالت مستمرة في النمو والاستقرار.. لعل هذا هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة كما يقول المتحذلقون.



تاريخ شخصي ٢ -

• في عام ١٩٥٤ التحقت بتنظيم ماركسي سري صغير وذلك من خلال علاقتي بالطلاب والأصدقاء السودانيين الذين كانوا يعيشون في مصر.

• في عام ١٩٥٦ أُلقي القبض عليّ في الشارع أثناء توزيعنا لمنشورات تحض على المقاومة الشعبية المسلحة في منطقة القنال التي كانت محتلة آنذاك بوساطة القوات الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية بما سمي بالعدوان الثلاثي على مصر عقب تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس.. لكن تم الإفراج عني وعن زميلي الذي كان معي بعد قضاء ليلة في قسم بوليس الأزبكية. تمّ اعتقالي مرة أخرى في ديسمبر ١٩٦٠ بعد محاولة ساذجة للهرب والاختفاء، أمضيت سبعة أشهر في سجن القناطر الخيرية فيما يطلق عليه اصطلاح «تحت التحقيق» الذي قادني إلى محكمة عسكرية عقدت في مدينة الإسكندرية واستمرت حوالى سبعة أو ثمانية شهور أخرى.

• كنت المتهم الرابع عشر في القضية التي أطلقت عليها مباحث قسم مكافحة الشيوعية بقضية الحزب الشيوعي

المصري. كنا ١٦ متهماً بما فيهم المتهم الأول سيف يوسف أبو سيف السكرتير العام للحزب. بعد انتظار حوالى عشرة شهور لصدور الأحكام وتصديق الحاكم العسكري (رئيس الجمهورية) تم ترحيلنا إلى معتقل الواحات الداخلة حيث تم الإفراج عنا جميعاً في بدايات عام ١٩٦٤.

لكن لماذا انضممت أصلاً لتنظيم شيوعي؟

أستطيع الآن بعد مرور السنوات الطويلة أن أحدد السبب الحقيقي. كنت في حوالى السابعة عشرة من العمر، وفي سنواتي الأولى بالقاهرة وبداية اكتشافي لوضعي الطبقي والاقتصادي، وإحساس عميق (ورومانسي) بمحاولة إقرار العدل الاجتماعي. بداية تمردي أيضاً على المؤسسة الدينية التي كانت تمثل شيئاً هاماً في حياتي وخاصة بعد مرض أبي وشعوري بالظلم الذي لحق به من مؤسسة الكنيسة. كانت الماركسية هي الطريق الوحيد ـ في نظري ـ لتغيير كل ذلك. لتغيير العالم. لعل تربيتي المسيحية ساهمت في ذلك ـ رغم تمردي على الكنيسة ـ فالمسيحية بمضمونها المثالي تحض على العدل وعلى المساواة بين البشر. وهكذا انسحبت من الدين المسيحي لأؤمن بدين آخر علماني. وبعد السجن وذهابي إلى بولندا عام ١٩٧٠ وبقائي بها حوالى خمس سنوات (زرت خلالها معظم دول الكتلة الشرقية ـ آنذاك ـ والاتحاد السوفييتي سابقاً) بدأت أراجع الكثير من معتقداتي.

لكني لم أتخل عن إيماني بالماركسية ـ كفلسفة ـ مادية تعتمد على الرؤية العميقة والصحيحة ـ في معظم الأحوال ـ

لتفسير التاريخ واكتشاف ميكانيزم الصراع الطبقي وبالتالي تفسير وتحديد الظلم الاجتماعي.

وارسو ـ ١٩٨٠

بعد طلاقي من يمامة وقبلها بربارة اختفيت من حياتهما عن عمد ولعلهما أيضاً قررتا الشيء نفسه، لكنني واصلت علاقتي ـ البريئة الآن ـ مع ميشا. وهكذا ذهبت إلى وارسو في عطلة رأس السنة حينما كنت أعمل في بيروت. أريد أن أبتعد ولو مؤقتاً عن الرصاص والدمار اليومي. من المطار ذهبت إلى فندق صغير أعرفه في وسط البلد. ومن هناك تلفنت إلى ميشا التي أصرّت أن آتي وأقيم عندها (معها صاحبها الذي يصغرها في السن) اتفقنا على موعد للعشاء، وحينما التقينا وجدتها كما هي تفيض حيوية وقلقاً. أيامها كانت منظمة «تضامن» قد ظهرت وأصبحت قوة هامة في المجتمع البولندي الساخط على الحزب وحكومته. لكنها كانت ما تزال محظورة النشاط. وكانت الجريدة التي أعمل فيها في بيروت قد كلفتني أن أكتب شيئاً عن بولندا والاحتمالات المتوقعة. سألت ميشا إذا كانت تعرف طريقة توصلني بها إلى «تضامن» حتى أستطيع أن أتحادث معهم. قالت إن لها صديقة تعمل في جدانسك مقر المنظمة، وأنها ستوصلني بها. قالت ميشا إنها ستعزمها على حفلة رأس السنة التي ستكون في شقة كبيرة عند أحد أصدقائها وهناك سوف ألتقي بها. قالت إن صديقتها هذه تعاني من أزمة منتصف العمر. مطلقة وليس لها «صديق».

رأيتها في الحفل. تقارب ميشا في العمر ـ وتقاربني ـ ورغم

أن الحفل في مجمله كان يتكون من بشر يقاربوننا في العمر، إلاّ أن البنات اللاتي لم يتعدين العشرين بعد، كنّ أيضاً متواجدات. كنت قد بدأت أتخفف تدريجياً من التوتر الذي يتضخم في داخل الواحد من العيش اليومي تحت الرصاص والقنص والسيارات الملغومة. ها هنّ البنات الصبوحات يتماوجن بأجسادهن. يرقصن خاليات القلب. الطعام وفير. الشراب بدون حساب. التحفظ بين من لا يعرفون بعضهم يختفي وسط كل هذه الذبذبة الحيوية من البشر والموسيقى. ميشا قدّمتني إلى صديقتها الجدانسكية وجلسنا في ركن صغير نتحادث. هناك فتاة لم تبلغ العشرين بعد بدأت في خلع ثيابها لترقص الإستربتيز. تمتلك ذلك النوع النادر من الأجساد. ذلك الجسد البدائي المستقل عن صاحبته، الذي ينمو كل يوم - رغماً عنها - الذي يفرض مزاجه وإرادته عليها كما يحدث الآن. قالت ميشا: هل تظنها تحت تأثير المخدر. أجابت هي على سؤالها: «أعتقد إنها تحت تأثير جسدها» إن جسدها يرقص مستقلاً عنها. في ظروف أخرى هي بنت حشمة وخجولة ولعلها محرجة من هذا الجسد الفائر مثل الفرسة. لم تكن ترقص بشكل جيد. لم تكن تتابع الموسيقى لكن جسدها كان يقدم العرض الخاص به.

سألتني ميشا ونحن نرقص: ما رأيك في صاحبتي. في البداية لم أفهم لذلك أجبت بلا اهتمام، لا بأس. قالت ميشا أريدك أن تنام معها. فوجئت أنا. فأحد أسباب نزاعنا القديم هو غيرتها وبالتحديد من صاحباتها. حينما نظرت إليها متسائلاً قالت بجدية: أريدك أن تفعل هذا معها هي بالتحديد. قلت

لها لكن لماذا؟ قالت لأني أريد ذلك. لأني أطلبه منك كصديقة قديمة. قالت: «ستأتي الليلة لتنام أنت عندي وهي كذلك» قلت لها: «وماذا عنها هي؟»، قالت: «مش مهم هي»، سألتها: «وهل تعرف هي بما تدبرينه؟»، قالت: «لا. لكن هذا أيضاً مش مهم. المهم أني أريد هذا وأريده منك». لم أعر الموضوع كبير اهتمام. اعتقدت أن ميشا ثملة. لم تثرني صديقتها بشكل خاص وبدأت أبحث عن صيدي.

لكني لم أوفق. لعل ميشا أوحت للجميع أني تبعها، فانصعن للقانون غير المكتوب ـ في هذه الحالات ـ وابتعدن عني. المهم انتهينا جميعاً في ساعات الصباح الأولى (أنا وميشا وصديقتها وصديق ميشا) في السيارة الصغيرة الخاصة بصديقة ميشا والتي أتت بها من جدانسك. تساقطنا في شقة ميشا الصغيرة في المدينة القديمة (حيث احتفظوا للمباني بطابعها القديم الخاص) وقامت ميشا بصنع كمية مهولة من القهوة السوداء. جلسنا في الردهة ننظر من زجاج النافذة إلى الأشجار وأسطح البيوت التي غطاها الثلج الذي بدأ يتساقط لأول مرة في الليلة الماضية. همست لي ميشا أنها أعدت غرفة نومها ـ وهي الغرفة الوحيدة في البيت ـ لنا، مؤكدة على صيغة الجمع. لم أبال. كنت فقط أريد أن أنام. تمددت عارياً في الفراش الواسع في الغرفة الدافئة، تحت اللحاف الخفيف المصنوع من الريش.

يبدو أني استغرقت فوراً في النوم دون أن أنتظر «رفيقتي» وضوء الصباح الخافت وهمسه يتسللان إليّ من النافذة الصغيرة؛ لأني حينما أحسست بحركة بجواري كان الضوء

الفضي للصباح قد تحول إلى اللون الرصاصي (لون الضوء في الظهيرة) أحسست أيضاً بصداع فظيع وكنت أقول لنفسي يجب أن أذهب أولاً إلى الحمام ثم إلى المطبخ لأصنع لنفسي كوباً من الشاي وأبحث عن إسبرينتين. لكني لم أتحرك. ولعلها أحست بمشكلتي إذ سألتني عما بي. قلت لها ما أريد. قالت ضاحكة عليك أن تحل مسألة الحمام بنفسك. تطوعت هي بصنع الشاي والبحث عن الإسبرين. قامت مزيحة اللحاف ـ لحافي ـ عن جسدها. وقفت لحظة مترددة بجوار السرير كأنها تبحث عن شيء. نظرت إليها وانتابتني دهشة مرحة: جسدها الصغير بالمقارنة بجسد ميشا (المتوسط الحجم) يبدو أصغر بعد أن نضت عنها ثيابها وحذاءها. إنه أيضاً يبدو غلامياً بعض الشيء. فالصدر ليس بذلك الامتلاء والنفور الذي تؤكده الحمّالة الضيقة. الردفان ـ بدون الحذاء العالي الذي يبرزهما ـ يحددان أنوثة جسدها الغلامي. مالت إلى الأرض والتقطت قميصي الذي ألقيت به الليلة الماضية وارتدته فانسدل على جسدها حتى منتصف ردفيها. تحركت سريعة الخطو إلى الردهة بعد أن أغلقت الباب خلفها، لكني سمعت الهمس والضحك من الامرأتين. ضحكاً خالي البال.. فشعرت بالحسد الذي أحسه دوماً حينما أرى امرأتين تتسايران وتتضحكان. لففت جسدي ببشكير كبير وذهبت متحاملاً إلى الحمام. قالت لي ميشا إنها ملأت البانيو بالماء الحار لحمامها هي.. لكن لا بأس إن كنت أريد أن أتحمم. أعجبتني الفكرة فغطست في البانيو أتخلص من تعب الأمس والعرق الذي نشف على جسدي بعد الرقص.

ذهبت مرة أخرى إلى الغرفة حاملاً معي السجائر بعد أن احتسيت كأساً صغيرة من الفودكا تحية لليوم الجديد من السنة الجديدة وتخفيفاً للصداع ـ كما يعتقد أهل بولندا ـ وفي الغرفة كانت تجلس على الفراش ـ وما زالت بقميصي ـ وقد وضعت على حجرها صينية الشاي وبعض السندويشات الخفيفة. أعجبني تحاشيها لذكر تدبيرات ميشا وخططها. أنا أيضاً لم أهتم أن أعرف. لماذا أشغل بالي أصلاً؟ جلست على مقعد صغير أشرب الشاي وآكل وأدخن، مستمتعاً بهذه اللحظة النادرة التي لا يخطط فيها الواحد لما بعدها من الساعات دون ان يضطر لتبرير كسله ورغبته في عدم فعل أي شيء. لم تتكلم هي ولم تسأل. كانت تشرب الشاي وتأكل (لم تكن تدخن لكنها لم تبال بتدخيني) شربنا كأسين من الفودكا وظللت أنا مكاني على المقعد الصغير متمسكاً بتلك اللحظة الهانئة. حينما قامت ووضعت الصينية على الأرض ووقفت في مواجهتي قائلة: هل تريد قميصك الآن؟ قلت لها: لست أريده الآن، لست بذاهب إلى أي مكان. أضفت: يمكننا أن نذهب جميعاً للعشاء في البلد، قالت: أتريدني أن أبقى هنا معك في الغرفة، أم تريد أن تبقى لوحدك؟ تنبهت إلى حرج موقفها. فهي ليست صديقة لي وليس بيننا ذلك التفاهم الصامت بين الأصدقاء. كما أني لم أقم بفعل شيء حتى الآن بالقول أو بالفعل يعطيها إشارة إيجابية. ضممتها إليّ. قبّلت يديها. قلت لها لعلي ما زلت نائماً بعد، وإن وجودها لا يزعجني وإني أريدها أن تبقى إذا كانت هذه رغبتها.

نظرت إليّ متفحصة قائلة هل تريد أن تكون مؤدباً معي أم

أنك بالفعل تعني ما تقول؟ ضحكنا. كانت هي أيضاً تريد أن تبقى بدون أن تفرض نفسها. كنت أريدها أن تبقى برغبتها. كانت ما تزال جالسة على حجري. استكانت الآن وأحسست بها تتكور لتجد لنفسها المكان المريح.

قالت دون أن تنظر إليّ: «لست ملزماً أن تفعل شيئاً» قلت: إنك تذكرينني بشخص ما. بولد كنت أعرفه وأنا في سني المراهقة. هالني ما قلته. أحسست بها تتجمد مكانها. قلت لنفسي ها قد أفسدت كل شيء. قالت دون أن ترفع رأسها من فوق صدري «لم يشبهني أحد من قبل كهذا، أريد أن أسألك.. أي شيء جعلك تقول ما قلت» فكرت: قضي الأمر ولا رجعة. قلت لها جسدك الغلامي خمّنت، سوف تصفعني الآن، أو تنطلق خارجة. لكنها ظلت مكانها، ومن مكانها قالت هامسة: «وهل يثيرك هذا؟.. هذا التشابه» قدت يدها إلى اليقين الذي يمكنها أن تمسك به مستوثقة. قالت: «إذاً فلأكنه. أريد أن أكون الجسد الذي تريد».

في البداية كنت أنا الذي أقود وأوجه. لكنها بعد قليل تملّكت الموقف. جسدها يتوهج بالمعرفة الجديدة التي حلّت محل الرهبة والدخول في الممنوع.

على الأرض حيث تكوّمنا مدت يدها تسحب اللحاف على جسدينا المعروقين. زحفنا حتى أسندنا رأسينا إلى حافة الفراش. دخنت صامتاً بينما كانت هي تلوي خصلة من شعرها الذهبي بإصبعها. تفكها ثم تلويها. قالت: سأقول لك أيضاً على سر. إنها المرة الأولى منذ فترة طويلة. صمتت. أضافت، لم أكن أعرف أن بعض الطرق توصل إلى روما.

علا صوت ضحكنا.. دقت ميشا الباب ودخلت. نظرت إلينا متفحصة ونحن نلملم عرينا. قالت إنها تريد أن تحتفل بنا وبالسنة الجديدة لذلك سوف تفتح زجاجة شمبانيا. جلسنا جميعاً على الأرض نشرب الكأس الأول. قامت الصديقة إلى الحمام. سألتني ميشا بصوت هامس: «كيف كانت» وأومأت برأسها باتجاه الحمام. شعرت أني أريد أن أحتفظ بما دار بيننا. هززت رأسي مداعباً وقلت لها: « ..لم أكن أتصور أنك تعطيني فراشك وصديقتك.. أنت؟». نظرت إليّ متمعنة وقالت: «كلاكما عزيز عندي. لعلك تذكر محاولاتك القديمة لجر رجلي، أذكر أنك حاولت إقناعي بأن أفك. هذا تعبيرك، وأذكر أني هربت، لكن بعد انتهاء علاقتنا وزواجك من بربارا، تغير مستوى علاقتي بك من الإمتلاك (وضحكت هي هنا).. الى الرغبة في المشاركة. ومع أنك الآن حر بعد طلاقك (وضحكت أنا هنا مغيظاً) إلا أني لا أريد أن أنام معك حتى لا أفسد المستوى الجديد من العلاقة التي بيننا وعليك أن تفهم الباقي».

في بداية المساء ذهبنا أربعتنا إلى مطعم أنيق وهادىء وقد ارتدينا أحسن ثيابنا. أحسست أن العلاقة بين المرأتين على مستوى عالٍ من التفهم والحساسية. إنها علاقة طويلة من أيام الشباب والجامعة. والآن كل منهما مطلقة وعلى مشارف الأربعين، تقدم واحدة منهما للأخرى فراشها وعشيقها السابق. وها نحن نجلس في ألفة حميمة نستمتع بصحبتنا.

في اليوم التالي استيقظت متأخراً ووجدت ورقة بجوار السرير من «صاحبتي».. تطلب مني أن أقابلها بعد الظهر في

مكان معين. ما زال الوقت مبكراً على الموعد. أخذت أدور في الشقة الصغيرة الخالية، أقلب في بعض الكتب التي تركتها منذ أن عشنا سوياً. وجدت أيضاً صورة فوتوغرافية قديمة لي منذ أن كنت أدرس هنا وقد وضعتها ميشا في مكان واضح على مكتبها الصغير. شعرت بالخجل، لأنني أضعت صورتها. بقية الأشياء كما هي. ملاءات الفراش. أسطوانات الموسيقى. التحف الزجاجية الصغيرة. جهاز الفونوغراف القديم. إحساس بالارتياح ذلك الذي يحسه الواحد حينما يصل إلى مكانه القديم ويجد أشياءه المألوفة بعد رحلة طويلة (لعل الفراعنة فكروا بهذا حينما وضعوا في مقابرهم الشراب والحلي وأطباق الحنطة والشعير حتى لا يشعروا بالغربة حينما يستيقظون مرة أخرى).

ذهبت إلى الموعد. لكني لم أعرفها من أول وهلة. فقد قصّت شعرها الطويل قصة غلامية. وتحول لونه الأشقر الطبيعي إلى الأسود. قالت وهي تجلس: لعلك كنت تنتظر امرأة شقراء لكني متأكدة أنها لن تأتي في الأيام القليلة المقبلة لقد أرسلت إليك بدلاً منها غلاماً أسود الشعر! قلت مبتسماً: والعينان؟ قالت: «أعرف. ألا تريد أن تترك لصديقتك القديمة شيئاً يذكرك بها؟».

القاهرة ١٩٨٢

حينما رأيتها في الطريق القاهري المزدحم لم أتذكرها فوراً. كانت تسير مع صديقة لها. التفتت هي إليّ وتوقفت مبتسمة. كانت تغالب الضحك. أزعجني هذا بعض الشيء فقد

أحسست أني كنت محور حديثهما. ازداد انزعاجي لأني لم أتذكرها. وقفنا على الرصيف المزدحم نتبادل الحديث المؤدب. قالت هي شيئاً جعلني أتذكرها فوراً. قالت إن أمها ـ وذكرت اسمها ـ تعتب عليّ.. إذ إني طوال هذه المدة الموجود فيها في القاهرة لم أتصل بها بعد عودتي من بيروت. كانت تنقل الرسالة مبتسمة تلك الابتسامة المتواطئة. قلت لها مغيراً جو الحديث إني قرأت لها القصة التي نشرتها أخيراً. بانت الدهشة عليها ـ لأن المجلة المذكورة ليست واسعة الانتشار ـ قلت لها إن القصة أعجبتني وهل عندها قصص أخرى لم تنشر بعد. تضرج وجهها (وأحسست بتفوقي). اتفقنا على أنها ستتصل بي قريباً ووعدتها ان أتصل بأمها. حينما افترقنا تمهلت بعض الوقت واستدرت لكي أنظر إلى أردافها، لكنها كانت تنظر إلى الخلف في الوقت نفسه. انكسفت واستدرنا كل منا في طريقه.

لعلها الآن في العشرين. فحينما كنت على علاقة بأمها لعلها كانت في الخامسة. السؤال الذي يحيرني هل قالت لها أمها عن علاقتنا التي لم تستمر أكثر من شهر. وكيف يمكنني أن أعرف وأنا لا أستطيع أن أسألها ولا أن أسأل الأم (حتى لا أثير شكوكها في اهتمامي بينتها) فجأة انتابتني رغبة عارمة أن أرى كيف تتصرف البنت في الفراش وهل هي حسية كما يقول وجهها المتألق البشرة الشفافة.

اتصلت لمياء ـ هذا اسمها ـ واتفقنا على موعد عندي في المكتب حيث حضرت ومعها مجموعة قليلة من قصصها. اتفقنا أن أقرأ القصص على مهلي، وجلسنا نتحدث. اكتشفت

انها أذكى مما يبان عليها. حساسة وعلاقتها بوالديها معقدة. أعطتني الانطباع بأنها تعرف ـ إلى حد كبير ـ علاقات أمها المتعددة. أعطتني الانطباع أيضاً انها تحب أبيها جداً لكنها متعاطفة ـ أكثر ـ مع أمها، بل وإنها متواطئة معها في إخفاء العلاقة بين الأم ورجلها الأخير. فوجئت أن لمياء تطلق عليه لقب أونكل، وأن العلاقة بينهما ممتازة. كنت أسأل نفسي: هل لمياء ـ حقيقة ـ لا تعرف ماذا بين أمها وأونكل؟ أم انها تستعبط!

رغم أنوثتها الفايرة وتجربتها التي لمّحت لي بها تبدو ما تزال محتفظة بتلك البراءة الشائكة منذ أيام المراهقة.

أخذنا نلتقي بانتظام. فأنا حتى الآن لا أعتبر نفسي داخل الحلقة الواسعة من المثقفين اليساريين والماركسيين السابقين، نتيجة لسفري الطويل ولعدم اهتمامي بإقامة علاقات معهم، لذلك كانت لمياء تجد فيّ مستمعاً شغوفاً بالتفاصيل الشخصية والحزبية التي في السوق. ووجدت أنا فيها العديد من الأشياء التي افتقدتها في السنوات الأخيرة. هذا الجيل من البنات اللاتي لا أعرف كيف يفكرن ويتفاعلن داخل الميكانيزم الجديد للمجتمع المصري. النقود، والخطوات الديموقراطية السياسية والجماعات الإسلامية.

أعتقد أن الجنس هو الترمومتر الذي يعطيني مؤشرات واضحة عن الحركة ـ الداخلية ـ للمجتمع. ليست فقط العلاقات الجنسية بمعناها المباشر، لكن الاتصال الجسدي بكل تعقيداته بما فيها الاحتراف الجنسي ـ كمهنة ـ للجنسين في المجتمع المصري ما بعد الانفتاح.

إن الطبقة التي ننتمي إليها كلانا ـ لمياء وأنا ـ وهي الطبقة الوسطى الصغيرة للمثقفين (إن جاز التعبير) وجدت نفسها منذ نهاية الستينيات في مواجهة التحولات الجديدة. تقييم الجنس بالفلوس. وبالتالي «شراء وبيع» البنات الحلوات الفقيرات الراغبات ـ بمباركة الأهل ـ في التعامل مع أجسادهن ـ الشيء الوحيد الذي يمتلكنه ـ كجسر للخروج من الإحباط البائس الذي تقدمه طبقتهن إلى ما يحلمن به. البيت والأمان، وهكذا تجد البنات اللاتي يدرسن في الجامعة من طبقتنا وهن الغالبية يحملن داخلهن هذا التناقض المدهش. احتقار الذكور من الطبقة نفسها.. واحتقار جهل الأغنياء الذين يحلمن بمشاركتهم فيها من خلال عقد نكاح كما تقول الأدبيات العربية وتقاليدنا الشرقية ولو وهمياً عرفياً كما يحدث بالإضافة إلى حالة من العهر المنظم الغالي الثمن المنتشر داخل أوساط هاته البنات اللاتي ينتظمن في حلقات الدعارة والعناوين السرية والطائرات الخاصة التي تقلع «سراً» من مطارات القاهرة إلى دول النفط وترجع بحمولتها في اليوم نفسه من بنات يدرسن في الجامعة ولكن إغراءات الجامعة العربية (أقصد الشارع الشهير في القاهرة والذي يحمل الاسم على المسمى) تجعلهن يقبلن النكاح بعقد أو بدونه، ويسرن بعد ذلك في الجامعة العربية مرفوعات الرأس ولا من شاف ولا من دري.. وعادي (على رأي فريال)!

أحس أن أيام التعليق (وهو اصطلاح شوارعي مصري، معناه صيد البنات ومصاحبتهن) في سبيلها إلى الانتهاء. التعليق الذي كان يتم بدافع الفضول. الرغبة في المشاركة. أو

الاحتياج الجسدي المتبادل. التعليق الرومانسي بالنظرات المتبادلة من النوافذ أو خلال السير في الطريق أو أيام السينمات الصيفي.. وحل محلها تعليق السواح - العرب والأجانب - النهمين والنهمات من الصيادين والصيادات المحترفين والمحترفات للبنات والذكور من المصريين الفقراء. هنا كانت لمياء تلعب دور المرشد لي في هذه المتاهة الجديدة للمجتمع المصري. فبينما كنت أتعامل أنا مع الظاهرة باندهاش، كانت هي تتعامل معها بشكل عملي. بالأمر الواقع وببعض التقزز.

أريد جسدها أن أدخل إلى نسيجها الداخلي إلى لحمها وغضاريفها أن أمتص كل العصير الذي بداخلها إن جسدها سيعبر بي ألم المعرفة وحاجز العمر والسنين الضائعة هكذا قلت لنفسي مبرراً.

أفهم الآن ذلك الطقس الذي كانت تمارسه بعض القبائل من «آكلي» لحوم البشر الذين كانوا يأكلونهم لكي يتمثلون داخل أجسادهم كل ما في الجسد الآخر من حكمة وقوة أو جمال وشجاعة أريد لحمها ودمها.

قالت لمياء لي ذات يوم - اليوم نفسه الذي أعطتني فيه لحمها ودمها - هل كانت بينك وبين أمي علاقة. أعتقد أن أية إجابة لم تكن مهمة لها بقدر ما كانت تريد البوح بشكوكها. ولما أجبت بالنفي.. رمتني بتلك النظرة العابثة اللعبية. لعل نفيي أكد شكوكها. لعلي لم أكن أريد أن أزيل شكوكها نهائياً.

كانت قد أتت إليّ في ساعة ظهيرة ملتهبة. تلفنت وقالت إنها في الزمالك وهل يمكن لها أن تأتي لقضاء حوالى ساعة،

رحبت وأتت هي بعد دقائق. جلسنا في الردهة المعتمة بعض الشيء بسبب إغلاق الشيش. أدرت المروحة الكهربائية الصغيرة وقدمت لها كركديه ساقع. كانت تبدو مجهدة من الحرارة ومن مشوار الطريق ترتدي فستاناً صيفياً خفيفاً عاجي اللون به ورود صغيرة حمراء وزرقاء. جلست مرتاحة تحتسي الكركديه على فوتيل واسع وعميق وواطىء. أجلس بمواجهتها على أريكة ضيقة.

ألقت بحذائها جانباً ورأيت قدميها الحلوتين تبزغان من الساقين وقد دبغت الشمس بياضهما الوردي. قلت لها: «رجليكي حلوة» ضحكت مرتبكة ووضعتهما على مسند الفوتيل. انحسر الفستان الواسع إلى منتصف الفخذين. ركعت بجوارها أعب من ينابيعها التي تفتحت الآن معبقة جو الغرفة. ينبجس من جسدها فيض من اللون والرائحة والطعم يقتحمني وأحس أني سأنفجر. جسدها يخفق بين يدي وهي تتفتح لي كاشفة ما تخبئه ساترة عريها بلهاثها مفرجة عن لغتها وألمها وضجيجها. جسدها يتضاءل ويكبر. يرسل ضوءه إلى عينيّ فأغمضهما في نهديها.

قلت لها حينما ابتعدنا عن ضجيجنا ولهاثنا وألمنا: أنا أعرف لماذا أريدك. لكن أنت؟ قالت معابثة. سري ولن أبوح لك به. وحينما ألحفت لمّت جسدها تحميه من يدي وقالت: بعدين.

رجعت إلى وحدتي مرة أخرى وتذكرت: ذلك اليوم الذي أتت إلى الشقة ـ الأخرى ـ أمها من حوالى عشرين سنة. بعد ظهر يوم خريفي، وبوعد وموعد مسبق. كنا نجلس في الصالة. أنا على مقعد صغير وهي ممدة على أريكة طويلة واسعة

تتحدث في التليفون. كنت أريدها منذ أول لقاء لنا في بيت أحد الأصدقاء. لم أكن أعرفها من قبل. كنت قد رجعت من رحلة إلى السودان. تعارفنا. التقينا في جروبي. اتفقنا على موعد آخر تأتي فيه إلى الشقة. ها هي ممددة على الأريكة تتحدث براحتها في التليفون. خلعت حذاءها وانحاش فستانها الواسع إلى منتصف الفخذين اللحميين. جسد الأم والأنثى التي تدخل إلى الأربعين. واصلت حديثها في التليفون. أفسحت لي بداخلها قبل أن تنهي حديثها.

حينما انتهت علاقتنا بسرعة ـ أيضاً ـ قالت لمياء إنها «مهتمة»، هذا تعبيرها، بشخص آخر. سألتني: هل يمكنها أن تتعامل معي كصديق بس.. ورغم إحساسي بالغضب وخيبة الأمل إلاّ أني وافقت. كنت أريدها إلى جواري. أستمع إليها وهي تحكي. أراقبها وهي تدخن. كنت أمني النفس سراً بأنها راجعة إليّ بعد أن تتخلص من «اهتمامها» بهذا الشخص. لكنها تباعدت. قالت لي مرة: «أتذكر حينما تقابلنا صدفة أول مرة في الطريق. كنت أحكي لصاحبتي عن صديقة مشتركة. أعرف أنكما (أنت والصديقة المشتركة) كنتما على علاقة انتهت بفضيحة. فجأة، أراك وقد ظهرت أنت أمامنا». قالت: «ساعتها قررت أن أعرفك كويس». قلت لها معابثاً مغتاظاً: «وهل الجنس هو أحد الطرق لمعرفة الواحد كويس؟». قالت: «الطريقة المثلى». تصادقنا أنا وهي بعد أن انتهت العلاقة. نلتقي بشكل شبه منتظم. نحكي لبعضنا. دون لمس. أو قبلات. أو غزل.

أصبحنا أصدقاء كويسين!

الطريق الى بورتسودان - ١ -

يوليو ١٩٦٨

أركب القطار الذي يسافر مرة واحدة في الأسبوع من الخرطوم في الشمال إلى بورتسودان المدينة الحدودية الأخيرة في الشرق والميناء الوحيد أيضاً. إنها المدينة التي شهدت مولدي والتي عشت فيها سنوات الطفولة الأولى. أركب في الدرجة الرابعة وهي عبارة عن مقاعد خشبية أما النوافذ فهي فتحات عليها قضبان حديدية متصالبة (مثل الزنازين) في آخر العربة يوجد زير للشرب ومكعب صغير بجواره بابه يستحيل اغلاقه.. إنه التواليت. القطار يتحرك بعد موعده ببضعة ساعات، وهذا شيء عادي في السوادن. المسافة حوالى ألف كيلومتر يقطعها القطار في الظروف العادية في ثلاثة أيام. هذا يعتمد على المطر وصلاحية الخط المفرد الذي يربط العاصمة بالميناء الوحيد. يتحرك القطار ويبتعد أصدقائي الذين أوصلوني للمحطة. لم يناقش أحد منهم رغبتي في السفر إلى بورتسودان. كنت أريد أن أستقل الباخرة من هناك إلى أبيدجان في ساحل العاج على الطرف الغربي من القارة على

شاطىء المحيط. هناك يعيش «بيير» وهو يهودي مصري كان معنا في السجن (في الحزب) ثم ذهب ليعمل في مصنع تجفيف الفاكهة هناك مع أقاربه وقد تراسلنا حينما كنت في القاهرة وألحت له برغبتي في الذهاب إليه والعمل في المصنع وردّ هو مرحباً لم نتناقش كالعادة في التفاصيل. ماذا تهم التفاصيل؟ المهم السفر. حسبت نقودي المحدودة واتكلت على الله.

رتبت المقعد الذي سأقبع عليه ثلاثة أيام. فرشت البطانية التي استعرتها في الخرطوم. بجواري الشنطة الصغيرة التي بها الأكل والسجائر والدواء. خلعت حذائي ولبست المركوب الخفيف وتأملت حولي في رفاق الطريق. فقراء تشي بهم ثيابهم ووجوههم. ليست هناك معارك على المقاعد مثل القطارات في مصر. لم يحتج أحد على استيلائي على مساحة مخصصة لثلاثة أشخاص. كل واحد رتّب حاجياته ونفسه بهدوء وسكون. أتمدد في مكاني أراقب العربة التي تحولت الآن إلى حوش كبير متحرك ومتأرجح. يرمح الأولاد في الممرات ويتجمع الرجال يتبادلون التمباك والسفّة (وهي التبغ المسحوق الناعم الذي يسفه السودانيون ويحوشونه بين الشفة السفلى والأسنان ويخزنونه). تشرب النسوة الشاي باللبن من الترامس التي أحضرنها معهن من البيوت. آكل لقمة. أدخن. أسرح، وأنعس مهموماً. أستيقظ بعد الظهر أسحب كتاباً كنت أقرأه عن حياة هيمنجواي لكنني لا أستطيع التركيز أقوم أمشّي رجلي. أذهب إلى آخر العربة حاملاً معي سجائري وأقف بالقرب من الباب المفتوح الذي يجلس على عتبته مجموعة من

الشباب يتنسمون الهواء بعيداً عن جو العربة المكتوم. ينظرون إليّ بحذر وفضول. نتبادل النظرات والابتسام والسجائر. أنا أبحث أيضاً عن صحبة نتبادل المعلومات عن أنفسنا لا أقول لهم شيئاً كثيراً عن نفسي سوى أني مولود في السودان وأني ذاهب إلى بورتسودان أبحث عن سفينة إلى أبيدجان. يتقبلون المعلومات بتصديق وبعادية. السودانيون شعب رحّال، ولعل هذا من أيام الهجرات الأولى بحثاً عن المطر والكلإ. إن بعض قبائلهم الرعوية ما زالت تواصل التقليد القديم. الشابان اللذان أبديا اهتماماً بي هما الآن في إجازة من الخدمة العسكرية لمدة شهر. إنهما من بورتسودان لعلهما في منتصف العشرين. على قدر معقول من الثقافة والمعرفة وإن لم ينهيا سوى دراستهما الأولية. أصدقاء من المدينة نفسها. تحدثنا عن الأفلام. عن مصر وعن الأشياء البسيطة. أصبحنا أصدقاء نأكل سوياً من طعامنا المشترك وفي المحطات الكبيرة حيث كان القطار يقف لساعات طويلة (لأسباب مجهولة) كنا نتمشى على رصيف المحطة نشرب الشاي ونطعم طعاماً حاراً وبالليل نهجع في أماكننا بعد أن نكون قد تجولنا في القطار كله.. ما عدا عربة الأكل غير المسموح بدخولها لركاب الرابعة والثالثة لكن القطار يتحول خلال السفر الطويل إلى مجموعة من العلاقات المتسامحة.
حارس الجزء المحترم من القطار الذي رفض دخولنا إلى جنته في اليوم الأول كان يسرّب إلينا البيرة والخبز ويجلس معنا يتسامر في الممر الفاصل بين العالمين. أحياناً نلعب الورق وأحياناً يدور الحديث عن النساء. حكيا لي عن الجمال الخاص الذي تتميز به نساء قبائل «الخاسة» التي تعيش متنقلة بين حدود الحبشة

والسودان (وهي قبائل يقال إنها بقايا الدم الفرعوني السوداني القديم ممتزجة بالقبائل التي كانت تقطن في المنطقة بين شاطىء البحر الأحمر الغربي من جهة أفريقيا) وتتميز هذه المنطقة أيضاً بأنها منطقة مفتوحة حتى الآن للهجرة والتنقل. هجرات الجوع والجفاف والهرب من الحرب القديمة الدائرة بين إريتريا في الساحل الجنوبي على البحر الأحمر والقبائل الأمهرية الحاكمة في بقية الحبشة. عرض عليّ أحدهما أن أقيم معه في بيته (مع أسرته) حينما عرف أن ليس لي أهل في بورتسودان. قلت سأبحث عن فندق رخيص (ليس لراكب في الدرجة الرابعة أن يتظاهر بعكس الحقيقة المادية والطبقية) لكنه أصرّ. وهكذا نزلنا من القطار (وصل في موعده.. يا للدهشة) وذهبنا مشياً إلى بيت أهله الذين استقبلوني بترحاب حقيقي وكشيء طبيعي. الأب يعمل كما عرفت بعد ذلك حارساً في الميناء. رجل نحيل قصير قليل الكلام. صديقي هو الولد الوحيد على مجموعة من البنات لم أرهن طوال وجودي في البيت الذي ينقسم إلى جناحين.. الضيوف وأهل الدار. كنا ننام في الحوش نحن الرجال. يستيقظ الأب مبكراً يحمل إبريق الوضوء ويذهب إلى دورة المياه التركية النظيفة دائماً. يتوضأ ويصلي ويشرب الشاي معنا ويحمل صرة طعامه ويتجه إلى عمله. بعد قليل يدخل صديقي إلى الداخل ويأتي بصينية الفطور. غالباً ما يكون اللبن الرائب والجبن والبيض والفول والكبدة النيئة بالبصل والليمون والشطة. نفطر ونغتسل ونذهب سوياً لنزور أصدقاءه الذين يستقبلونني بترحاب. نشرب الشاي ونتحادث. نذهب بعد ذلك إلى الميناء للاستفهام عن موضوع الباخرة.

ليست هناك واحدة بعد. نرجع إلى البيت نتغدى ونقيّل تحت السقيفة فالحرارة عالية جداً لأن المدينة تقع بين الجبال وتحت سطح البحر بالطبع لا أذكر شيئاً. سألته مرة أن يقودني إلى الكنيسة فقادني إلى الكنيسة الارثوذكسية. بالطبع هو لا يعرف الفرق بين الكنائس المختلفة ولم أحاول أنا الشرح. ما الفائدة. في المساء نذهب إلى المدينة مرة أخرى غالباً إلى السينما مع الصديق الآخر من القطار غالباً إلى فيلم هندي بسيط. دموع وضحك وأغانٍ ورقص ونهاية سعيدة. الولدان عندهما هوس بالممثلات الهنديات بشعورهن الطويلة المرسلة وخصورهن العارية ورقصهن الحسي. هناك في السودان تواصل بين الثقافتين، خاصة أن الهنود رحلوا إلى السودان بعد الفتح البريطاني له يشتغلون بالتجارة يسميهم السودانيون «البونيان» (عرفت فيما بعد أن هذا اسم لعرق هندي) الهنود أيضاً متواجدون بكثرة في المدينة يتاجرون ويعملون كوكلاء للبواخر، ومستوردون للشاي، المشروب الأساسي في السودان ولعل هذا يفسر سر الأفلام الهندية هنا لكنهم لا يختلطون بالسودانيين.

قرر الولدان الذهاب بي إلى ديم رملة حيث «البنات» وهو مكان فقير في أطراف المدينة مقام على ساحة واسعة من الرمال التي تطل على الصحراء. كلمة ديم تعني مكان. لم تكن عندي رغبة (بالإضافة إلى خوفي المقيم من الأمراض السرية) إلا أني لم أستطع التملص.. فكلنا رجال، ومن الطبيعي أن نرغب في بعض التسرية خاصة ونحن عزّاب. وهكذا ذات مساء جميل ذهبنا إلى أكواخ ديم رملة.

هنا يسكن من نبذتهم الحياة، الفقراء الذين لا يمتلكون بيوتاً في المدينة. المهاجرون الذين تركوا بلادهم وأرضهم هرباً من الجوع والجفاف.. الهاربون من القانون أو من الثأر. شذاذ الآفاق، و«البنات» بالطبع. البيوت ـ إذا جازت تسميتها هكذا ـ تتساند على بعضها. ليست هنا شوارع بل دروب وممرات. لا توجد كهرباء أو ماء جار. الكلاب السائبة (وبعضها سعران) تتجول على حريتها.. لكن البشر يطاردونها بالعصي والأحجار. الولدان يعرفان بيتاً معيناً. دقا الباب بثقة وجاء صوت أنثوي «منو؟». كانت الإجابة والتعريف بالاسم. انفتح الباب لنا ودلفنا إلى حوش مظلم. قادتنا المرأة التي فتحت لنا إلى غرفة كبيرة مضاءة بمصباح غازي. بعد السلامات والترحيب والسؤال عن الصحة والأهل وشرب الشاي بدأ الحديث في الجد. المرأة التي فتحت لنا ـ عرفت فيما بعد ـ أنها صاحبة البيت. يطلقون عليها في السودان لقب «ست البيت». لعلها في الثلاثين. لون بشرتها اللامعة مثل الشيكولاته باللبن. العينان فاحمتا السواد والوجه العربي الإفريقي والفم الناصع الأسنان يفتر عن ابتسامة محببة تحيط به شفتان قويتان حسيتان مدقوق عليهما باللون الأزرق، لحيمة لكنها رشيقة تتحرك بتلك الخفة التي يتميز بها جسد كهذا. جسد تسيطر صاحبته عليه تلجم حياته الخاصة مثل الفرس الجموح. العينان الذكيتان تتحدثان ترسلان الإشارات وتراقبان. ترتدي فستاناً قصيراً. صدرها يريد القفز في غيرة من الأرداف الإفريقية التي تلعب بعيداً عن إسار القماش الرقيق. «البنات» في عمر الورد لعلهن لا يتجاوزن السادسة عشرة (الناس ينضجون سريعاً تحت

الشمس الإفريقية... ويموتون أيضاً بسرعة) وجوههن عادية لكنها مليحة. أجسادهن شابة وفتية وتفوح منهن جميعاً رائحة النظافة والبخور والدلكة. واحدة منهن ذات شعر طويل مسترسل.. حينما رآها صديقي ركّز عليها فوراً. تحادثنا في الأشياء المألوفة. اهتممن بي بصفتي المصري القادم من بعيد. كنّ أفقر من «بنات» الخرطوم. أقل دهاءً وأكثر بساطة وسذاجة. طلب أصدقائي الشراب وهذا معناه أن الاتفاق تمّ خلاص. لكن «ست البيت» بعينها النفاذة الخبيرة أحست بعدم راحتي. سخرت مني بلطف: لعلي أفضل البنات البيض؟! لعلي لا أحب بنات السودان «الزرق» كما تسميهن هي. بالطبع أخذت أدافع عن نفسي أحاول أن أضحكها. ذهب صديقاي مع البنتين. أشارت هي إلى البنت الباقية فخرجت. نظرت إليّ بجدية وقالت: «حكايتك شنو يا مصري؟». قلت لها صادقاً: إن البنت لم تعجبني. قالت: أشوفلك واحدة تانية وللا تكسفني؟ قلت لها يائساً أريدك أنت. نظرت إليّ جادة وقالت إنها تدير البيت. قالت إن لها صاحب وهو غيور. قالت ضاحكة حظلك كويس أنه مسافر وإلاّ كان عمل معاك مشكلة. اعتذرت، لكنها أزاحت اعتذاري بحركة من يدها وقالت بما أنك ضيف أصحابي.. أنت ضيفي إذاً. أحضرت بيرة جديدة وقالت: على حسابي. تحادثنا في أمور مختلفة. ننتظر الغائبين بالداخل الذين لم يغيبوا طويلاً. قالت تعال باكر وحنشوف حكايتك وأنت وحظك. كانت تضحك بمرح مستمتعة بموقفي. ساعدتني على الاسترخاء. جاء الولدان ونظرا إليّ بدهشة ونحن نتحادث، لكنهما لم يعلقا. قالت هي: طلبه

ما موجود النهارده. يمكن باكر. ضحكنا جميعاً وخرجنا. في الطريق تبادل الولدان المعلومات عن البنتين. ذهبنا إلى مقهى وشربنا الشاي فما زال الوقت مبكراً بعد على العودة إلى البيت والنوم.

الطريق إلى بورتسودان ـ ٢ ـ ١٩٦٨

انقضى عليّ أسبوع الآن. قلت لنفسي: تكفي هذه الضيافة. أخبرت صديقي بهذا. احتج بعض الشيء. ذهبنا سوياً نبحث عن فندق ووجدنا واحداً رخيصاً وسأشارك الغرفة مع أربعة آخرين. صاحبي هوّن عليّ قائلاً الدنيا حر والناس تنام على السطح. اتفقنا على موعد وتركني. ذهبت إلى القهوة التي اكتشفتها بالقرب من شاطيء البحر والتي يمتلكها خواجة يوناني. أشتري الصحف السودانية وأجلس في فراندة المقهى أقرأ وأكتب هذه الأوراق وأحتسي كميات مهولة من الماء البارد وعصير الليمون المثلج. لم أحس في حياتي بعطش كهذا وجسمي يفقد كميات كبيرة من الماء والملح. اشتريت من الصيدلية حبوب الملح فقد أخذت عظامي تؤلمني نتيجة لفقدان الأملاح من الجسم. في الظهيرة آكل لقمة في مطعم بلدي رخيص ثم إلى الفندق لأقيّل. العصرية مرة أخرى إلى الميناء والسفينة التي لا تأتي ثم إلى المقهى. هناك تعرفت على مجموعة جديدة من البشر. سائح سويدي لعله في الستين وامرأته التي تصغره كثيراً ومجموعة من الشباب. واحد فرنسي وحيد. واحد جزائري ومعه صاحبته الكندية. وامرأة أخرى إنجليزية مسكينة في منتصف العمر لا يريدها أحد في الشلة. لم

يكونوا أصدقاء من قبل. لكن طرقهم تقاطعت في بورتسودان. السويدي وامرأته يقيمان في الفندق أعلى المقهى. الآخرون في فندق أحسن حالاً من فندقي. نلتقي جميعاً في المقهى. كوّنا شلة، أنا والسويدي والزوجة والإنجليزية أكبرهم في العمر.. لذلك نتقارب أكثر من بعضنا. السويدي قال إنه كان يقوم برحلة في الجزء الشمالي الشرقي من القارة. قال إنه يقوم بتجربة سيارة جديدة لشركة فولفو ويلتقط لها صوراً في المناطق الوعرة للدعاية، وإن الشركة تموّل الرحلة. أراني الكتالوج الخاص به وقصاصات الصحف التي تحكي عنه بالطبع بالسويدية لكن صورته الوقورة بلحيته المدببة كانت هناك تؤكد مقولاته. قال إن الأحباش حجزوه على الحدود، عاملوه بقسوة (وهذا شيء غير مستبعد منهم) وأرجعوه مرة أخرى إلى بورتسودان. إنه الآن يفكر في شحن سيارته التي أصابها بعض العطب في باخرة إلى الساحل الغربي لإفريقيا ينتظر الباخرة. الولد الفرنسي يريد أن يذهب إلى مصر. وينتظر سيارة أو لوري إلى الخرطوم أو باخرة. الجزائري عدواني ومتحفظ. الكندية الممتلئة الحلوة تخاف منه وتبتسم صامتة. الإنجليزية تريد أن تذهب إلى الحبشة تستكشف الكنائس القديمة.. لكن الحدود مغلقة من الجانبين.

في الميناء تعرفت ذات صباح على مصري يعمل «مرشد» للبواخر كان يعمل في قناة السويس، لكن الحرب وإغلاق القناة ألقيا به في بورتسودان. ودود وتصادق معي بسرعة. يشكو من الوحدة والفراغ (ليست هناك سفن كثيرة تأتي إلى الميناء) قال إن زوجته النروجية والأولاد ذهبوا إلى النروج في

إجازة فلما لا آتي وأقيم معه في فيلته الكبيرة؟ لم أتردد كثيراً. كان يقاربني في العمر وعنده سيارة أوستن صغيرة. وهكذا ذهبنا إلى فندقي ونقلنا الشنطة إلى الفيلا الأنيقة على أطراف الميناء واستمتعت للمرة الأولى منذ فترة طويلة بحمام نظيف وغرفة خاصة بي وطعام طيب، وكله بيلاش. أراني في اليوم الأول صورة الزوجة والأولاد واكتفينا بذلك عن الحديث عنها وعنهم. كان يأخذني معه في الصباح إلى الميناء ويسأل عن السفن الذاهبة إلى ساحل العاج. أشرب معه الليمون المثلج. أتركه لعمله وأذهب إلى المدينة أتجول قليلاً حتى أتعب من الحر فالتجيء إلى المقهى حيث يأتي ساعة الغداء ليقلني بالسيارة إلى البيت. نتغدى ونقيّل. نذهب في المساء إلى المدينة غالباً إلى السينما لنشاهد كل ما يعرض بدون تمييز من أفلام عربي وهندي ورعاة بقر. يقوم هو بإصرار بدفع كل النفقات (لعله حينما رأى الفندق أدرك الموقف) أحياناً كنت أهرب منه في الأمسيات أو في الظهيرة. يعزمني السويدي على الغداء في الفندق. هو يريد أيضاً أن يتحدث. يدعوني بعد ذلك لأقيّل في غرفته حيث يفرش لي كيس النوم على الأرض ويدير المروحة. أحياناً أذهب بمفردي في العصاري إلى ديم رملة. لا يعرفون اسمي. النسوة يعرفنني بالمصري. أحياناً أقضي الليل كله هناك مع ست البيت في غرفتها الصغيرة النظيفة بعد انتهاء «الشغل». الغرفة تفتح على الحوش الداخلي حيث اكتشفت مجموعة من الأطفال يمرحون ويعيشون هناك.. إنهم أطفال البنات العاملات في البيت (لم أعرف أي طفل ينتمي بالضبط إلى أي أم) الأمهات يتعاملن مع الأطفال بسواسية وعدل

علاقتي مع ست البيت مريحة وإن كان يشوبها شيء من التوتر فهي تحب السيطرة لكنني لم أستمتع بها أو بكرم جسدها الأمومي.

الطريق إلى بورتسودان ـ ٣ ـ ١٩٦٨

قلت لـ «ست البيت» عن رغبة السويدية في الزيارة «استثرت فضولها لأسباب خاصة بي) نظرت إليّ بريبة وقالت: «يعني إحنا فرجة» لكنها وافقت. وهكذا صحبتها في المساء إلى هناك. قال لي السويدي حينما ذهبت إلى الفندق «امرأتي تريدك أن تصحبها إلى بيت أصدقائك (هل كان يعرف باتفاقي السري مع زوجته؟) أرجو أن لا يكون هذا عبئاً عليك» قلت: «لا أبداً ولا حاجة» قال: «لعلي أستطيع أنا أيضاً أن أذهب». أضاف مستدركاً.. «المرة القادمة». تركت الإجابة معلقة. استقبلوها بالترحيب الصادق الذي عبّر عن نفسه في الابتسامات العريضة والليمون المثلج وتقديم الأطفال إليها. في البداية خاف الأطفال منها (فلم يروا من قبل امرأة بيضاء شقراء بعيون زرق) لكنها استمالتهم بالحلوى التي اشترتها خصيصاً حينما أخبرتها بوجود أطفال. كنت أراقب تصرفاتها بعين الصقر فقد حيّرتني منذ بداية معرفتي بها) أتوقع أن تنسحب بوصول أول الزبائن لكنها واصلت الجلوس. قلت لها بالإنجليزية: «علينا أن نذهب الآن فالجماعة عندهم شغل» قالت: «يعجبني المكان وأريد المكوث» سألت «ست البيت» التي كانت تتابع المناقشة بعينيها الذكيتين «القصة شنو» أخبرتها. نظرت كل منهما إلى الأخرى متفحصة. قالت

السودانية «تعالوا نذهب إلى غرفتي. تعال تترجم لنا». هناك قالت لي السودانية «المرة دي دايرة العملية» نظرت إليها مذهولاً. قلت: «لكن قروشها كتيرة خلاص» قالت: «القصة ما قصة قروش. القصة حكاية تاني لكن أنا ما بنت أمبارح هي دايراها بطريقتنا طريقة الديم» قالت لي ترجم. قالت لها: إنها سوف تعطيها غرفة هنا هذه الليلة كتجربة. قالت لها: «إنها تستطيع الاحتفاظ بنصف المبالغ التي ستحصل عليها». حينما ترجمت قالت السويدية إنها لا تريد النقود وقالت إنها تريد إعطاءها للأطفال. ضحكت «ست البيت» وقالت: «وماله». تركناها في الغرفة وأرسلت لها المرأة واحدة من البنات «تحضّرها» كما قالت. جلسنا في الحوش وسألتها أنا كيف عرفتِ؟ قالت: أول ما شفتها عرفت. أنا عارفة النوع ده» «النوع ده من النسوان يازول نوع ما يتعرف بسهولة. آي.. متزوجة وعندها قروش ويمكن بتروح كمان مع الرجالة. لكن القصة ما قصة الرجال الي هي دايراهم. القصة قصة العملية».

الزبون الأول كان في حوالى العشرين ومن الزبائن المستديمين وحينما عرف أن هناك خواجاية أعلن موافقته بترحاب لدفع المبلغ الكبير الذي طلبته منه «ست البيت». قالت لي ست البيت تستطيع أن تبيت الخواجاية هنا لكن من الأحسن أن تخبر زوجها. قالت إنها تتوقع أن ينشغل عليها ويعمل دوشة. حينما رجعت إلى الفندق وجدته في الشرفة. قلت له ما حدث بدون مقدمات. فكّر قليلاً وقال فليكن ما تريد إذا كانت هذه رغبتها وطلب مني أن «آخذ بالي منها». عزمني على عشاء فاخر وويسكي. قال لي: «لعلك تعتقد أني

زوج متساهل». قالها وضحك. قلت محرجاً: «الحقيقة أنا متلخبط» قال: «الموضوع بسيط. أنا لا أمتلكها. هي حرة في جسدها» قال: «لا أظن أن ما تفعله هي الآن هو من أجل تحقيق رغباتها الجسدية فقط. هناك أحلامها الخاصة السرية وفانتازيتها. ليس جسدها سوى الجسر الذي يساعدها على التوازن ويحميها من الجنون والإحباط. «نظر إليّ بتعاطف وقال: «لعلك ستفهم في يوم من الأيام». أضاف: «لا تزعل منها حينما ترفض أن تكمل معك ما كانت تبدأه». لعله لمح الدهشة في وجهي قال مبتسماً: «هل كنت تظنني لا أعرف. أنا أيضاً عندي ألاعيبي الخاصة لكي أحافظ على توازني. كيف تظن أننا نستطيع مواصلة هذه الحياة بنت الأحبة».

ذهبت ونمت في ديم رملة.

الطريق إلى بورتسودان ـ ٤ ـ ١٩٦٨

أخيراً اضطررت للاعتراف بأنه ما فيش مركب. إذاً لا بد من العودة مرة أخرى إلى الخرطوم. أنا الآن على مشارف الإفلاس. لولا أني آكل وأنام عند صاحبي المرشد في الميناء أو في ديم رملة أو أحياناً في الفندق مع السويديين ـ حينما تكون الزوجة بلا مزاج خاص للذهاب إلى ديم رملة ـ لصعبت حالتي على الكافر. أحس الصديق المصري بحالتي وعرض أن «يسلفني» لكني رفضت بإباء وشمم كما يقولون لعلمي أن هذا دين ميت ويمكن تسميته بالحسنة. وجد هو طريقة تحفظ كبريائي. إذ دبّر لي العودة إلى الخرطوم في عربة لوري محملة بضاعة من الميناء. صاحب البضاعة تاجر هندي. يبدو أنهما

أصدقاء. أخذني إليه ذات عصرية وعرّفني به - بعد أن قبلت فكرة اللوري.

عاملني الهندي باحترام مبالغ فيه. يبدو أن صاحبي له علاقات عمل معه. أو لعله دفع له من وراء ظهري وأوصاه أن لا يقول لي. المهم الحفاظ على ما تبقى من ماء الوجه.. بالإضافة إلى أني زهقت من هنا واستنفدت أغراضي ولم يبق إلا الرحيل بعد ثلاثة أيام. أنا مبسوط من فكرة اللوري التي ستنقذني من ملل القطار.

حينما عرفت صاحبتي في ديم رملة أني مسافر إلى «أهلي» في الخرطوم.. لم تسعد كثيراً. قالت: اتعودنا عليك. قلت: وأنا كمان، قالت: إنها ستجهز لي زوادة الطريق (كنت قد ورطت نفسي في علاقة فاشلة معها. أحست هي بذلك فقالت فلنكن أصدقاء وأخوة. أخذنا العهد على بعضنا بالدم. جرح كل منا معصمه ومزجنا دماءنا ببعضها وبالتالي يصبح جسدها تابو عليّ وكذلك جسدي بالنسبة إليها). كانت الخواجاية كما يطلقون عليها في الديم تواصل «عملها» معها بانتظام. أصبحت لها غرفتها وزبائنها ونقلت بعض ثيابها من الفندق ودخلت في نسيج الحياة مع البنات يعلّمنها العربية «وطرقهن» وتعلمهن بعض الأغاني السويدية. قال لي الزوج إنه أيضاً مسافر فقد اتصلت به الشركة وطلبوا منه الرجوع. قال إنهما سيسافران سوياً. اقترح غداء وداعي لثلاثتنا. الباقون من الشلة كانوا قد سافروا في أوقات مختلفة. ذهبت وودعت أصدقاء القطار والوالد الحارس في الميناء.

تغدينا في مطعم يمتلكه لبناني بالقرب من الميناء كنا في

حالة طيبة ساعد على تصاعدها زجاجة الإسكوتش. كانت الزوجة أكثر مرحاً وتحس بالسعادة كما قالت لأنها مسافرة رغم اعترافها بأنها سوف تفتقد هذا «الحر» كما أطلقت على المدينة. ذهبنا إلى الفندق لنقيّل. قال الرجل إنه سيجلس قليلاً في الشرفة وسيلتحق بنا بعد قليل. حينما صعدنا إلى أعلى قالت لي بلهجتها الجادة إنها مدينة لي باعتذار. قلت لها مندهشاً: على ماذا؟ قالت: لأنها لم تكن عادلة معي. فهمت ما تقصد. ففي خلال معرفتي بها وزوجها كانت تتقبل عزلي وتسمح بالكثير من «الحميمية» (كانت تستلقي بجواري على كيس النوم ساعة الظهيرة وزوجها جالس يهوّم على المقعد أو متمدد على السرير وتدير حواراً معنا عن أي شيء ويد كل منا تدير حواراً مع جسد الآخر. ولم نكن نعنى حتى بحفظ المظاهر مثل رمي ملاءة على أجسادنا المتخففة من الثياب في ساعة الظهيرة الحارقة رغم المروحة لكنها أبداً لم تكن تسمح بأكثر من ذلك. كدت أجن. قررت أن أصدمها بأن آخذها إلى بيت الدعارة). تأثرت أنا؛ يبدو أن الواحد متعود على سوء المعاملة. قلت لها خلاص مش مهم. قالت مهم. خلعت ثيابها وقالت أدخل معي إلى الفراش. كانت تتصرف بشكل عملي وحينما لاحظت دهشتي قالت ضاحكة.. هكذا ترى أني أتعلم بسرعة. أحسست بالباب يفتح بحذر وحين حاولت أن أقفز من الفراش (بحكم العادة) أمسكت هي بي وقالت لا أحد غريب.. إنه هو. كنت أعرف ماذا تعني ورمقته بطرف عيني يجلس على الكرسي بجوار الفراش وهو يقول: «أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا حبيبتي» قالت: «لم تزعجنا! لكن لماذا

لا تحضر لنا كأساً لنشرب سوياً. أنا عطشانة. سوف ننتهي بسرعة». حينما استيقظت في المساء كانا يجلسان في الشرفة يدخنان ويدرسان طريق العودة على الخرائط. كانت هي تجلس مرتاحة وقد ارتدت قميصاً رجالياً كبيراً وحافية. قام هو ودق الجرس وطلب لنا شاياً من الجرسون.

الطريق إلى بورتسودان ـ ٥ ـ ١٩٦٨

هذه هي ليلتي الثانية في الجبل. السيارة جديدة لكنها بطيئة فالطريق وعر وغير معبد. السائق ليس خبيراً بالطرق الجبلية كما همس لي المساعد الذي استأجره من بورتسودان، فالسائق قادم من الغرب بدروبه الرملية ليتسلم اللوري الجديد من الميناء. نحن الآن في منطقة اسمها العقبة. وصلناها عند العصر وقد سبقتنا إليها بعض اللواري السريعة بالسائقين الخبراء. وصل بعدنا أيضاً بعض اللواري كنا سبعة لواري. قرر السائقون الانتظار هنا حتى الصباح. ساقوا سياراتهم في السهل ووضعوها في دائرة. أداروا محركاتها وأضاءوا الكشافات. كانوا أيضاً يتحدثون بخوف عن قطّاع الطرق من الهدندوة والبشارية الذين يذبحون المسافرين ويستولون على النقود والبضائع. لاحظت منذ اليوم الأول أن السائقين وعلى الأخص سائقنا يفضّلون دائماً السفر في قافلة. هكذا جلسنا نتناول العشاء الجماعي الذي تناولت أنا منه لقيمات قليلة بعد إصابتي بالإسهال أمس. من حسن الحظ تعلمت أن أسافر ومعي أدويتي. جلست أحتسي الشاي الذي صنعه المساعدون.. أستمع إلى الحديث وأغالب النعاس. المشكلة أني اكتشفت أني

لا أستطيع الكتابة وكل هؤلاء الناس من حولي، حتى ولا القراءة (باعتبار أن ممارسة العملين قلة ذوق إن كان الواحد يسافر في صحبة) أنتظر حتى يهجع الجميع وأضيء البطارية الصغيرة وأكتب بسرعة. لماذا أكتب؟ لا أعرف لكن لعله الجنون المطبق أو للحماية منه.

اليوم التالي

كان السائق يرتعش وهو يدخل إلى المضيق بين الجبلين الذي تحيط به الهاوية العميقة من الجانبين. في الصباح صلّى السائقون جماعة ونذروا نذورهم بصوت عال: ذبائح من الخرفان والماعز إذا ما عبروا بالسلامة. أمس كانوا يشربون الخمر ويتحدثون عن النساء.. هذه دقة وتلك دقة. قام أحدهم وأدار موتور السيارة. مساعده يقف على السلم بجواره ويرشده. الطريق مخيف حقاً فقد ذهبنا نتمشى فيه في الصباح. بالكاد يسع سيارة واحدة. ما العمل إذا ما أتت سيارة من الجانب المعاكس؟ هناك حل بالطبع هو أن يجري أحد المساعدين قبل تحرك السيارات إلى الجهة الأخرى ليقف ويحذر السيارات القادمة وهكذا انطلقت السيارة الأولى وتبعتها بقية السيارات. سائقنا قرر أن يكون الأخير. لعله ما زال يتذكر حطام السيارات التي رأيناها في الصباح مقلوبة ومحطمة والبضاعة مبعثرة في الهاوية. حينما لم يبق سوانا طلب السائق من مساعده أن يركب على السلّم مثل الباقين لكن هذا رفض واقترح بخبث أن يتقدم السيارة راجلاً يرشد السائق. كان قد اختلى بي في الصباح وعرض عليّ أن أرافقه ـ راجلاً ـ بدلاً

من الجلوس في السيارة بجوار هذا السائق الغشيم حسب رأيه. ترددت خجلاً من إظهار خوفي رغم شكوكي القوية في كفاءة السائق. وهكذا وجدتني أجلس بجواره والعرق ينهت على وجهه غير الحليق. عبرنا المضيق بالسلامة كان السائقون ينتظرون جميعهم في الناحية الأخرى. حينما وصلنا هنئوه بسلامة الوصول ببعض السخرية وانطلقوا. أنا متأكد انهم أحسوا ببعض خيبة الأمل. لعلهم كانوا ينتظرون كارثة ليضيفوها إلى مخزون حكاياتهم.

السجن - ٢ -

... ولكن بما أن السجن صورة من النظام البشري «خارج الأسوار» فبالتالي يعكس الصورة الحقيقية «للخارج» بدون محاولات مؤسسات العلاقات العامة لتجميلها. في «الخارج» من يملك النقود يستطيع أن يتخطى الحواجز التي تضعها الطبقات الحاكمة للحد من حركة وحرية المحكومين وفي عالم السجن تتضح الصورة. الأغنياء من المسجونين الذين قاموا باختلاسات مالية وتجار المخدرات.. إلخ. هم ملوك السجن. يستخدمون المساجين الفقراء (صغار اللصوص. النشالون. المتشردون وحتى بعض القتلة .بدافع الثأر أو بالأجر.. إلخ) كخدم لهم وأحياناً كعبيد وفي معظم الأحوال «كزوجات» وهذا هو الاسم الشائع لهذا الصنف من العلاقات. وبالطبع يتم هذا بمعرفة «الإدارة» من الضباط والسجّانة. والشيء نفسه تجده أيضاً في سجن النساء. هناك الكثير من المسجونين الفقراء من الجنسين يحترف استخدام جسده عند الأغنياء - أو الأقوياء - من المسجونين الآخرين طلباً لبعض ملذات السجن (مثل السجائر والطعام الطيب والمخدرات) أو للحماية من عسف السجّانة والمسجونين. هذه الملذات بالطبع متاحة في السجن

لمن يملك. هنا يتحول السجن إلى مكان مريح و«عطلة» لمن يستطيع أن يدفع.. وإلى جحيم لغير القادرين. والسجون المصرية جميعها قد تمّ بناؤها منذ سنوات طويلة. الزنزانة لا يوجد بها مرحاض أو صنبور لماء الشرب. السجن لا يوجد به مكان لتناول الطعام. إنه صورة مكبرة لزرائب البهائم. أنت تتبول وتخرا وتأكل وتنام في المكان نفسه. الفرق الوحيد أنهم يصرفون لكل زنزانة مهما كان عدد الذين يقيمون فيها جردلا واحداً للخراء والبول، وجردلاً ثانياً لمياه الشرب ولكل سجين قروانة واحدة يأكل منها ـ أو فيها ـ ويستخدمها كوعاء لشرب الشاي الماسخ الذي يصرفونه له. الجرادل يتم تفريغها مرتين في اليوم. في الصباح والمساء. هناك المراحيض التي ذهب إليها المسجونون في صحبة السجّانة. إنها بلا أبواب. المسجون «المجرم» مسموح له بالتجوال بحرية أثناء النهار والعمل في المطبخ والحديقة والنظافة (هذا بالطبع لا ينطبق على المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة وهي تكسير الأحجار في الجبل بالوسائل البدائية)، السجين السياسي غير مسموح له إلا بفسحة محددة في اليوم: ساعتين؛ ساعة في الصباح وساعة في المساء. يجمعونهم في طابور في حوش السجن للتمشي. ممنوع الكلام، ومرة أخرى إلى الزنزانة وإغلاق الباب حتى الفسحة الثانية. يوم واحد في الأسبوع هو يوم الحمام الجماعي وصرف طقماً «نظيفاً» من ثياب السجن الداخلية والخارجية «المغسولة» في مغسلة السجن مرة كل شهر. مسموح «للمندوب» بالتوجه إلى كانتين السجن وشراء السجائر وبعض التفاهات الأخرى ـ الضرورية ـ وتوزيعها مرة أخرى على الزملاء. المسجونون

والمعتقلون السياسيون استطاعوا حل مشكلة من يملك ومن لا يملك من خلال حل سياسي اقتصادي أطلقوا عليه اسم «الحياة العامة». إنه أسلوب اشتراكي لإعادة «توزيع الثروة». هناك من تصله من أهله حوالة مالية شهرية منتظمة ـ أو غير منتظمة ـ على أن لا تزيد عن خمسة جنيهات في الشهر (حسب لوائح مصلحة السجون) وهناك من لا يصله أي شيء. تقوم اللجنة الداخلية التي انتخبها السجناء بتحصيل النقود وشراء المطلوب وتوزيعه بشكل شبه متساوٍ على الجميع. صاحب الحوالة يحصل على نسبة أكبر ـ قليلاً ـ من ذلك الذي لم يتسلم أي شيء. وهكذا أيضاً يوزع الطعام والحلوى، والأدوية التي تصل من الأهل خاصة أثناء «الزيارة» التي تتم مرة في الشهر. الزنازين مليئة بالبق والقمل.

في السجون الكبيرة توجد غرفة الإعدام وهي زنزانة لها باب خاص من قبضان الحديد وبها مصباح كهربائي صغير في السقف مضاء باستمرار بحيث يستطيع الحارس أن يراقب المحكوم عليه بالإعدام ليلاً ونهاراً حتى يساق في اليوم الموعود إلى المشنقة الموجودة في جناح منفصل. يوم الإعدام ترفع الراية السوداء على صارية السجن ولا يتم «فتح» السجن ـ أي السماح للمسجونين بالخروج من زنازينهم في الصباح ـ إلاّ بعد تنفيذ الحكم. حينئذٍ تنتاب السجن كله حالة من التوتر يصعب وصفها، لعلها أقرب إلى حالة الحيوانات في المذبح التي تحس بالموت. السجين المحكوم عليه بالإعدام يرتدي الملابس الحمراء ويسير في فسحة بمفرده مقيّد من يديه وقدميه. يوم الإعدام ـ وبعده ـ تنتاب السجن حالة من الحزن الذاهل لكنها سرعان ما

تنداح تدريجياً تحت مطرقة الحياة اليومية وشروط البقاء. السجين الذي يضرب عن الطعام يوضع في زنزانة التأديب. يسجن منفرداً. لا يفتح عليه سوى مرة واحدة في اليوم للذهاب لمدة عشر دقائق إلى المراحيض وتنظيف الجردل. يحرم من الفسحة ويأخذون منه السجائر ولا يسمحون له بلقاء وكيل النيابة (للتحقيق في مطالبه أو شكواه) إلاّ بعد مرور ثلاثة أيام. قبل ذلك يعاينه الطبيب ليستوثق أنه لم يأكل سراً (غالباً ما يكون الطبيب متواطئاً مع الإدارة) السجن الوحيد الذي لا تطبق فيه هذه «اللوائح» هو معتقل الواحات. لعل السبب في بعده عن العاصمة (أكثر من ألف كيلومتر) ولعل إحساس الجميع من معتقلين أو حراس بأنهم يعيشون تحت الظروف نفسها من شحة الطعام ورداءة الطقس (شديد الحرارة في الصيف وقارس البرودة في الشتاء) والبعد عن الحياة والعمران. يعيش الحراس في خيام لمدة ستة شهور ويعيش المأمور ومساعده في بيوت صغيرة ولا يأخذون إجازة إلاّ مرة واحدة في الشهر. في الواحات يحاول السجين السياسي الإمساك مرة أخرى بروحه وجسده بعد رحلة «ترحيلات فجائية» بين السجون المركزية. السجن يبعد مسافة كبيرة عن الواحة نفسها التي يعيش فيها حفنة من الأهالي استقروا فيها منذ آلاف السنين. معنيون بأمور بقائهم ولا يعنيهم أمر السجن. المعتقلون يستطيعون إقامة علاقات أحسن مع الحراس، الذين يقومون بتهريب الرسائل من وإلى المعتقل وكذلك الكتب وأجهزة الراديو الصغير. كل هذا بثمن باهظ بالطبع، والفضل في ذلك يرجع إلى الدولة التي تعطيهم راتباً لا يكفيهم حتى الكفاف.

وهكذا يتحول السجن بالتدريج البطيء إلى مكان يمكن الحياة فيه. هناك مزرعة صغيرة انشأها المعتقلون خلال السنوات الطويلة والمتلاحقة من الاعتقالات على مر الحكومات المختلفة، وتمّ الحفاظ عليها من إدارة السجن لأنها تمد الجميع ببعض الخضروات الضرورية في هذه الصحراء، بل ثمة فرن أيضاً لصنع الخبز يديره المعتقلون. في الجزء الآخر من السجن يوجد عنبر المسلمين. العلاقات بينهم وبين المعتقلين السياسيين الآخرين من يساريين وشيوعيين معقولة. هناك أيضاً بعض «المجرمين» الخطرين الذين تمّ اعتقالهم بعد انقضاء مدة سجنهم. العلاقات معهم محدودة. يدير المعتقلون معظم شؤون حياتهم بدون تدخل مباشر من الإدارة. تتحرر الروح تدريجياً من الخوف اليومي ويتقبل العقل فكرة اعتقال غير محددة. المزرعة التي تبعد بضعة كيلومترات ويذهب إليها المعتقلون عن طيب خاطر. هواء وشمس وخضرة بل وبركة ماء صناعية يمكن التبرد فيها. ولأول مرة يمكن الاغتسال عدة مرات في اليوم الواحد. الذهاب إلى المراحيض كما يحلو للواحد (أقام المعتقلون الأبواب لها) التجوال في البراح الواسع في فناء السجن. الزنازين لا تغلق ليلاً.. فقط الباب الخارجي للعنبر فيستطيع الواحد أن يتنقل كما يحلو له في حدود العنبر يتسامر ويحكي ويدخن ويشرب الشاي ويحلم. هنا تتوثق العلاقات التي تنمو في هذا الجو «السماوي» بالمقارنة بالسجون الأخرى.

تاريخ شخصي ـ ٣ ـ

كانت التنظيم الماركسي الذي التحقت به في البداية اسمه

«طليعة العمال والفلاحين» تحول اسمه بعد ذلك إلى «حزب العمال والفلاحين». أسست التنظيم مجموعة من اليهود المصريين، وأخذ يتمصّر تدريجياً بعد ذلك. لم تكن هناك غضاضة من وجود يهود مصريين في التنظيمات الماركسية المصرية أو حتى في قيادتها. كان الماركسيون المصريون - ولا يزالون - يعارضون النظرة العرقية التي تعادي اليهود. ويؤكدون على الفرق بين اليهودية كديانة وهوية وبين الصهيونية كمذهب سياسي يعتمد على التوسع العرقي - الديني. وفي السجن تحولت من هذا التنظيم إلى تنظيم آخر وهذا يتم كثيراً في السجن. هناك أسباب محددة، أهمها الاعتراض على الخط السياسي للتنظيم. ولما كانت جميع التنظيمات عملياً في المعتقل، فقد كان كل تنظيم يعيد تنظيم أعضائه هناك في خلايا تعتمد بالأساس على الخارطة السكنية لأعضاء التنظيم. وكانت الإدارة في الواحات تطلب من السياسيين المعتقلين اختيار لجنة تمثلهم أمامها لحل المشاكل اليومية. وهذه اللجنة مكوّنة من مندوبين من جميع التنظيمات، وهي التي تقوم بتسكين المعتقلين طبقاً لانتماءاتهم الحزبية. لم تكن إدارة المعتقل تهتم بهذه التفاصيل بل تركت تنظيم الشؤون الداخلية للمعتقلين لهذه اللجنة. كان من يستقيل من تنظيمه القديم وينضم إلى تنظيم آخر عليه أن يحمل برشه وأغراضه القليلة و«يسكن» في زنزانة أخرى مع أعضاء تنظيمه الجديد. هناك كان أيضاً: المستقلون؛ هؤلاء ليسوا أعضاء في أي تنظيم. إما لاستقالتهم للأسباب السابقة أو لأسباب أخرى، قد تكون شخصية أو تنظيمية. هؤلاء كانوا ينفردون بزنزانات خاصة بهم

ليس فيها أعضاء من أي حزب. كان ينضم إليهم أيضاً: «المعترفون» هؤلاء يتم فصلهم من العضوية ولا يسمح لهم بالسكن مع الأعضاء. كان المستقلون يقبلون على مضض مبدأ تسكين المعترفين معهم، الذين ينظر إليهم حتى من إدارة السجن نظرة احتقار. كان التنظيم الذي انضممت إليه ـ الوحيد ـ الذي كانت له علاقات بمجموعة «الضباط الأحرار» قبل «الثورة»، ولكن عبد الناصر انقلب عليهم مثلما انقلب على الأخوان المسلمين ـ الذين كانت لهم علاقات به قبل الثورة أيضاً ـ ولكن الماركسيين في ذلك التنظيم حاولوا الحفاظ على علاقات معقولة مع المؤسسة الناصرية الحاكمة، حيث كان تحليلهم السياسي: إن عبد الناصر قائد وطني ومن الضروري «إقناعه» بالتعاون معهم رغم اعتقالهم وتقديمهم مثل بقية التنظيمات ـ تلك التي كانت تطالب بسقوطه ـ إلى المحكمة العسكرية، التي حكمت على الجميع بأحكام طويلة تصل إلى تسع سنوات. هذا التنظيم قاد في المعتقل معركة فكرية تأييداً لعبد الناصر حينما قام هذا بالتأميمات الشهيرة وتأسيس القطاع العام. كذلك قاد التنظيم حملة من أجل إقناع أعضائه بحل التنظيم «الحزب» باعتبار أن عبد الناصر بدأ في بناء الاشتراكية، وأنه بالتالي لا توجد ضرورة لوجود حزب ماركسي. كانت هناك مباحثات سرية تجري (في السجن وفي الخارج) بين التنظيم والدولة من أجل حل الحزب والانضمام إلى تنظيم عبد الناصر شبه السري والمسمى «التنظيم الطليعي».

وهكذا وقّعنا جميعنا ـ أعضاء هذا التنظيم ـ على وثيقة حل الحزب. كان ذلك قبل الإفراج عنّا بأسابيع قليلة.

حينما تمّ الإفراج تفرق «الرفاق» كل إلى حيث يعيش. يحاول أن يلملم ما تبعثر من حياته، وأن يتأقلم مع الحياة من جديد وبالأخص مع المتغيرات السياسية. وهكذا وجدت نفسي بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر من السجن والاعتقال، في الشارع فجأة. أبحث عن عمل وعن أصدقاء وعن مكان للسكن (فقد كنت لا أريد أن أعيش مع أسرتي التي انتقلت إلى الإسكندرية) أحاول أن أعيد ترتيب حياتي واللحاق بما ضاع منها.

يعتقد البعض أن تجربة مثل تجربة السجن «هامة». أعتقد أنا أنها تجربة غير ضرورية، وأنها تترك آثارها العميقة في النفس البشرية. آثار لا تمحوها السنون. تطارد الواحد في كوابيسه وتشكل نمط حياته لسنوات طويلة، وتخلق إحساساً بالمرارة (يتضاعف مع أوقات الفشل) يرافق الواحد طوال حياته.

لم أنضم إلى التنظيم الطليعي (فقد قررت أن أستقل بحياتي بعيداً عن السياسة). دفعت ثمن ذلك بعدم حصولي على عمل يتناسب مع قدراتي. حصل الذين انضموا إلى التنظيم الطليعي على مناصب أعلى بكثير من قدرات البعض منهم. هل أنا نادم على هذا الآن؟ بالتأكيد لا. فقد انطلقت بحياتي بالطريقة التي أريد. سافرت وتجولت وتصعلكت وأحببت وخضت «تجارب» تفوق في رأيي في الأهمية والضرورة تجربة السجن. وحين أقابل بعض «الرفاق» الآن بالصدفة وخاصة أولئك الذين يتميزون بالتفاهة والسطحية والذين ـ بحسن نية أو بغباء ـ وقفوا مع عبد الناصر بحجة بناء «الاشتراكية العربية» وأيدوا إجراءاته الديكتاتورية.. أراهم الآن وقد شاهت معالمهم بعد أن

سلّم عبد الناصر مصر واشتراكيته العربية لأنور السادات، الذي أعلن احتقاره لها ولهم ولكل ما قاموا به خلال بنائهم «للاشتراكية» مع عبد الناصر. نعم.. حينما أراهم، لا أحس بالندم على قراري.



السجن - ٣ -

في السجن كتبت مسرحيتي الأولى. كانت عن مقتل لومبا (باتريس لومبا الذي كان أول رئيس لجمهورية الكونغو بعد الاستقلال عن بلجيكا). لم أكن قد كتبت مسرحيات من قبل؛ لكن الفضل في ذلك يرجع إلى مسرحية مثّلناها في معتقل الواحات للكاتب المصري «نعمان عاشور» اسمها «علية الدوغري» وقد شاركت فيها بدور أساسي (دور امرأة بالطبع لعدم وجود نساء في السجن) وقد هزتني فكرة الاتصال المباشر مع الجمهور. لم تكن هناك أوراق متاحة لنا في الواحات لكن الأوراق السميكة التي كنا ننتزعها من زكائب لبن المعونة الأمريكية التي كانت إدارة السجن توزعه على المسجونين، الذي أدى الغرض المطلوب منه. (سبّب اللبن الذي كان يأتي على شكل بودرة في حالات من الإسهال الحاد فاستعملناه في صنع الجبن وفي تخطيط ملاعب كرة السلة). اعتبرتُ نفسي كاتباً مسرحياً خاصة بعد أن كتبت مسرحية «يا ليل يا عين» بعد الإفراج عنا وكانت «بمناسبة» هزيمة مصر أمام إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧. بعد ذلك كتبت مسرحية أخرى عن السد العالي. كانت مسرحيات ساذجة لكنها أيضاً لم تكن تختلف

في سذاجتها عن ما يقدم على المسرح المصري أيامها من المسرحيات «الملتزمة». حينما درست في وارسو الإخراج المسرحي وأمضيت فترة من الزمن أشاهد المسرح الأوروبي المتقدم وخاصة مسرح جروتوفسكي «مسرح المختبر» تغيرت فكرتي عن الكتابة المسرحية؛ لكن الفترة التي أعقبت الخروج من السجن كانت فترة مليئة بإعادة اكتشاف النفس والأشياء المحيطة. لم يكن الأمر سهلاً. ففي داخلي تعيش بذور «الفوضوية» بالمفهوم الفلسفي ـ السياسي. لقد تقبّلت سلطة الحزب مضطراً بعد أن دمرت في داخلي سلطة الأسرة والكنيسة والمؤسسة. لم يكن من السهولة عليّ أن أتقبل من جديد سلطة الدولة الناصرية الشمولية. لم أستطع اللحاق بأي عمل تقدمه الدولة للشيوعيين المفرج عنهم (أقامت الدولة تنظيمها السري). وفي الوقت نفسه كانت هناك لجنة يرأسها ضابط من المخابرات اسمه «سمير مصلح» يذهب إليها الشيوعيون الراغبون في الالتحاق بعمل فتقوم اللجنة بتشغيلهم. ذهبت إليها ولم أكن أعرف أن العمل مرتبط أيضاً بشرط الالتحاق بالتنظيم السياسي السري الذي لم أكن متحمساً له. هكذا وجدت نفسي بدون عمل وبدون تنظيم سياسي. استطعت أن أجد عملاً في وكالة نوفستي الروسية (كمترجم من الإنجليزية إلى العربية) وذلك بعد الانتهاء من رحلة الكتابة عن مشروع السد العالي في الكتاب الذي كتبته بالاشتراك مع صنع الله إبراهيم وكمال القلش. تقطعت الأسباب بيني وبين «الرفاق» القدامى عدا قلة احتفظنا بعلاقات صداقة وثيقة.

رجعتُ مرة أخرى إلى السودان عام ١٩٦٨ وكانت تلك

أولى رحلاتي في محاولة الرجوع مرة أخرى إلى البدايات الأولى. أن أبدأ من جديد. وأن استكشف تاريخاً وماضياً من تحت تراب الزمن. إن اقتناعي بأني أشبه والدي في الكثير من الملامح النفسية دعاني لأن أحاول أن أتبين الأسباب التي دعته لأن يقيم حياة جديدة ومختلفة في السودان عن حياة اخوته وجدوده الذين لم يغادروا مصر مطلقاً. اشتراكنا في التمرد على الأعراف السائدة والرغبة في المعرفة وعدم تقبل الأمور على علاتها وحب السفر والنهم للحياة ومسراتها العقلية والجسدية؛ كل هذا جعلني لا أرتبط بجذور عمياء وعاطفية بـ «مصر» كمكان يعلو فوق النظرة الناقدة؛ وهذا بالاختلاف مع الكثيرين من المثقفين الذين يرهبهم تابو «نقد الوطن» وتحويله من «مكان» يجب أن تتوفر فيه شروط الإقامة المادية والنفسية والإنسانية الديموقراطية؛ إلى قدس أقداس.



كيف تحولت حماة تربية الخنازير
الى جمهورية الشيخ جابر الإسلامية؟

إمبابة ـ ١ ـ

١٩٩٢

أسكن الآن في إمبابة. في الحقيقة ليست إمبابة بالضبط، لكنها منطقة تدعى: المنيرة الغربية. إنها تقع على الحدود الغربية لإمبابة. منطقة تطلق عليها الأجهزة الحكومية (وكذلك الميديا بالتبعية) «المناطق العشوائية». إنها مجرد «شانتي تاون». مساكن مبنية من الطوب والحديد والإسمنت، بدون مياه جارية، وبدون صرف صحي. بها توصيلات للكهرباء وبعض خطوط التليفون. يسكنها حوالى المليون. أغلبهم من مهاجري الصعيد الذين يعملون في البناء والأسواق، وسيارات النقل والتاكسي وخدمة المكاتب والمنازل (التخصص الأخير تحتكره النساء). الشوارع ـ مع التسامح في التسمية ـ ضيقة ومتعرجة وغير مرصوفة ومليئة بتلال الزبالة والكلاب الضالة والمعيز والأطفال أيضاً.

ظهرت هذه المنطقة في نهاية الستينيات حيث كانت تستخدم كمكان لإلقاء زبالة المدينة (تطبيقاً للتقليد المصري القاهري في التخلص من الزبالة بإلقائها في منطقة على أطراف المدينة بدون معالجتها كيماوياً أو حتى حرقها) حيث يأتي الزبالون بعرباتهم المتهالكة التي تسحبها الحمير المتعبة من كافة أرجاء القاهرة إلى هذه المنطقة للتخلص من حمولتهم. بالطبع تنبت حول أكوام الزبالة حرفتان تقليديتان. الأولى، ذلك النوع من البشر الذين يفرزون الزبالة. الحديد على جنب. القماش. بقايا الطعام.. إلخ. هؤلاء الناس يسكنون بالقرب من مصدر رزقهم. يسكن بجوارهم الناس الذين يربون الخنازير التي تطعم من بقايا الطعام المفروز من الزبالة هناك. يعيش الجميع ـ مع الخنازير بالطبع ـ في المكان نفسه. بقي أن لا ينسى الواحد أن تربية الخنازير وبالتالي التعامل معها وأكلها، أحد التابوهات المحرمة في الدين الإسلامي. إذاً من المنطق الطبيعي، أن يكون «الخنازيريون» من المسيحيين الذين ليس عندهم ذلك التابو التحريمي بل يمتلكون المتاجر المخصصة لبيع لحم الخنزير الذي يأكله فقراؤهم ومعظم الغربيين الذين يعيشون في مصر. وفي بداية السبعينيات تنبهت الدولة ـ لأسباب مجهولة ـ إلى خطورة هذه المنطقة على البيئة وعلى الصحة العامة، فعملت على إزالتها ـ بالطريقة المصرية الحكومية ـ أي بمنع إلقاء الزبالة هناك، لكنها تركت المساكن والسكان وبقيت الحال على ما هي عليه. علماً بأن الخنازيريون انتقلوا بخنازيرهم إلى مكان آخر لكنهم باعوا مساكنهم «العشوائية» للنازحين إلى القاهرة والذين لا يجدون لأنفسهم مأوى في قاهرة العشرة ملايين

(أيامها). بالطبع باعوها لمن قدم الثمن المناسب دون أن ينسوا ـ أمام إغراء المال ـ أخوتهم في الرب. لذلك جاءت غالبية المستوطنين الجدد من المسيحيين القادمين أيضاً من الصعيد. هاربين من الفقر والتعصب والثأر الدموي. أتوا بجهلهم وقذاراتهم الطبيعية وعادتهم «الصحية» وتعصبهم وخوفهم المقيم من غير المسيحيين أمثالهم. بالطبع شيّدوا كنائسهم «العشوائية أيضاً» وبدون الخضوع للإجراءات المتبعة الموروثة من زمن الاحتلال التركي والخليفة العثماني، حيث كانت ـ ولا تزال ـ تحرم بناء الكنائس (أو حتى إصلاح القائم منها بدون التصريح الخاص بذلك من الدولة)، لكن مع تزايد أزمة السكن في القاهرة حيث لم تعد المقابر تستوعب النازحين إليها ـ من الأحياء بالطبع. ـ اتجه العشوائيون إلى مناطق الخنازير السابقة واحتلوها بوضع اليد. مجرمون هاربون من السجن أو من أحكام قضائية. تجار مخدرات. أماكن للفرجة شبه السرية على أفلام البارنوجرفي الممنوعة رسمياً، مصانع صغيرة سرية لصنع الأسلحة لمن يدفع ويرغب في حماية نفسه في غيبة الدولة، أو في تصفية حسابات دموية قدمية. هذه مناطق لا تستطيع الشرطة دخولها أو حتى التظاهر بأنها موجودة فيها. الدولة أخلت مسؤوليتها واكتفت بعدم توصيل المياه والصرف الصحي. لكن الدولة لم تتوان عن تحصيل فاتورة الكهرباء من السكان هناك، الذين يمتلكون اشتراكات قانونية كهربائية. كذلك قررت وزارة النقل معاقبتهم بعدم توصيل خطوط أتوبيساتها المتهالكة والمزدحمة إليهم، فاخترع العشوائيون أتوبيساتهم العشوائية. مجرد سيارات نقل صغيرة منهارة

معظمها بدون فرامل وبدون غطاء يقي الراكب حر الصيف أو برد الشتاء. جميعها تعمل بدون ترخيص. الدولة لن تعطي ترخيصاً لهذه السيارات المميتة، وليس هناك مواطن عاقل يذهب إلى الدولة بمحض إرادته ليطلب منها شيئاً. بالإضافة إلى أن السائقين لا يحمل معظمهم ترخيصاً بقيادة سيارة. هنا اكتشف ضباط المرور الصغار إمكانية جديدة لزيادة دخلهم، فشاركوا السائقين في ملكية أتوبيسات الموت التي أخذت ترمح بجرأة في شوارع القاهرة المزدحمة تنقل العشوائيين إلى مناطق نشاطهم ـ المشروع منها والممنوع ـ بوساطة وسائل انتقال يمتلكها العاملون في الأمن.

إلى هناك انتقل ونشط أيضاً «المتطرفون الإسلاميون». الشوارع والبيوت نماذج عملية لحرب الشوارع كما أثبتت الحوادث الدامية بعد ذلك. هناك أيضاً يمكن تصنيع الأسلحة وإخفاؤها. هناك أيضاً يشترك الجميع في العداء التقليدي والكراهية المصرية «القومية» للدولة وأجهزتها، فلن يتطوع أحد بإبلاغ الدولة عما يحدث في غيبتها. هناك الفقر الحقيقي الذي ينبت بذور «الصراع الطبقي» الذي يمكن تحويله بسهولة إلى صراع ديني. هناك من يعيش بالعنف منذ نعومة أظافره (أو لعلها خشونتها). حرب الشوارع بين المراهقين. الأسلحة البيضاء في أيدي الجميع، الكبت الجنسي الذي يجد تصريفاً له في حالات الخطف والاغتصاب المنتشرة هناك. استيلاء الجهلة على المساجد وتحريضهم العلني على التمرد والعنف. أخيراً وأهم شيء العلاقة العميقة والغامضة للمصري ـ المسلم والمسيحي ـ التي تربط بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة،

ومحاولاته الدؤوبة منذ أيام الفراعنة على دمج الحياتين معاً. الرعب من الموت ومن الآخرة ومن العقاب الإلهي منذ أيام أوزوريس وكتاب الموتى. تسليمه الكهنة كافة حقوقه المدنية وإعطاؤهم الحق المطلق في معرفة «الأسرار الإلهية والقوانين الدنيوية»، باختصار ربط الدين بالدولة والدنيا بالآخرة.

هكذا وجدت نفسي أعيش هناك، منتقلاً من الزمالك حيث مبان السفارات الأنيقة والشوارع المضيئة. السكان الكوزموبوليتانيون، إلى جمهورية الشيخ جابر الإسلامية. (هذا اللقب قدمته شبكات التلفزيون العالمية في حوارها مع الشيخ جابر والذي نقلته إلى العالم الخارجي عبر الأقمار الصناعية، التي أعلن الشيخ جابر أنها بدعة شيطانية).

لكن لماذا انتقلت بكتبي وأغراضي وحماقاتي إلى هناك؟ أعتقد أني لن أهتم بالإجابة. لسبب بسيط. إنه موضوع شخصي.

إمبابة ـ ٢ ـ

البيت الذي أسكن فيه يمتلكه المقدس زخاري (المقدس: لقب يناله المسيحي الذي يذهب إلى القدس ويزور المزارات المسيحية. منذ سنوات طويلة حصل عليه العديد من المسيحيين المصريين الذين لم يغادروا قراهم المجهولة حتى يوم وفاتهم. حصلوا عليه بقوة الأمر الواقع أي باعتبارهم أغنياء طائفتهم أو حرفتهم أو قراهم. ينطبق الوضع تماماً على لقب «حاج» بالنسبة إلى المسلمين). أسكن في الطابق الخامس (بدون مصعد بالطبع) في شقة مكونة من غرفتين وصالة. إحدى الغرف تطل

على الشارع الرئيسي واسمه «شارع الأقصر»، لعل السبب أن سكان الشارع قدموا من الأقصر والقرى المحيطة بها، لكني تعجبت لألاعيب القدر التي جعلت «الأقصر» تطاردني إلى منفاي الاختياري.. هذه الغرفة اخترتها لأنام فيها. بالكاد تتسع لسرير ومنضدة صغيرة وضعت عليها أوراقي. الغرفة الأخرى وضعت فيها ملابسي. الصالة بها تلفزيون صغير أبيض وأسود. ثلاجة. الصالة تفضي إلى المطبخ وإلى الحمام والمرحاض. آكل في الصالة وجباتي التي أعدها بنفسي. أضع الطعام على صينية صغيرة على الكنبة المواجهة للتلفزيون. في الليل أتناول العشاء وأتفرج على التلفزيون (بدون صوت. هذه إحدى هواياتي)؛ هذا بالطبع إذا لم تقرر شركة الكهرباء الحكومية حرماننا من الكهرباء ـ كما يحدث أكثر من مرة في الأسبوع الواحد ـ وذلك بتفضيلها إعطائها للأحياء الأخرى الغنية (لأن شبكة كهرباء القاهرة لا تستطيع تغطية احتياجات المدينة في وقت واحد) أجلس في البلكونة أراقب المقهى التي تقع قبالة المنزل. الجميع في الشارع الآن يعرفون أني مسيحي لأن القانون غير المكتوب والمطبق بحزم هنا هو الجيتو. المسيحيون لا يستطيعون استئجار شقق في بيوت يمتلكها المسلمون؛ والعكس صحيح. العين بالعين والشقة بالشقة. رواد المقهى أعرفهم بالشكل من بعيد لبعيد. الوجوه هي نفسها في معظم الأوقات. من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل. بالطبع معظمهم بدون عمل. يختفون بعض الوقت ليرجعوا ويواصلوا ما كانوا لا يفعلونه.

أرى أم أشرف من بعيد تحمل جركل المياه «النقية نسبياً» فوق رأسها وتتجه إلى باب البيت. إنها تبيع المياه التي تحملها

من مسافة بعيدة إلى الشقق العالية وإلى «المترفين» من أمثالي الذين لا يستطيعون حمل جراكل المياه الثقيلة إلى الطابق الخامس. هناك حركة دائبة من النساء والأطفال يحملون المياه معظم ساعات النهار لبيعها أو للاستخدام الشخصي. أشعر سكينة هادئة. الشارع لا تدخله السيارات (لا أحد يمتلك سيارة هنا)، بالطبع عدا السيارات القديمة المخصصة لنزح الخراء من الآبار الصغيرة المتواجدة أمام كل بيت. أحياناً تفيض الآبار فيقفز إليها الأطفال ـ عراة ـ ليلعبوا في البركة الجديدة التي تسيح في الشارع. تفوح في الهواء رائحة مقيتة. الضجة الوحيدة التي تعودت عليها هي تلك المنبعثة من مذياع المقهى الذي قادني بالرغم مني الى نوع جديد من «الموسيقى والأغاني» كانت مجهولة لي من قبل. أسماء مجهولة تماماً لأمثالي.. أغانٍ تتحدث باستمرار عن خيانة الحبيب وغدر الصديق وعن «الدنيا» التي لا أمان لها. أرى كثيراً من اللحى فوق القليل من الثياب المهلهلة، وكذلك «الحجاب» فوق رؤوس البنات الصغيرات والسيدات. هذه الأشياء تختفي مؤقتاً حينما تشد الحكومة حيلها وتقرر أن تقوم بحملة اعتقالات «عشوائية». الحكومة تلقي القبض على الملتحين بدون تمييز. حينما يهدأ الوضع تظهر اللحى من جديد. (من وجهة نظر الحكومة: كل من يرتدي جلابية ويطلق لحيته هو بالضرورة منتمي إلى الجماعات الإسلامية).

ذات ليلة حشدت الحكومة ـ حسب التقارير الرسمية ـ عشرين ألف جندي ودعمتهم بالأسلحة الرشاشة والسيارات المصفحة. أعلنت الحكومة الحرب على الشيخ جابر. فقدت

الدولة ماء وجهها بعد أن نقلت الأقمار الصناعية صورة الشيخ جابر وتصريحاته النارية التي أعلن فيها قيام جمهوريته الإسلامية التي ستزحف جحافلها ـ كما قال ـ على بقية المناطق الكافرة لترجعها بحد السيف مرة أخرى إلى الدين الصحيح. المدهش أن الشيخ جابر ـ قبل إعلانه الحرب المقدسة ـ كان يمارس مهامها لعدة سنوات من مناطقه «المحررة» في المنيرة الغربية وبالذات من شارع الأقصر حيث كان يسير صباح كل يوم جمعة إلى المسجد الذي يؤم فيه مريديه محاطاً بكوكبة من حرسه الشخصي وقد تسلحوا بالسيوف والمدى والبنادق. كان أيضاً يعطي الإذن (أو يمنعه.. حسب مزاجه) بإقامة حفلات الزفاف وما شابهها بشريطة أن يقدم له أصحاب الفرح «التبرع» الذي يحدد هو قيمته دعماً لنشر الدعوى الدينية في المناطق الإسلامية المحررة. لكن الحكومة فقدت ماء وجهها ـ كما يقولون ـ حينما تناقلت وكالات الأنباء العالمية تصريحات الشيخ جابر (رغم قيامه قبل ذلك بمناوشات مسلحة على معاقل الأعداء من مسيحيين ومسلمين). السبب المعلن الذي قالته الحكومة حينما أعلنت الحرب على الشيخ جابر: إن تصريحاته تضر بالسياحة وتخيف السواح.

في تلك الليلة سحبت شركة الكهرباء ـ بالاتفاق مع الشرطة ـ الكهرباء عن المنطقة. هدرت السيارات المصفحة في الشوارع الضيقة متسلقة أكوام الزبالة تنبحها الكلاب الضالة. وبعد معركة سريعة قصيرة بدون خسائر تذكر استطاعوا إلقاء القبض على الشيخ جابر في بيت صديقته المطلقة (ليست زوجته كما أبرزت تلك الميديا) وعلى مجموعة من جنرالاته

وجنوده. ظهر أن الشيخ جابر كان يعمل، في حياته السابقة (أيام الضلال) عازف طبلة في فرقة صغيرة لراقصة من الدرجة العاشرة (اهتمت الميديا بالحياة الجنسية للرجل كأسلوب مصري رسمي للتجريح) وأتوا به أمام كاميرات التلفزيون ليسخروا منه ويجعلوه أضحوكة. كان الشيخ جابر هدية السماء للحكومة التي تريد أن تقتنع أن الحركة «الإسلامية» في مصر يقودها أمثال الشيخ جابر: أي عشرات من الجهلة والسذج. ولأن الحكومة نفسها تنتهج سياسة مشابهة لسياسة الشيخ جابر (أي إعلان الحرب عبر كاميرات التلفزيون والميديا) فقد اعتقدت أنها ارتاحت نهائياً من أمثال الشيخ جابر، لكن الحرب التي تدور الآن بين الحكومة وبين «الجماعات الإسلامية» وهي حرب ذكية وشرسة (على الأقل من جانب الإسلاميين) تثبت كل يوم عدم قدرة الدولة - التي هي في الأصل فاسدة ومتهالكة - على فهم طبيعة وعقلية المواطن المصري التي يجهلها أيضاً المثقفون المصريون اليساريون (رغم ادعاءاتهم بأنهم يدركون ماهية طبيعة الشعب المصري)، حيث يعتقد الجميع أن مصر تدخل القرن الواحد والعشرين محملة بتراث كبير من عصر النهضة المصرية وأن المصريين إذا ما وجدوا حكومة تعمل حقيقة لصالحهم فسوف يتحولون أتوماتيكياً من التعاطف مع «المتطرفين» إلى الوقوف في «خندق التنوير والعلمانية والتقدم» لكن ما رأيته بنفسي خلال العام الذي عشته في المنيرة الغربية يؤكد لي خطل الرأي السابق. الغريب أن المثقفين وجدوا أنفسهم يقفون مع الحكومة - التي يتهمونها بالفساد، وهذا حقيقي - في حربها المصلحية ضد الجماعات

الإسلامية. الحكومة المتخلفة الفاسدة لا تدافع عن التنوير والتقدم. إنها تدافع عن مصالحها المتشابكة. كفت الحكومة منذ زمن طويل عن تمثيل طبقة بعينها في مصر. أصبحت مجموعة من العائلات والمصالح. وحينما تكتشف الدولة على استحياء ـ بين وقت وآخر ـ أن بعض أجهزتها الحساسة في الشرطة تعمل مع أو لحساب الإسلاميين، لا يأتي هذا الاكتشاف كصدمة لأحد. إنها المصالح المتشابكة المعقدة.

لكن أين يقف المسيحيون كأفراد وكمؤسسة من كل هذا؟

إن الكنيسة القبطية المصرية الأرثوذكسية التي يمتد تاريخها إلى بداية التبشير المسيحي بوساطة «الرسل» وبالتحديد القديس مرقس (كما تقول الميثولوجيا الإنجيلية)، أي إلى سنوات المسيحية الأولى، وجدت في مصر الأرض الخصبة لاعتناق الديانة الجديدة والانسحاب تدريجياً من الديانات الفرعونية والإغريقية التي استقرت في وادي النيل منذ فجر التاريخ. استبدل المصريون التاسوع الإلهي الفرعوني بالثالوث المسيحي. أوزيريس بالمسيح وإيزيس بالعذراء مريم. يدهش المرء حينما يقرأ الدراسة الرائعة التي قام بها «وول ديورانت» في علم الأديان المقارن وتشابه الطقوس في الديانات الفرعونية واليهودية والمسيحية. ولما كانت كلها ديانات تؤكد على فلسفة تقمص الروح الإلهي للجسد البشري (وخاصة الملوك الكهنة والملوك الآلهة) لهذا كان من الطبيعي أن يواصل المصريون المسيحيون اعتقاداتهم الفرعونية في الديانة المسيحية (هناك أيقونة نادرة في المتحف القبطي بالقاهرة تصور العذراء مريم تحمل المسيح الطفل

وتقربه من صدرها. هذه الأيقونة تشبه تماماً اللوحة الفرعونية الموجودة في المتحف المصري بالقاهرة وتصور إيزيس تحمل ابنها الإله حورس وتلقمه ثديها. التكوين نفسه الملامح نفسها تقريباً) وهكذا احتلت الكنيسة القبطية محل المؤسسة الكهنوتية الفرعونية وأعطت لنفسها الحق المدني والإلهي في «تسيير» حياة المصريين المسيحيين في الدنيا وفي الآخرة - ولعلها لم تختلف كثيراً في ذلك عن الكنيسة الأوروبية الغربية، لكن المصرية تتميز بأنها واصلت ميراثاً دينياً كهنوتياً كان مستقراً قبلها. وقدمت الكنيسة المصرية شهداءها إبان الاحتلال الروماني لمصر وقدمت أيضاً فلسفتها اللاهوتية المتميزة عن لاهوت الكنيسة الغربية واخترعت نظام الرهبنة (الذي تتبناه الآن بعض الجماعات الإسلامية الصغيرة التي تنادي بالهجرة من المجتمع الكافر والذهاب بعيداً عن مغريات المدينة إلى الصحراء).. جميع هذه الأشياء وغيرها أعطت للكنيسة القبطية وضعاً خاصاً وسط «الشعب القبطي، كما تحب الكنيسة أن تطلق على رعاياها». هذا الوضع جعلها تنغلق على نفسها تدريجياً وأن توقف باب الاجتهاد والبحث وأن تجهل تناقضات الحياة الحديثة؛ ترفض الطلاق. ترفض «التفريق» بين الزوجين إلاّ في حالات خاصة جداً (هذه مجرد أمثلة)». أتى المستعمر بالقسيس المبشر. لم تعد الكنيسة القبطية هي المرجع الروحي الوحيد للمسيحيين المصريين. ظهرت الكنائس البروتستنتية، والإنجيلية واليسوعية والرسولية (وعشرات غيرها من الكنائس «الأصولية») ومع اشتداد الأزمات الاقتصادية تبرز الاتجاهات العدوانية - من المسلمين والمسيحيين على السواء -

ويصبح الدين هو الملاذ الوحيد بمواجهة انهيار القيم الاجتماعية والاقتصادية. ولأن المسيحيين الأوائل نزحوا إلى جنوب مصر هرباً من الاضطهادات التي لاحقتهم بوساطة الغزاة الذين يختلفون معهم دينياً، فلهذا أصبح ذلك الجزء من مصر مركز تجمع كبير للمسيحيين الذين عملوا في شريط الأرض الزراعية الشحيح وبالتجارة المتعلقة بالزراعة وبالربا. كذلك استخدمتهم الحكومات المتعاقبة كجباة للضرائب (وهي مهنة مكروهة في العالم كله). إن الطبيعة القاسية المتجهمة لجنوب مصر تطبع السكان هناك بطابع من القسوة والغلاظة وتحولهم إلى بشر دمويين متخلفين.

من الجنوب. من الصعيد نزح العشوائيون ومعهم المقدس زخاري الذي بدأ حياته كبائع جوال يجر (بنفسه) العربة الخشبية البسيطة التي يضع عليها بضاعته. لعله عمل أيضاً في تربية الخنازير والإتجار فيها. سر غامض كيف استطاع هذا البائع المتجول أن يصبح من ذوي الأملاك وأن يحظى باللقب المقدس. ولعله أراد أن يضفي الشرعية على لقبه فقام ببناء كنيسة عشوائية في المنيرة الغربية. دفع كل التكاليف من جيبه الخاص. لكنها كنيسة «أصولية» منشقة عن الكنيسة الأم. كنيسة رسولية (يقوم هو أحياناً بالوعظ فيها)، بسيطة البناء، على مساحة صغيرة من الأرض في شارع الأقصر بجوار «العمارة» التي أسكن فيها والتي ليست سوى واحدة من أملاكه في المنطقة. اكتشفت الحكومة ـ متأخرة كعادتها ـ كنيسة المقدس زخاري. أعلنت انها عشوائية وأنها بدون ترخيص فقامت بإغلاقها ووضعت عليها حراسة مسلحة..

وهكذا وجد المقدس زخاري نفسه في مواجهة الحكومة التي كان يظن - كما قال لي - أنه معها قلباً وقالباً. وبالطبع فهو أيضاً في مواجهة مع الكنيسة القبطية التي يتكلم عنها باستهانة. أنا وجدت موقفه شديد الشبه بموقف الجماعات الإسلامية. تناقضهم مع المؤسسة الدينية الرسمية (الأزهر) وبالطبع مع الدولة. لكن المقدس زخاري متناقض أيضاً مع الجماعات الإسلامية. عرفت كل هذا حينما دعاني على الغداء في شقته التي تقع في الطابق الأول من البيت الذي أسكن فيه. دعى أيضاً مجموعة من أصدقائه (بالطبع كلهم مسيحيون). إنهم يعاملونه باحترام ويستمعون إلى آرائه باهتمام ويصدّقون عليها خاصة حينما أعلن المقدس أنه مستعد لمقاتلة الجماعات بالسلاح (قال إنه مثله مثل غيره يمتلك قطعاً من السلاح في بيته) وأضاف لكنه لا يمانع في النزوح مرة أخرى إلى الجنوب (في هجرة جماعية للمسيحيين) بشرط أن يأخذ المسيحيون نصف مصر الجنوبي لهم. وقد هالني تفكيره لكني امتنعت عن الدخول معه في نقاط حول مدى صواب رأيه من الناحية العملية التي أعلن هو باستهانة أنها مجرد تفاصيل غير مهمة.

أما الكنيسة القبطية الرسمية - مثلها مثل الأزهر - فتقف بحذر في منتصف الطريق تراقب من أين ستأتي العاصفة.

أذكر مرة حينما ذهبت في زيارة سياحية إلى أحد الأديرة أني رأيت بيضة نعام كبيرة معلقة على باب المذبح الداخلي. سألت الراهب المرافق عن معناها فقال لي: إنها رمز لاستمرار الكنيسة عبر عصور الاضطهاد المتعاقبة. قال إن النعامة حينما تحس بالخطر تسارع بتخبئة بيضها، ثم تجري مبتعدة عنه لتحول

نظر المطارد عن البيض. قال إنها قد تضحي بحياتها عالمة انها قد أنقذت البيض.

الطريق الى جبل اسمه امرأة...
ويقال له «جبل مره»

الطريق إلى جبل مره ١٩٩٣

حينما وصلت إلى مطار الخرطوم الصغير قبيل الفجر، كان مسيحة في انتظاري بسيارته الهوندا الصغيرة. فقد تمّ الإفراج عنه منذ بضعة أيام بعد أن اعتقله النظام العسكري الحاكم (حكومة البشير والجبهة الإسلامية) هناك بتهمة «توزيع ونشر الكتب المعادية». أغلقوا دار النشر التي يمتلكها وكذا المكتبة بعد أن صادروا الكتب الموجودة فيها ثم جرجروه إلى المعتقل لمدة اسبوع تقريباً (من حسن الحظ). كان يبدو منشرحاً وهو يأخذني معه في السيارة إلى بيته في أم درمان. حكى لي بسرعة ما حدث له. قال ضاحكاً بأسى إنه الآن خالي شغل، وإنه سيبحث عن عمل له في مجال استيراد وتصدير الفاكهة. أضاف يعني عمل ملوش دعوة لا بالسياسة ولا بالثقافة. كنت قد عرفت ما حدث له من والدته التي تعيش في مصر ومن الأصدقاء الذين قدموا إلى مصر من الخرطوم. حينما جلسنا في حديقة البيت الصغيرة في الساعات الأولى من الصباح نشرب

الشاي باللبن (الذي قامت زوجته بعمله حينما استيقظت عند وصولنا) نظرت إلى وجهه المتعب غير الحليق وإلى الحديقة المهملة وشعرت بالأسى. فمسيحة صديق الطفولة القديم الذي يقاربني في العمر والذي تربطني به الوشائج العديدة.. السودان وأسيوط وبولندا بعد ذلك. هناك نكتة تاريخية تتوارثها العائلتان وحتى أولاده وهي كنا، أنا وهو خلال فترة طفولتنا نتلعثم في الكلام حتى مرحلة الدراسة الجامعية حينما استطعت أنا أن أتخلص بعض الشيء من التمتمة ولكن مسيحة ظلّ محتفظاً بها حتى الآن. تقول النكتة إننا لم نكن نتلعثم ولكني وقعت على أم رأسي وأصبت فيها فقرر صبحي أن يشاركني مصيري من شدة توثق الصداقة بيننا. ها نحن الآن في الخمسينيات من عمرنا مررنا كلانا على السجن (أنا في بداية الستينيات).. تزوجنا وطلّقنا وتزوجنا ثانية من نساء يصغراننا كثيراً في العمر.. وخلّفنا أيضاً لكنه تزوج مبكراً عني كثيراً في المرة الأولى وابنه الآن تزوج وأنجب.. بينما ابنته أتت إلى السودان من بولندا تاركة أمها البولندية ملتحقة بأبيها منذ سنوات طويلة وتتكلم العربية باللهجة السودانية الشمالية. كنت قد استطعت أن أحادثه تليفونياً منذ أيام ـ من القاهرة ـ وأخبره بعزمي على المجيء. بعد ترحيبه الحار سألني بحذر هو فيه حد عاقل يجي السودان في الظروف دي؟ لم أجبه مباشرة فقط قلت له، سأقول لك على كل شيء حينما نلتقي. إنه فضولي أيضاً مثلي وإذا لم يستطع أن يشفي غليله يلتجىء إلى خياله الخصب يسد به الثغرات. قررت أن أشفي غليله. حكيت له عن الحلم. أنا أعلم أنه يشابهني وسوف يصدقني قلت له إني التقيت في

الحقيقة بامرأة حلمت بها منذ بضع سنوات ثم حلمت بها مرة أخرى ولهذا تجدني في السودان.. كنت قد حلمت أني تهت بالقرب من منطقة الأهرامات وأني أبحث عن مقهى لكي أرتاح عليه ووجدت مقهى في مكان متطرف بالقرب من الحقول وأحسست أن الجارسون والامرأة التي تدير المقهى يعرفانني وأنها تشاورت مع الجارسون في شأني الذي قال لها إن حالتي صعبة فقالت هي الحل الوحيد هو كيه بالنار وبعد هذا الحلم بشهور كنت أفطر في مطعم بالزمالك حينما رأيتها تنظر إليّ وهي واقفة على الرصيف وحينما تذكرتها ونهضت مسرعاً لأكلمها لم أجدها وبعد بعضة أيام جاءتني في الحلم ثانية وقالت اذهب إلى الجبل قلت لها أي جبل قالت جبل اسمه مره وأنت تعرف أنه موجود وتعرف مكانه وحينما استيقظت لم أكن منزعجاً بل كنت مرتاحاً راحة سعيدة لم أحسسها من سنوات بعيدة وعرفت في لحظة استيقاظي أي جبل تعني وها أنا هنا في السودان أستعد للذهاب إلى الجبل. أصغى مسيحة إليّ دون مقاطعة كان يهز رأسه مشجعاً. قال حينما انتيهت «طبعاً تقصد جبل مره بتاعنا ده اللي في الغرب في جبال النوبة».. أضاف: «لكن السفر إلى هناك هذه الأيام خطر هناك قبائل الفور المتمردة على الحكومة.. هناك المرتزقة وقطّاع الطرق وهناك بالطبع العسكر الذين لن يرحبوا بمصري مثلك ومسيحي ومثلي». ضحك ساخراً وهو يقول: «نحن الآن تحت حكم علي ولايتي الشريعتي» قال وكأنه تذكر فجأة: «أنت تعرف أن امرأتي من المسالمة (وهم قبط السودان في أيام المهدية والذين أجارهم المهدي الكبير وأطلق عليهم

اسم المسالمة.. أي المسالمين).. وأمي كانت مسلمة ونصّرها أبوك القسيس ليتزوجها أبي. تعلم أنها وهي الآن في السبعين من عمرها لا تستطيع الرجوع إلى السودان لأنهم سيحاكمونها باعتبارها مرتدة. تعرف أن الإعدام هي العقوبة» قلت له: «أعرف ظروفك وأعرف أنك لن تستطيع السفر معي إلى الجبل في الغرب. أنا أتحمل مسؤولية نفسي وهذا هو قراري فأرجوك لا تكسّر مجاديفي» ذهب كل منا لينام بعد أن بدأ الناس يستيقظون. في اليوم الثالث قال لي: دبرت لك تصريح صيد (كحجة للسفر إلى الجبل وهو مكان مشهور للصيد) وأضاف هناك أتوبيس إلى الفاشر ومن هناك تدبر حالك. في اليوم الرابع قال: أستطيع أن أصحبك حتى الفاشر أساعدك في العثور على مواصلة تأخذك للجبل وأسيبك هناك وأرجع أنا إلى أهلي. في اليوم السادس ذهبنا نتمشى في المساء باتجاه فندق جراند أوتيل الذي يطل على النهر والرائع المعمار على الطراز الكولونيالي. طلبنا عصير ليمون (الخمر محرّمة منذ أيام الرئيس السوداني الأسبق جعفر النميري حينما أراد اللعب على المشاعر الدينية) جلسنا في الحديقة المشرفة على النهر.. السودانيات متواجدات بصحبة الرجال (بشرط أن يكونوا أقاربهن من الدرجة الأولى)؛ قانون الجبهة الإسلامية. الأجنبيات قليلات أيضاً والمكان بشكل عام يعطي الواحد إحساساً بذلك الحزن الذي يعقب الجنازات. تحدثنا في أمور عامة، سألته عن الناس الذين أعرفهم هنا، عرفت أن معظمهم هاجر إلى إنجلترا، وأستراليا، الشوام المسيحيين معظمهم هاجر. عائلة نانا واخوتها سحبوا الوالدين العجوزين إلى أستراليا. قال

لي: سأسافر معك إلى الجبل لكن (لا تجيب سيرة لمراتي). سأقول لها إننا نسافر حتى الفاشر. لنا أقارب هناك من ناحية أمي. بدأنا نخطط للرحلة. قلت له: إن معي ما يكفينا من النقود فلا يقلق من هذه الناحية. قال: هل تظن متى نتمكن من الرجوع؟ قلت له: شهر؟ قال: أسبوعين. اتفقنا على ثلاثة أسابيع. قال: نسافر بسرعة خير البر عاجله.

الطريق إلى جبل مره ـ ٢ ـ

الباصات المتوجهة إلى الغرب تتحرك من المحطة الرئيسية في أم درمان. الحجز مشكلة، لكن الرشوة والمعارف يسهلان الأمور. الباص ليس سوى لوري ياباني كبير محوّر لنقل الركاب الذين أجبرتهم الظروف على السفر. فليست هناك قطارات متوجهة إلى الغرب وحتى إشعار آخر. المقاعد متلاصقة لتستوعب أكبر عدد من البشر. النوافذ ليس بها زجاج بل ستائر قماشية وسخة ومهترئة والمقاعد خشبية وحديدية وعليك أن تشتري الوسائد التي ستجلس عليها.. بسيطة فهناك الباعة الذين فرشوا بضاعتهم بجوار الباص ويبيعون الوسائد المطاطية بأسعار معقولة. اشترينا ما نريد من طعام وملأنا الترامس بالشاي والجبنة (القهوة السودانية) أكلنا بعض السندوتشات فلم نكن قد أفطرنا في البيت؛ إذ قدمنا مبكرين لنضمن أماكننا ـ رغم الحجز والرشوة ـ وقد وجدنا صعوبة بالفعل لكن كل شيء سار بشكل معقول، حتى أن الباص قام في موعده الساعة الثامنة بالضبط! ننطلق غرباً ونسمة هواء طرية تقتحم النوافذ فقد بدأت الحرارة المعتادة رغم

أننا في شهر يناير. أخرجنا المخزون الاستراتيجي من الكتب والمجلات ووضعنا الراديو الصغير القوي الإرسال على ظهر المقعد الأمامي نستمع إلى الموسيقى وندخن ونشرب الشاي والقهوة ونتبادل الأحاديث مع الجيران الذين سيرافقوننا مدة ثلاثة أيام بلياليها. حوالى الحادية عشرة أوقف السائق الباص بالقرب من «حلة» صغيرة وأعلن المساعد بفرح: الفطورا السودانيون لا يفطرون مثلنا في مصر ساعة الاستيقاظ وهكذا نزلنا نبحث عن طعام «مأمون» لا يصيب الواحد في النهاية بالإسهال أو التسمم أو كليهما. انتقينا عشة نظيفة وطلبنا بيض مقلي بالسمن البلدي (تجاوزنا مؤقتاً عن مخاوف الكلوسترول فنحن على سفرا) وشربنا اللبن الرائب الطازج والشاي باللبن. دفعنا نقوداً قليلة هي كل ما طلبته «ست الشاي» حتى أحسست بالخجل. تمشينا قليلاً في «الحلة» التي تحيط بها الصحراء من كل جانب.. الدهشة انتابتني إذ بعد مغادرتنا أم درمان بأقل من ساعة اختفى العمار ودخلنا في الصحراء مباشرة. اختفى الطريق الإسفلتي ـ لعله منذ أيام الإنجليز ـ ليسلمك هو والحكومات «الوطنية» المتعاقبة منذ أكثر من ثلاثين عاما.. إلى مصيرك في الصحراء التي تمتد آلاف الكيلومترات.. وأنت وحظك. لكن يبدو بأن الناس اعتادت تدبير حياتها باعتبار أن الحكومة تنتهي بانتهاء الإسفلت.

مرة أخرى إلى الباص بعد أن قام المساعد (الذي استقر منذ البداية على سطح الباص فوق العفش) بتنفيس الإطارات من جزء من الهواء حتى تستطيع الدوران فوق دروب الرمال. هدهدتني رتابة صوت الموتور ونسمة الهواء الطرية مسنداً

رأسي على كتف مسيحة الذي وضع «السفة» في فمه وراح في حديث طويل مع الجيران حول العفاريت.

حديقة البيت أو كما نسميها الجنينة تحولت إلى مكان أحبه وأقضي معظم أوقاتي بها قبل الذهاب إلى مدرسة الاتحاد وبعد الرجوع منها ساعة الظهيرة فهناك المرجيحة التي أقامها بابا حيث قطّع الخشب بالمنشار ونجرها بنفسه. وعلقها على شجرة النيم القومية وضعت أنا على حبالها ملاية قديمة وجلعتها بيتي المتحرك أهرع إليه وأسرح وأصيد العصافير في الجنينة التي تهرع إليها بعد المطر عصافير الجنة أضعها في القفص الخشبي الذي صنعه بابا خصيصاً لي وهناك البئر المغطاة بطابق سميك من الخشب والأحجار والطين والتي حرّموا علينا نحن الأولاد الاقتراب منها حيث تسكنها حيّة منذ زمن بعيد كما قالوا لنا فنلقي فيها بالأحجار من الفتحة التي حفرها المطر وننتظر لحظات طوال حتى نسمع صوت ارتطام الحجر بالماء ذلك الصوت المكتوم فنبتعد عنها وأجسادنا الصغيرة ترتعش من الإثارة والخوف وكلابنا تتابعنا ونضطهدها لكنها تقبلنا على علاتنا ونحن نفترض ذلك منها أليست كلابنا المفروض فيها الطاعة والولاء لنا التي نطلقها ليلاً في الحوش الكبير تخوّف اللصوص الذين دخلوا إلينا مرة ومرة وحاولوا تسميم الكلاب ورأت ماما واحداً منهم مندساً في المرحاض لكنها تمالكت نفسها وصرخت فيه ونادت بصوتها القوي الصعيدي على بابا الذي كان في الجنوب وعلى خالي وديع الذي كان مع صديقته اليهودية ولم يكن معها سوانا في المنزل فهرعنا إلى الباب الخارجي نستنجد بالمارة القلائل في الشارع ساعة العشاء

وهرع إلينا من سمع استغاثتنا منهم ومن الجيران وأحضروا عصيهم وخناجرهم لكن الحرامي هرب وقام الرجال الغرباء بتفتيش البيت والجنينة على ضوء البطاريات حتى اطمأنوا وبقي جارنا إبراهيم الذي كان معنا في مدرسة الاتحاد في السنة النهائية بقي معنا لساعة متأخرة حتى نمنا جميعاً وذهب هو إلى بيته وفي الصباح حينما أتى خالي وديع ليغيّر ملابسه عاتبته أمي باكية كده يا وديع وأنا اللي كنت فاكراك حا تاخد بالك من البيت في غياب القسيس كده تسيبنا لوحدينا طوال الليل والناس الغرب يخشوا علينا وما فيش راجل في البيت يقولوا علينا إيه وكاد خالي وديع أن يبكي ووعد أنه لن يبيت خارج البيت بعد كده طالما أن بابا مسافر وفعلاً برّ بوعده وكان يسحب معاه سكينة المطبخ الكبيرة والساطور ويضعهما تحت المخدة ونحن ننام كلنا في الحوش اللي كنا بنام فيه ونعيش فيه وحينما تمطر في الخريف ننسحب جميعاً إلى تحت الفرندة المسقوفة وأنام وأنا أستمع إلى رجات المطر أحس بالسعادة والأمان وكل أهلي بجواري وأحياناً مرة كل شهر أصطحب الخادم إلى طاحونة عبد المنعم بجوار الإنداية القريبة من بيت المبشرات ونطحن القمح هناك وأخذني مرة معه إلى الإنداية وقال أنت الآن راجل ويمكنني الذهاب معه إلى الإنداية وقامت ست المريسة بشراء سندوتش فلافل لي أجلستني بجوارها وسألتني عن عمري فقلت لها عشرة فقالت ضاحكة خلاص أنت رجال وقالت شيئاً للرجال المتحلقين حولها في نصف دائرة شيئاً بسرعة لم أفهمه لكنهم انفجروا ضاحكين وجلسنا كثيراً في الإنداية وسكر الخادم قليلاً وكان يسألني إذا كنت

زاهقاً فأنفي ذلك حتى قالت له ست المريسة: إن عليه الآن أن يكتفي ويذهب إلى الطاحونة. وبالطبع لم أقل شيئاً لماما أو بابا حينما سألونا عن سبب تأخيرنا كنا اتفقنا في طريق العودة ونحن فوق العربة الكارو أن نقول لهما إن الزحمة هي السبب وفعلاً صدّقا كلامنا وكانت ماما تخبز العيش المصري في الفرن الذي بناه بابا لها داخل الزريبة حيث كنا نضع المعزات التي كان لا يحلو لها الغثاء إلاّ يوم الأحد ساعة الصلاة وبابا فوق المنبر يعظ فكان يشير إليّ بعينيه من فوق المنبر فأهرع أنا إليها وأضربها أو أضع لها المزيد من الأكل وكانت المعزات مهمة لنا لأن بابا كان يصنع من اللبن الجبن بل إن ماما حينما ولدت أختي الصغرى أرضعها أبي مباشرة من ضرع المعزة لأنهم قالوا إن ماما جفّ لبنها وكانت رينا تأتي إلينا كثيراً وتساعد ماما في شغل البيت وتحمّيني وتليّف جسدي وتضمني إلى جسمها المبلل ورينا مبشّرة تعيش مع بقية المبشرات بالقرب من الإنداية وتشاركهن البيت الكبير مس مايل الرئيسة الإنجليزية والتي كان بابا يحب أن يذهب إلى زيارتها في العصاري ويأخذني معه ونسير المسافة بين البيت وبيت المبشرات في حوالى نصف ساعة وكنت أحب هذا المشوار لأن بابا كان يمسك بيدي طوال الوقت ويسألني عن الكتب التي أقرؤها في مكتبته وليس عن كتب المدرسة وحينما نصل إلى هناك يقول لي: اذهب إلى جناح المبشرات، ويذهب هو بمفرده إلى مس مايل وكانت البنات المبشرات يستقبلنني ضاحكات ويجعلنني أجلس وسطهن على السرير وكنت أنا مكسوفاً فقد كنت أعرف بعض الأشياء عن جسد المرأة خاصة من رينا وكن يجلسن

بقمصان النوم أو يتمددن على الأسرّة وقد تعرت أفخاذهن ويضحكن ويقبلن بعضهن البعض ويقلن أبونا القسيس يعمل كده مع المس. وحينما أزعل يقدمن لي الحلوى وتأخذني إيزيس التي أحب رائحة جسدها إلى حضنها وتزجر البنات ويأتي أبي من عند ميس مايبل وحده ويناديٍ عليّ ويدخل عند المبشرات ويضحك معهن ثم يأخذني ونرجع إلى البيت ويقول ونحن في السكة ما تقولش لماما إنك كنت لوحدك مع المبشرات فأجيب ويده ممسكة بيدي طيب وغصة في حلقي. وتحاول ماما أن تقررني لكني أتمسك بقصتي فتنظر إليّ بجفاء لكن بابا يناديني وهو جالس في مكتبته ويقول اقعد هنا خد حاجة اقرأها واستفد من وقتك وهكذا نتركها وحدها تبرطم ونكتم ضحكاتنا ونحن نتظاهر بالجدية وأتجول في مكتبته أو أودة المكتب كما نسميها أحب رائحة الكتب وأعرف عناوين كل الكتب العربية، جزيرة الكنز والكونت دي مونت كريستو وروبنسن كروزو. والمجلات العربية الهلال والمقتطف والرسالة والمختار وكتب كامل الكيلاني ومجلة البعكوكة. كل هذه الكتب والمجلات كان بابا يشترك فيها وتصله من مصر وكان يرسلني لإحضار بعضها من مكتبة سودان بوك شوب. وفي يوم من الأيام حضرت من المدرسة ونادى عليّ فخفت لعله سيعاقبني على شيء لا أتذكره وكان عقابه شديداً إذ اشترى سوطاً سودانياً وعلقه على مرأى منا جميعاً في الصالة وكان لا يستعمله إلاّ نادراً خاصة حينما نزعجه في نومة القيلولة. لهذا ذهبت متهيباً وكان يجلس على مكتبه بجوار النافذة المفتوحة على الجنينة وقال تعال شوف الجورنال ده وكان الأهرام ما زال

بتطبيقته وعليه الورقة المكتوب فيها الاسم والعنوان ولم أستطع في البداية تبين أي شيء فوقفت مرتبكاً لكنه أشار إلى الاسم المكتوب بالآلة الكاتبة فقرأته وكان اسمي مسبوقاً بلقب الأستاذ وفهمت أنه عمل اشتراكاً لي باسمي وطرت من الفرح وفككت الغلافة واحتفظت بها مع بقية الغلافات الأخرى لكنها ضاعت بعد ذلك كلها من ضمن الأشياء الأخرى التي ضاعت.

قال مسيحة سوف نرتاح إلى ما بعد الظهر. كان الباص قد وقف الآن في محطة صغيرة بها بضع عشش. استقرينا في عشة ظليلة وطلبنا الغداء.

الطريق إلى جبل مره ـ ٣ ـ

هبطت الحرارة بشكل ملحوظ ونسمة حلوة تقتحم فتحات السيارة، والصحراء على امتداد البصر والباص يزحف فوق دروب الرمال ولا أثر لإنسان أو حيوان، نحن وحدنا نتحرك في طريق القوافل القديم وقد تزودنا بأجهزة الحياة الحديثة: راديو، سجائر، أدوية، أكياس النوم العازلة للمطر والبرد والرطوبة.. لكن الدرب هو الدرب، والمحطات هي المحطات التي كانت القوافل تنيخ جمالها عندها تتزود بالمياه والكلإ. يقول مسيحة الذي درس التاريخ السوداني: من هذه المناطق.. من الغرب؛ ظهر المهدي والمهدية. من هذه المناطق توافد «الأنصار» بسيوفهم وحرابهم وخيولهم وبنادقهم القديمة ليهزموا المصريين والإنجليز ليصلوا إلى الخرطوم ويقطعوا رأس غوردون باشا ويقيموا حكومتهم المستقلة وحينما أتى لورد

كتشنر وهزمهم بالأسلحة الحديثة وضع قادتهم في السلاسل وأخرج جثة المهدي الكبير من قبره وقطع رأسه وأرسلها إلى لندن...

هكذا دائماً المنتصر والمهزوم منذ أيام قابيل وهابيل. وإن لم تستطع أن تقطع الرأس فلا بأس أن تمحوا الاسم عن جدران المعابد أو من كتب التاريخ وحينما كنا نختلف في الرأي في المعتقل كان المدحور ينزوي في زنزانته مع المدحورين الآخرين يقاطعهم الجميع مثلما ينهزم الفقراء في معركة الحياة فيوصمهم الذين فازوا بالفشل والخيبة والتقاعس. وحينما انهزم خالي وديع انزوى على مقعد محطم في مخازن الجمرك في الإسكندرية ليرجع كل يوم لينزوي في البيت وهو يربط رأسه بمنديل درءاً للصداع الذي كان في الحقيقة مرض السرطان وقد اصفرّ وجهه ونحل شعره وتهدلت ثيابه القديمة التي لم يجددها على جسده مثلما أدار بابا وجهه إلى الحائط ورفض في النهاية التواصل معنا ونسي أسماءنا ونسي أن يذهب إلى المرحاض ووسخ جلابيته وملاءة السرير وأصبحت الغرفة رائحتها لا تطاق مثلما نسينا نحن أنه كان الآمر الناهي الذي نخاف من صوت أقدامه وأخذنا نتذمر من وساخته ونتفنن في التهرب من نبطشية الجلوس معه والتحدث إليه وقراءة الجورنال له مثلما نسيه الرب في الأعالي ونسيته الكنيسة التي خدمها أكثر من ثلاثين سنة وأعطته أربعة جنيه وأربعين قرش وعليه أن يدبر حاله ولم يزره أحد من القسس الذين كان يستضيفهم في السودان. مثلما انزوت رينا في الحوش بملابس البيت وحولها الفراخ والمعيز تعد الطعام لزوج لا يأتي إلى البيت إلاّ في المساء

وينام بالجلابية التي كان يرتديها طوال النهار وطوال الأسبوع حتى يأتي يوم الغسيل. ومثلما انهزم القبط في مصر لأنهم لم يدفعوا الجزية ولبسوا الزراق وأصبح اسمهم العضما الزرقا ظناً منهم أنهم يستطيعون التحايل والتماشي مع قانون المنتصر الغالب وأراد الواحد منهم الاحتفاظ بدينه واسمه وأصله وفصله فتحول إلى مواطن من الدرجة الثانية يدفع الجزية ويلبس الزراق تمييزاً له عن المنتصرين وينزل عن حماره إذا ما مرّ بأحدهم جالساً أو واقفاً ويقول له يا بدوي. ولم ينفعهم هروبهم إلى الصحراء والأديرة وعليهم الآن أن يستأذنوا الحكومة لكي يصلحوا مراحيض كنائسهم وما زالوا يحملون العلامة الدالة عليهم في بطاقاتهم الشخصية بعد أن خلعوا الزراق التي تثبت دياناتهم حتى يكون هذا واضحاً لكل من يتعامل معهم ومن يطلب منك هويتك سوى ممثل الدولة التي تضع الحراس الآن على متاجر الأقباط حماية لهم من الجني الذي أطلقته الدولة في عصر السادات وغذته حتى الآن بأجهزة إعلامها الرسمية وكتب الدين في مدارسها وبمدريسها ومدرساتها وهذا هو خالي نجيب الذي وصل إلى أعلى منصب يمكن أن يصله مسيحي في الدولة ولكن هناك حدود لم يستطع أن يتخطاها حتى لو كان أكفأ واحد وآمن واحد وعندك خالي شاكر الذي ذهب إلى السد العالي منذ البداية وحينما طلع معاش أعطوه وسام الجمهورية من الدرجة الثالثة إلى صليب بطرس صليب نظير كذا وكذا ولكنه يضحك أسفاً حينما أمازحه لماذا لا يغير اسمه التهمة فيقول: سيدك الله يرحمه كان عنيد والحمد لله اللي إدوني الوسام من الدرجة

الثالثة أهو أحسن من بلاش والواحد تطلعله المعرفة من بدري الصدمة بأنك مختلف ليس في اللون كما سيعرف الواحد بعدين لكن في موضوع الجنة والنار والواحد ما زال طفلاً يحبو على رأي المثل في السابعة أو الثامنة والعيال في مدني يقفون أمام الكنيسة ويرسمون على الأرض علامة الصليب بأقدامهم الحافية ويبصقون عليها ومع أن الكبار لا يفعلون ذلك لكن يتقبلون الأمر مثلما يتقبل الإنسان العطوف وضعية شخص مصاب بعاهة وبابا يقول معلهش دول عيال صغيرين وحتى جماعتك ينبذونك من الأول لأنك بروتستنتي وليس أرثوذكسي وأنت في السودان موش أسمر بما فيه الكفاية وأنت في أوروبا موش أبيض بما فيه الكفاية أنت بروتستنتي وأنت مسيحي موش مسلم وأنت يساري أكثر من اللزوم وبعدين أنت منحل زيادة عن اللزوم حبتين تتجوز وتطلق على كيفك وما فيش حد مالي عينك وفي وسط العائلة تشتغل بالسياسة بدل ما تشوف لك حاجة تنفعك زي أخواتك وأخوالك وزي بقية الخلق اللي في حالهم يعني أنت حا تصلح الكون ويعتبرون أن السجن عار ويقولون لكل من يسأل عنك إنك في بعثة ويصبح هذا هو التعبير المقبول والمستخدم أصله لما كان في البعثة حصل كذا وكذا فلا يبقى أمامك سوى نفسك تتعامل معها وتحاول إن تشوف فين الصح وفين الغلط ولا يبقى لك سوى من تبقى من رفاق زمان الذين وقعوا مثلك من خرم القفة بعد أن نفد من نفد وبعد أن انهار عالمك وأنت تتفرج عليه مأخوذاً في البي بي سي والسي أن أن والمظاهرات تربط تماثيل لينين بالحبال وتسحلها في الشوارع ويحاولون أن يأخذوا

يقينك منك ولكني لن أنام على السرير وأدير وجهي للحائط وأشخ على نفسي فتواصل ما تريد أن تفعله حتى لو فقدت الأمل في جدواه فرأسك مطلوبة يريد كتشنر أن يقطعها ويرسلها إلى سادتك الذين سولت لك نفسك ان تتمرد عليهم وأن تحكم نفسك بنفسك رافعاً علمك فوق جمهوريتك مملكتك جسدك وتحاول تجنيد الأنصار ليحاربوا معك ويقطعوا رأس غوردون حتى لو كان يحمل الإنجيل كما فعل وهو يقف مواجهاً الأنصار فوق سلالم القصر وترى في التلفزيون وتقرأ في الصحف كيف هرب منجستو المدّعي وتنبسط لأنك كنت صح وتتذكر كيف احتجوا عليك في الحزب بعد المقالات في جريدة السفير لأن الرفيق منجستو يريد أن يبني الاشتراكية في أثيوبيا وعليه أن يهزم أعداء الثورة وأنت تعرف إنه ما فيش فايدة فهم لن يفهموا ويريدون ان يستأنسوك فتستقيل فيقاطعونك مثل الجربان ويبقى لك حفنة قليلة من المهزومين مثلك أو الذين في سبيلهم إلى معركة خاسرة فتعملون زنزانتكم لوحدكم في بيوت مثل زنزانة المدحورين في المعتقل ولا فرق مهم أو هام بينك وبين بعض أجدادك العنيدين الذين رغم هزيمتهم استمروا يحملون أسماء مثل التهمة تقفل الأبواب في مصر في وجوههم لكنهم لن يتعلموا لأن أبناءهم وأحفادهم إلى يوم الدين وفي السكة يموت الناس الأهل والأحباب خالي وديع وخالي نجيب وخالي شاكر الشهير بصليب ويموت نبيل السلمى لوحده في بيته في الكويت ويموت عبد الحكيم قاسم مشلولاً محسوراً مخذولاً والجنازات مستمرة بعضهم مات قبل الهزيمة العظيمة والبعض مات أثناء

الانهيار العظيم البعض قطعت رؤوسهم ورؤوس الآخرين اختفت تحت سنابك الخيل مثل السلطان الغوري وهو يقاتل في معركته اليائسة ضد جيوش الترك المتوحشين.

هبطنا من الباص نلملم أعضاءنا التي بدأت تتخدر وتتألم من طول القعاد على المقاعد، فالمخدات لم تعد تحمي المؤخرات كما يجب إذ إنها لم تتحمل الوطأة. القمر الإفريقي بكل بهائه ينير الصحراء والسهوب. المسافرون يصطفون خلف إمامهم (وهو عادة أكبرهم سناً) ليصلوا صلاة العشاء والصلوات الأخرى التي فاتتهم. إنهم يصلون مباشرة فوق الرمال. بعضهم توضأ بقطرات قليلة من الماء. البعض الآخر تيمّم برمال الصحراء النظيفة. صف الجلاليب البيضاء التي تبرز سمار الوجوه يمتزج بالأفق. طمأنينة غامرة تلف المكان كله. أحس أن طقس الصلاة موجّه إلى الرب الذي حفظهم في يومهم الأول، وأنهم هنا ينتزعون من الصحراء نمط حياتهم اليومية المعتادة. يجلسون بعد الصلاة يطعمون. يتقاسمون زادهم ويسمرون بهدوء دون لغط.. يحترمون الصحراء ولا يستفززنها. نحمل أباريق المياه ونختلي بأنفسنا في الصحراء في ركن منزوٍ نغتسل ونقضي حاجتنا. ندخن سيجارتنا الأخيرة وندلف إلى العشة لننام فوراً. في الصباح أستيقظ على صوت جميل يرتل القرآن بخفوت مبلل بالصبح الصحراوي البارد وبعد النعاس الهنيء. ألبد مكاني مستمتعاً لا أريم. في أعماقي يقين أن هؤلاء الناس لا يأذون أحداً لاختلافه معهم في العقيدة. تلتف حول المرتل جماعة من المصلين. يصطفون ويصلّون جماعة. بعد ذلك نشرب الشاي باللبن.. نغتسل وينادي السائق بالرحيل.

الطريق إلى جبل مره ـ ٤ ـ

انتهت أيام السفر والإجازات والرحلة من السودان إلى مصر ومن مصر إلى السودان ونستقر في الأقصر التي لم أحببها منذ أن وطئتها قدماي بحناطيرها القديمة ورائحة روث الخيل في شوراعها والرعب المقيم من عقاربها التي تقتحم غرف النوم وتقفز إلى المراتب، وبأهل كنيستها البخلاء الجهلة التجار وجلاليبهم الصوفية حتى في عز الشتاء، والبيت الذي نعيش فيه بأثاثه القديم المتنافر إنه بيت الكنيسة يتوارثه القس فأي حسرة كظيمة تعلن عن نفسها أحياناً في ثورات غضب وتمرد لأن بابا لم يستشر أحداً كعادته في اتخاذ القرارات بمفرده في النزوح نهائياً من السودان ورفض أخذ الجنسية السودانية وتمصيرنا نحن الأولاد بالقوة ونحن لا نحس سوى بانتمائنا إلى السودان ما الذي جعله يحرق سفنه فيغادر البلد الذي قضى أكثر من عشرين سنة ليرجع إلى مصر التي لا يعرفها وإلى قساوستها الكذبة الممتلئين بالنفاق والخديعة والذين أعطوه كنيسة الأقصر التي يهرب منها القساوسة الخبراء والتي اشتهرت رعيتها بأنها طاردة للقساوسة لعلها ماما كما سمعت بعد ذلك من أختي الكبيرة التي أكدت أن بابا لم يكن يريد مغادرة السودان وأن ماما التي تعتبر أن أسرتها أحسن من أسرته هي التي قررت الرجوع إلى مصر ونقت عليه بحجة المدارس والجامعات وأنها أصبحت عيانة من جو السودان ولعل تسليمه لها بهذا كان بداية انحداره النهائي السريع ومرضه ومن ثم موته وياما سألناه في ساعات صفائه عن السبب فكان يتهرب ويقول بلهجته الصعيدية حكمة ربنا أصل ربنا عاوز كده وكان

يبتسم متألماً وهو ينظر إلينا نحاول أن نتأقلم ونتحدث مثل المصريين نقتبس عاداتهم ونحاول أن نخلق لنا صداقات جديدة بدون جدوى وكنت أنا أتباعد بكبرياء وأنفة عن شباب الكنيسة الذين كانوا في سني كنت أعتبر نفسي، محقاً، أحسن منهم بكثير، أولاد التجار هؤلاء. ومن الأقصر بعد أن طلبت الكنيسة نقله وجد نفسه في نواي وهي بلدة غير موجودة على الخريطة ويصل إليها الواحد عن طريق ملوي بوساطة تاكسيات الأرياف القديمة المشخشخة ليست بها كهرباء أو مياه جارية وكنا حينما نأتي لكي نستقر معهم في الإجازة الصيفية الطويلة التي أصبحت أكرهها الآن نجلس في الليل على ضوء الكلوبات في بيت الكنيسة الذي يعلوها. والبيت والكنيسة من الطوب يعجان بالأبراص والثعابين والقمل والبق وكنت أتمنى أن أذهب بعيداً في الإجازة ولكن لم أذهب إلى أي مكان لأنه لا يوجد أحد يعزمني إلى أي مكان فأقضي نهاري راقداً على سريري أقرأ الكتب التي استلفتها من مكتبة الكلية والتي كان أمين مكتبها عزيز أفندي يشجعني على القراءة ويعطيني كتباً أكثر بكثير مما تسمح به اللائحة وفي المساء نتجول أنا وأخي باتجاه الحقول أما أخي الأكبر وأختي الكبيرة فقد كانا عند أخوالي في دمنهور أو شبين الكوم لا أتذكر وحينما انتهت العطلة كنت أحس بالسعادة ومع أني خجلت من ترك أهلي وأختي الصغرى في وضعهم هذا إلا أني كنت أرغب في العودة مرة أخرى إلى أسيوط. ونقلوا بابا بعد ذلك إلى شبراخيت في البحيرة وذهبنا أيضاً إلى هناك في الصيف وكانت أختي الكبيرة معنا هذه المرة وأحبت مدرساً

كان يتردد على الكنيسة وتزوجته بعد سنوات رغم معارضة أمي. أما بابا فلم يحط منطق فقد كان في عز مرضه لعله لم يعرف أو لعله لم يهتم كانت أختي أول واحدة تقف في وجه ماما وأول واحدة فينا تترك البيت لتعيش في الداخلية حينما استقرينا في القاهرة بعد مرض بابا حيث أوجدت لنفسها عملاً في مدرسة الأمريكان للبنات في الأزبكية وهي ما تزال تدرس في الجامعة وتأتي إلينا بين وقت وآخر لتقضي بضع ساعات وتعطيني بعض النقود سراً لأن ماما كانت تستولي على كل النقود التي كنا نحصل عليها من هنا أو من هناك لتأمين حاجة البيت من طعام وملابس وإيجار لأن المعاش كان أربعة جنيه وأربعين قرش سنة أربعة وخمسين وكان أقل من إيجار البيت لكن أهلها وأخوتها كانوا يرسلون بعض النقود بانتظام كذلك بعض أصدقاء بابا في السودان وسكنّا في العباسية ومنها إلى الظاهر ومنها إلى دير الملاك حيث مات بابا هناك وحيث اعتقلوني فيها بعد موته بحوالى ستة شهور.

غرز الباص في الرمال الناعمة ونزلنا جميعاً ندفعه ولنخفف الحمولة أيضاً ووضع المساعدان الألواح الحديدية الخاصة بهذه الحالة. السائق يسب ويلعن والرمال حارة والهواء ملتهب لكننا جميعاً معنوياتنا مرتفعة نتمازح بعد أن وحّد الباص بيننا. أفلحنا في سحب السيارة التي انطلقت مسرعة إلى الحلة القريبة لنقيّل ساعة الظهيرة ولنأكل لقمة. كنت أعيد قراءة لغة الآي أي ليوسف إدريس وكنت أحمل أيضاً كتابه الآخر الذي أحبه بيت من لحم. كان مسيحة يقرأ بيت من لحم باستمتاع ضاحك ويقرأ لي بصوت عالٍ فقرات منها (كنت قد قرأتها

من قبل) وأعجبتنا فكرة القصة وكيف اتفقت نساء البيت على المشاركة الصامتة في الرجل الوحيد المتاح لهن.. الأعمى الذي تقبّل الموقف مدعياً بعماه أنه لا يعرف من تشاركه الفراش من الأخوات أهي زوجته أو واحدة من أخواتها. ضحكنا كثيراً وذكّرني مسيحة بالبنتين البلغاريتين التوأم في معهد اللغة في وارسو حيث كنت أدرس وحيث كان هو يأتي ليزورني من معهده. كنا قد صاحبناهما وكانتا تدرسان معي في المعهد وتقيمان في الداخلية القريبة وحينما حاولنا أنا ومسيحة أن ينفصل كل منا ببنته إلى غرفة منفصلة أصرّت البنتان على التواجد في الغرفة نفسها معنا نحن الاثنين وحينما ذهبنا بعد ذلك إلى الحمامات سوياً ورجعنا لم أكن على ثقة تامة من أن الفتاة التي رجعت إلى فراشي هي نفسها التي كانت معي قبل ذلك وكان ذلك إحساس مسيحة نفسه وحينما أخبرناهما بإحساسنا ضحكتا. عرفنا بعد ذلك بوقت طويل ـ كما قالتا لنا ـ أنهما تبادلاتنا، وأن هذه عادتهما. لم نحس تجاهما بالضغينة ولم نكن نعرف أي بنت من الأختين كانت تبدّل مع أختها. جلسنا نتذكر كل هذه الأشياء وغيرها.. نضحك ونصحح معلومات كل منا للآخر والباص يجري بنا متجهاً طوال الوقت غرباً.

الطريق إلى جبل مره ـ ٥ ـ

منذ الصباح المبكر حينما انطلق الباص رأينا الجبل عن بعد على خط الأفق. الصحراء تحيط به وبنا من كل جانب ولكن الإحساس بالاقتراب من تلك الحجرية المهولة والتي تخدعك

الصحراء بإعطائك الإحساس بأنها خلاص قريبة فركة كعب؛ هذا الإحساس ينشر في النفس الاطمئنان بأنك لا بد واصل وأن هناك نهاية لهذه الرحلة وبداية لرحلة جديدة. الركّاب ينظرون إلى الجبل ويقول أحدهم لم يعد الجبل آمناً مثلما كان في السابق فقد امتلأ الآن باللصوص وقطّاع الطرق ومعهم أسلحة حديثة. يقول آخر أسلحة من ليبيا ويصحح ثالث لا بل إنها من قرنق (قائد التمرد المسلح في جنوب السودان منذ أكثر من عشر سنوات ـ جوزيف قرنق) وهكذا.. إلى آخره.

إنها محاولة مسلحة للمقاومة وعدم فرض دين وهوية الآخر عليهم إنها القبائل التي ما زالت تحاول بالقوة المسلحة الحفاظ على حقها الموروث والمنطقي في اختيار نظام حياتها الاجتماعي والسياسي والديني بعد أن كان النخاسون العرب والأوروبيون يخطفونهم ليستعبدوهم في قصور الخلفاء من دمشق إلى بغداد إلى الباب العالي ويصدرونهم إلى مزارع القطن في الأرض الجديدة في أمريكا الشمالية والمستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا والمستعمرات الهولندية والإسبانية في الكاريبي ومهما حاول العرب والأوروبيون والأمريكيون التملص من هذه القباحة فلن يكون بإمكانهم دحض الحقائق والوثائق والأقبية التي كانوا يسجنون فيها الأفارقة على سواحل الأطلسي الإفريقية تمهيداً لشحنهم بالسفن إلى العالم القديم والعالم الجديد. إنهم الآن لا يختفون في الغابات الاستوائية من نخاسيهم الجدد الذين يتمسحون بوحدة الإقليم ووحدة التراب لكي يحكموهم من جديد بقوانين واجتهادات مبتسرة بأن الدين عند الله هو الإسلام وأن التكفير والمحرقة تنتظر من

يعترض حتى لو كانوا من المسلمين لم يهربوا إلى الغابات ينتظرون أن يضعهم الصيادون في أقفاص الحديد حتى ينالوا هذه المرة ثوابهم في الجنة لكنهم التجأوا إلى السلاح وإلى حرب العصابات وإلى آلهتهم القديمة وطبول حربهم وذاكرتهم الجمعية حتى لا يكون مصيرهم كالهنود الحمر وسكان أستراليا الأصليين وحضارات أمريكا اللاتينية التي دمرتها الكنيسة الكاثوليكية الجاهلة والتي كانت ترى أن الدين عند الله أيامها هو المسيحية ملتحفة بهذا الغطاء من الكذب الديني لكي تحرث الأرض من الأهالي الأصليين وتزرع بدلاً منهم شذاذ الآفاق الذين نخر الزهري أجسادهم. وحينما كنا ما نزال في مدني كنا نعتبر طبقاً للتقاليد السودانية الشمالية أن أهل الجنوب عبيد بل كان ذلك هو النداء الرسمي الشعبي عليهم وحينما سن الإنجليز قانوناً بتجريم هذا النداء قال مدّعو الوطنية إن الاستعمار يبث الفرقة كأن كل ما يأتي به الاستعمار حرام. ورأينا بعد ذلك كيف يحكم الحكام الجدد بعد طرد المستعمر ورأينا شرطتهم السرية الوطنية وسجونهم التي يضعون الناس في أقبيتها بدون محاكمة ولو صورية بتهمة اللاثورية والثورة المضادة مثل ستالين ومن جاء بعده ومن اتخذه المثال في المنطقة الجغرافية من المحيط إلى الخليج أو العكس ورأينا التصفيات الجسدية والخطف بين العناصر التي تحارب العدو الصهيوني في بيروت ولبنان والقتل على الهوية كما يقول أهل لبنان وأتاوات للحماية والحاكم المفرد ظل الله والذي يرجع أيام امتزاج الفرعون بالإله بالأرض ويصبح الكل في واحد. والجميع يريد السيطرة والفلوس؛ مرة بأن لا يعلو صوت على صوت المعركة

ومرة بتطويل ذيل الجلابية وتغطية وجه المرأة والهدف واحد والمشانق هي هي وإن اختلفت ماركاتها وكنت أقرأ في رواية عن عصر ستالين اسمها أبناء الآرباط حينما كانت دكتاتورية البروليتاريا على أشدها وقالت امرأة عجوز أخذوا وحيدها الطالب إلى المنفى بسبب أشعار كتبها في صحيفة الحائط في المعهد الذي يدرس فيه قالت لأخيها الحزبي النافذ لو كان القيصر يسجن مخالفيه للأسباب نفسها ويحكم عليهم بالطريقة التي تتعاملون بها مع من يختلفون معكم لاستمر في الحكم ألف عام أخرى ولعل مكمن الخطإ والخطر أن الحكام الجدد بعد إزاحة النظام القديم في بلادنا وغيرها من بلاد الله جهلة وبالتالي يحسون بالنقص من المثقفين الذين يمارسون رفاهية الاختلاف مثلهم مثل أصحاب اللحى والجلاليب والنقاب وأحل الله التجارة وحرّم الربا والتجارة كانت من ضمن ما كانت في العبيد زمان وتحولت الآن إلى المضاربة والذهب وأكل مال الفقراء البلهاء الذين وثقوا في اللحية والجلابية وهذا هو جعفر النميري الذي سكب خزين الخمر السوداني في النهر مقدماً سكرة مجانية للتماسيح وهو السكير الذي لا يفيق وليس هذا بسر. وقطع أيدي اللصوص الصغار وأرجلهم حتى أنهم بعد الثورة ضده والإطاحة به أسسوا نقابة لهم من كثرة عددهم بينما كانت أمواله هو وأعوانه وطبقته محفوظة وآمنة في البنوك المسيحية البروتستنتية السويسرية التي لا تتعامل بنظام المرابحة الإسلامية بل بالربا. بنوك كافرة تحافظ على أموال البترول القادمة من كل فج عميق من أراضٍ كانت ممتلئة بروث الجمال. ومنجستو الشاويش يطيح بامبراطور

ويعلن الماركسية ويحرق بالنابالم الروسي القبائل الرافضة ويحتفظ لنفسه بحق إصدار التراخيص للعاهرات وهرب كالجرذ ومعه نقوده وشاويشيته. وهونيكر يختبىء في سفارة شيلي في روسيا. وعيدي أمين الذي لم يكن يعرف الأرقام لأكثر من عشرة وكان يضع لحم معارضيه على مائدة طعامه. ومجازر الأكراد في العراق بحجة توحيد الوطن وعروبة العرق. وتركيا وقبلها مذابح الأرمن وبعدها الفلسطينيين في أرضهم وفي كل البلاد العربية ما عدا أقلها وحينما كنت في تونس والمغرب دهش الناس الذين كنت أتكلم معهم دهشوا لكن بشكل مؤدب ومتحضر حينما عرفوا أني مسيحي وقالوا وهل يوجد مسيحيين بين العرب وتذكرت تلك الحكاية الطريفة في ألف ليلة وليلة حينما كلف أحد الخلفاء قائده موسى بن نصير بأن يأتي له بالخبر اليقين عن مدينة النحاس وسافر أخونا ومعه عساكره حتى وصلوا إلى مكان على شاطىء بحر واستضافتهم القبيلة التي تقيم هناك وقدموا لهم لحماً لذيذاً لعدة أيام حسب الأصول وحينما قرر القائد الرحيل سأل شيخ القبيلة عن نوع هذا اللحم اللذيذ فأجابه هذا بأنه لحم البني آدم فانزعج موسى ابن نصير كما تقول الحكاية وصاح صيحة عظيمة قائلاً: وهل كنا نأكل لحم البني آدم طوال هذه المدة ولسنا عارفين ثم انطلق في حال سبيله كما تقول الحكاية.

ستكون هذه هي ليلتنا الأخيرة قبل الدخول إلى المدينة فقد قرر السائق ولا مرد لقراره أن ندخلها مع الصباح على حد تعبيره لهذا تلكأ طويلاً في الاستراحات التي لا تختلف كثيراً عن بعضها البعض ولكننا اقتربنا كثيراً من الجبل. قمة الجبل

طويلة. فوق الجبل يتمدد جسد امرأة ضخمة؛ ترى الفخذين الكبيرين، أحدهما مثني قليلاً والثاني متمدد وتصعّد ببصرك فترى البطن بارزة بعض الشيء كأنها حبلى في شهورها الأولى. وترى الثديين المشرعين إلى السماء وبعض الوجه من البروفيل لكنه لا يبدو واضحاً مثل بقية الأجزاء. إذاً هذه هي المرأة أو كما يقول السودانيون وأهل الصعيد في مصر المره. المرأة الآلهة التي تجمع الكل في واحد الطبيعة والخصب والجفاف والأبدية. تعطيك إحساساً بتباعدها لكن ذلك التباعد الحميم المبالي ليس ذلك الذي يحسه الواحد من امرأة قررت إنهاء العلاقة وغلق الباب في وجهك. هذه تقول لك بابي مفتوح.. لقد قطعت الجزء الأسهل وبقي الأصعب.. ولا أضمن لك الوصول وإن وصلت لا أضمن لك الوصل. لكن تعال فها هو جسدي لا أخفيه ووجهي لا أديره وكل ما عندي في جسدي تستطيع أن تراه عن البعد لا يختلف عن بقية النساء... لكن إذا ما واصلت التواصل فقد.. وقد.

في المغرب أو قبله بقليل جلسنا لوحدنا على الحصير الطري الناعم بالقرب من العشة ندخن ونشرب الجبنة قال لي مسيحة أحكي لك الحكاية.

كان يعمل مع بعثة آثار بولندية وسافروا إلى مروي في الشمال وخيّموا هناك؛ البعثة كلها من الرجال.. وكنت أمنّي النفس أن تكون هناك بنات معهم لكن خاب فأل العشاق. وخيّمنا بالقرب من مقبرة قديمة لم يفتحها أحد من قبل ولكن النظريات تقول إنها مقبرة آخر ملكات مروي. وحينما انتهوا من الأكل والشرب والونسة نمنا جميعاً. أحسست بجسد

دافىء حي يلتصق بي فوق العنقريب.. جسد امرأة عفية قوية تفوح منها روائح المر والطيب والدلكة. في الصباح حينما استيقظت قلت لنفسي بالأكيد كنت أحلم مع أني لاحظت الآثار المتخلفة فوق الجلابية التي كنت أرتديها عند النوم. قلت لنفسي عادي.. احتلام. لكن ثمة تفاصيل حميمة.. الهمس والتنهدات واللهاث.. هذه كلها تنفي فكرة الحلم والاحتلام. سألت الغفير الذي كان يرافقنا هل توجد نسوان قريبة منا. نظر إليّ بدهشة واستغراب وقال إن أقرب حلة تبعد على لأقل مائة كيلو فنحن في الخلا تماماً. سألني الغفير لكن الحكاية شنو قلت له باختصار على المرأة. نظر إليّ نظرة نافذة وقال تعال نشوف جنب العنقريب. انحنينا على التراب الذي ما زال ندياً من ندى الفجر ورأينا آثار حوافر بجوار العنقريب. آثار حديثة لم تكن موجودة ليلة الأمس كما أننا لم نصطحب معنا أية حيوانات. كنا بالسيارة. قال الغفير بعد أن تفحّص الآثار جيداً لوقت طويل «حكايتك صحيحة.. لكن حكايتك حكاية» سألته فقال لي: إن هناك حكايات في هذه المنطقة عن نساء جنيّات يأتين للرجال ويمارسن معهن الجنس، بعد ذلك يكون الزول يا ضاع وما في غير الله ينولاه برحمته أو..» ولم يكمل الغفير رغم محاولات مسيحة وإلحاحه. ولم تمض بضع ساعات حتى كان مسيحة غارقاً في الحمى ورحّلوه إلى الخرطوم فوراً ليقضي عدة أسابيع بين الحياة والموت. قال مسيحة من يومها وأنا مش أنا.. فاهم؟ لم أجب. إنه لم يكن ينتظر جواباً. عرفت لماذا أتى معي إلى جبل مره.

الجبل المره

السيارة اللوري القديمة التي ستنقلنا إلى سفح الجبل كانت جاهزة في الصباح المبكر وواقفة أمام باب الفندق. اكتشفناها أمس في السوق. سيارة فورد قديمة موديل السبعينيات بصندوق كبير مفتوح وسائقها الذي يشترك مع أخيه في ملكيتها يبدو لطيفاً ومتعاوناً. قلنا إننا نريد الصيد في الجبل وحينما نظر إلينا مستريباً قلنا إن أدوات الصيد تركناها من العام الماضي في الجبل. كان مسيحة يتولى المفاوضات حسب اتفاقنا خوفاً من ان تفضحني لهجتي السودانية التي شابها الآن الصدأ من قلة الاستعمال.. اتفقنا على الأجرة ونحن نحتسي الجبنة معه في دكانته الصغيرة في قلب السوق. لم تكن أجرة عالية.. قال مسيحة إنها معقولة، وهكذا وضعنا حوائجنا القليلة في صندوق اللوري وجلسنا بجوارها رغم عزومته علينا أن يجلس واحد منا بجوارها. جلس المساعد معنا بينما كان مع السائق امرأة عجوز قال معتذراً إنها قريبته ومسكينة وتريد أن تصل إلى حلة قريبة في الطريق إن كان ما في مانع. قلنا ما في. كان السائق ينادي مساعده باسم «جلوكوز» حينما استفهمنا حكوا لنا قصة طويلة عن شرب المساعد لكميات من الجلوكوز (لم يقولوا لنا كيف حصل عليه ولماذا شربها) المهم لا أحد يناديه الآن باسمه الذي ولدته به أمه كما قال المساعد محتجاً. هو لم يصل العشرين بعد من عمره ومولود في هذه المناطق. قال السائق: إن الرحلة إلى السفح سوف تستغرق يوماً واحداً وإن الطريق الآن معقول على الأقل إلى السفح. قال إنه يعرف مدرساً في مدرسة هناك في أول حلة وأعطانا اسمه وقال إن

المدرس يستطيع مساعدتنا بتوفير الادلاء لنا. كان جلوكوز يحكي لنا عن المنطقة ويضيف من عندياته البهارات اللازمة لتشويقنا (أو لتخويفنا؟) ولكن حديثه شيّق. هو حكاء بالسليقة.

كان فرانك أيضاً حكّاء عظيماً والسفر علمه الكثير سافر إلى الهند ليتعلم اليوجا على يدي جورو شهير نسيت اسمه يتحدث دائماً عن أمه ولا يذكر أبيه وحينما أشرت أنا إلى ذلك جاوبني غاضباً لقد مات وأنا في الخامسة لا أعرف متى يكذب ومتى يقول الحقيقة ولكن ده مش مهم لعل فرانك الآن في نهاية السبعين ولكنه قوي ومشّاء عظيم يلف القاهرة على رجليه ويأتي بقصص مهولة عما رآه رغم أنه لا يعرف من العربية سوى حاجات بسيطة قال إن «نادي» صاحب عمره أنقذه في أسوان في ذلك الزمن البعيد حينما كان الولد شاباً نوبياً يافعاً وقبل أن يتحول الجنس إلى تجارة واحتراف مع السواح حينما ألقى فرانك بنفسه في النهر وهو يائس من الحياة ليقفز النوبي الذي لا يعرفه خلفه وينتشله ونادي الآن لعله في الأربعين أو الخمسين ومريض بالسكر وعنده غرغرينا في ساقه ويريد الأطباء في المستشفى الحكومي المجاني قطعها وإراحة دماغهم. لكن فرانك يقاومهم ويهرب به من المستشفى ولا أحد يبالي فهو مجرد نوبي فقير مصاحب خواجة مجنون والدكاترة عندهم حاجات أهم وينفذ نادي برجله بفضل فرانك رغم أن نادي منذ سنوات استولى على كتب فرانك وأشيائه وباعها على رصيف إمبابة حينما هرّبنا فرانك من مصر ساعة أن حكمت عليه المحكمة بالسجن ثلاث سنوات لكتابته

شيكات بدون رصيد ورغم أننا أصحابه جمعنا له المبلغ المطلوب للشيكات ليسدده للمرابي القبطي إلاّ أن نادي اتفق مع المحامي النصّاب الذي كلفناه بتولي القضية وذلك قبل اكتشاف نصبه اتفقا على اقتسام الفلوس التي تركناها عند المحامي ليدفعها للمرابي وهرب الخواجة ليعيش مع بوابه في عمارته السابقة في لندن وكان البواب يرسله في مشاوير خاصة بالسكان وبه وفرانك يرسل الخطابات من هناك يريد العودة وأنا أكتب لنادي الخطابات لفرانك لأنه لا يعرف حتى كتابة العربية ونادي متزوج ليس من واحدة فقط لكن من اثنتين واحدة من نسوان مصر وقريبته التي تعيش في أسوان حسب الأصول وكان فرانك أيام العز يعطي نادي عشرة جنيهات يومية لزوم المزاج والحشيش الآن كلاهما يتسولان لقمة في بيوت الأصدقاء وزوجة نادي المصرية تمنع فرانك من دخول بيتها وفرانك يكتب الروايات ويضعها في الشنطة فليس عنده حتى دولاب بخطه الكبير المخربش وقد سرقت واحدة وقرأتها واندهشت من حساسية العمل ومستواه العالي ولم أجرؤ على أن أقول له عن رأيي حتى لا أنكشف ونادي الحمار لا يعرف قيمة صاحبه ويحتقره لأنه الآن مفلس وفرانك يحكي الحكايات التي يخترعها أو التي يكتبها عن مصر وعن ناسها وتستضيفه المجموعة لينام ويأكل ويلعب اليوجا ويواصل حبه لنادي وليس له أحد في الدنيا هكذا يقول وجلوكوز يقول: إنه لم ير أمه منذ سنوات وأسأله يقول: إنه يحبها لكن ما عنده قروش يشتري بها الهدايا إذا أراد زيارتها ومكسوف أن يذهب بيده فاضية. وتمر السنون وأم مسيحة قابعة في القاهرة تخاف

من العودة إلى أهلها في السودان حتى لا يطبقوا عليها حد الردة لأنها تنصّرت منذ زمن سحيق وهي الآن جدة تتجاوز السبعين أيضاً وأهل هدى هاجروا إلى أستراليا فبعد موت الوالد أصبح البيت كله نسوان ماذا يفعلن في الخرطوم بعد أن أغلقت الحكومة النوادي وضربوا مرة أحد القساوسة الكاثوليك حينما كان يحمل زجاجة النبيذ الذي سيخدمه في المناولة وطبقوا عليه الحد وبائع الخمر القبطي في الأقصر يبيع الخمر العلانية تحت حراسة الشرطة لأن الجماعات هاجموا دكانه وهو لا يريد أن يغير من تجارته لعل السبب مجرد عناد وبعض المحافظين أصدروا القوانين بإغلاق محلات الخمور في محافظاتهم تملقاً للجماعات ومنع بعض المحافظين بيع الخمر في رمضان وبقية الأعياد الإسلامية لجميع أهل مصر بما فيهم المسيحيين، وإن سمحوا ببيعها للخواجات حتى لا يقولوا علينا متخلفين فارتفع سعر الخمر في السوق السوداء وظهرت المعامل الأهلية السرية التي تصنّعها وتغشها ومات بعض الشرّيبة وجلوكوز دبّر لا أعرف من أين زجاجة من العرق أخذنا نتبادلها بيننا وتركنا للسائق نصيبه كما أوصى. والمضيفون في شركة مصر للطيران امتنعوا عن تقديم الخمر للركاب وحينما رفعت إدارة الشركة قضية ضدهم كسبوها وعليك إذا سافرت على خطوطهم أن تحضر زجاجتك بنفسك وتطلب كوباية وحتة ثلج وتصب لنفسك وأنت مسؤول في النهاية عن مصيرك.

وطبعاً علشان السياحة وفلوس الخمرة من الأجانب الكفار حلال حتى لو كانت في شهر رمضان ومصانع البيرة ومصانع الخمرة ملك الحكومة وفي السودان تباع عيني عينك في السوق

السوداء وأهل البلد يحبون الشراب. والدعارة ممنوعة رسمياً لكن كل الناس تعرف العناوين والعلاقات هنا في غرب السودان مفتوحة وذلك بتأثير العلاقات القبلية القديمة حيث كان المجتمع الأموي وما زالت آثاره باقية فالرجال يسافرون بعيداً إلى الشمال للعمل وتبقى النسوة يعملن في الزراعة ويحملن بالأولاد الذين ينسبن إليهن وأحياناً إلى آبائهم الذين لم يعاشروا زوجاتهم منذ سنوات والموضوع لا يثير أية حساسية فقضية العذرية والبكارة ليست لها تلك الأهمية كما في الشمال حيث تمارس الطهارة الفرعونية التي تجتث بظر الأنثى من الجذور ويضع الذكر شرفه بين ساقي المرأة يفقده إذا ما فتحت المرأة التي قد تكون أخته أو قريبته من بعيد ساقيها بدون عقد الزواج. ورأيت بالأمس في السوق البنات الصبيات يسرن عاريات الصدور والمتزوجات والأرامل يسترن صدورهن وواحدة عارية الصدر كانت تركب جملاً محملة إياه بأوعية اللبن وذعر الجمل حينما أطلق لوري صافرته فجأة فتقافز وتناثر الحليب الأبيض فوق الصدر العاري الأسمر الناهد والناس يضحكون وما فيش مشكلة والبنات يجلسن على راحتهن في السوق يبعن ويشترين وصدورهن مكشوفة في الهواء الطلق والناس تنظر وتملي العين من نعمة الرب وهن لا يدعين الحياء إذا ما رأين الواحد يحدق في النهود والخصور هذا ما أعطته الطبيعة لنا وهذا ما سنقدمه لمن يعاشرنا معاشرة الأزواج ليس لدينا ما نخجل منه. وفرانك لا يخجل من حبه لنادي وأولاد الداخلية يتبارون في من يمتلك أكبر بتاع ومن الذي قد بلغ قبل غيره وينقلون خبراتهم بشكل عملي للجدد والصغار حتى يأتي القسيس إبراهيم ويقول من

الأحسن وضع حجر خلف الظهر لمنع الاحتلام فالجنس وسخ وخطيئة كما قال ربنا وهو يطرد حواء من الجنة بالخطيئة تحبلين وبالوجع تولدين وماذا عن الحور العين والمجدلية التي غسلت قدمي المسيح بالطيب وجففتهما بشعرها وبنت القسيس الفايرة الحلوة جسدها كمائدة عامرة بكل شهي يحيطها ويتذوقها ويمزمز فيها عدد من طلاب الداخلية حتى أولئك الذين لم يبلغوا بعد. ونور تمارس الأشياء وهي تراقب ما يحدث في المرآة التي وضعتها بجوار السرير بزاوية خاصة ثم تقوم بعدها تمارس التمرينات الرياضية عارية. وساندرا تحب أن تراقب دورين في الحمام ودورين توجهنا أنا وساندرا لتطبيق أوضاع قرأتها في الكاماسوترا والإله مني الذي يقف بكل جلاله وعريه الضخم داخل معبد أبي سميل حيث قرر القدماء ضرورة وجود إله للتناسل والإخصاب تبتهل إليه العاقرات كاشفات عن أعضائهن التناسلية طالبات الملء والأمومة. وذكره يقتحم إيزيس الإلهة الأم. والمحاربون القدماء والمصارعون الإغريق في بهاء عريهم ومجد جسدهم العاري والمبشرون يطلبون من الأهالي ستر أجسادهم أو على الأقل أعضائهم التي نطلق عليها نحن في لغتنا العربية اسم العورة لأنها من العار وحرام وعيب وخطيئة وخطأ وما يصحش ويصبح الوجه عورة والشعر عورة واليد عورة والساق عورة والقدم عورة والصوت عورة والضحك عورة والغناء عورة والثياب الضيقة عورة والتعليم عورة وعمل المرأة عورة والحب العلني عورة والظلام هو الأصل وشهرزاد تقول وتفعل كل شيء في الليل الستّار وحينما يهل الصباح تسكت عن الكلام المباح.

كان المدرس في كوخه يعد طعام العشاء وحوله مجموعة من الصبايا عاريات الصدر عرفت فيما بعد أن بعضهن تلميذات في مدرسته (التي كانت مجرد الفناء الذي يحيط بالكوخ يجلس الجميع على الأرض وهو واقف أمام السبورة الخشبية السوداء الكالحة). كان هناك أيضاً بعض الأولاد. البنات كن يحضّرن المريسة والطعام. والأولاد يتمددون على الحصير. رحب بنا وعزم علينا (وجلوكوز أيضاً) بمشاركتهم في الشراب وطعام العشاء حينما يجهز والذي كانت رائحته الطيبة تغرينا. أثار وصولنا دهشة متواضعة واهتماماً مماثلاً عزمنا على الجميع بالسجائر وقبلت البنات الدخان ودخنّ بتلذذ وهن يضحكن ويتحدثن بلغتهن وهي لغة الفور التي دخلتها بضع ألفاظ بسيطة من اللغة العربية. سألنا الأولاد عن الخرطوم التي لم يرونها. كانت لغتهم العربية التي بذل المعلم حياته لتعليمها لهم معقولة وإن كانت لكنتهم واضحة وخاصة في عدم استعمالهم لضمير المؤنث. بعد العشاء والشرب أعلن السائق عن رغبته في العودة وتودعنا بحب فلم نر منه سوءاً طوال الرحلة ونفحنا جلوكوز بقشيشاً طيباً وأوصيناه بزيارة أمه وضحك السائق وقال: الولد بالتأكيد سيشرب بها كلها. اطمأن السائق إلى أن المدرس سيتولانا برعايته الليلة وسيدبر لنا ما نحتاجه من رجال في الغد. كان المدرس يبدي سعادته بوصولنا لأنه حسب قوله مشتاق لناس يتكلم معهم غير هؤلاء البقر وضحك الأولاد والصبايا عن طيب خاطر. قال ثمة كوخ يمكننا أن نبيت فيه وأرسل بعض البنات لترتيبه وكنسه ووضع مصباحاً غازياً فيه وحملت البنات بشكل طبيعي أغراضنا

ونظرن إلينا بدهشة ونحن نحاول أن نحملها عنهن. بعد قليل أتت واحدة منهن لتقودنا إلى الحمّام وحينما أبدينا دهشتنا حيث إننا لم نطلب ذلك قال المدرس ببساطة هذه هي العادة هنا بالنسبة إلى الضيوف القادمين من المدينة وقال إنه أيضاً يرغب في حمّام هذا المساء. سرنا في الحلة التي لا يضيئها سوى القمر وبعض المصابيح البترولية في الأكواخ.. لكننا طوال الوقت نسمع لغطاً قادماً إلينا من ناحية النهر قال المدرس إن أهل البلد يجتمعون في الليالي القمرية ليشربوا المريسة على الشاطىء وأضاف يمكننا الانضمام إليهم إذا أردنا فيما بعد. الحمّام كوخ كبير في نهاية نصف دائرة الأكواخ وهو الحمّام المشترك للحلة كلها. من الداخل مفروشة أرضيته بالأحجار وفوق الحطب المشتعل وضعوا القدور الحجرية الكبيرة التي بدأ البخار يتصاعد منها. خلع المدرس ثيابه وأشار إلينا أن نفعل مثله والبنات يضحكن لارتباكنا وخجلنا من التعري أمام كل هذا الجمع. صرخ المدرس في الصبيان الذين تجمعوا للفرجة فتظاهروا بالابتعاد والخروج لكنهم انزووا في الركن البعيد يعلّقون ويراقبون. دعكت البنات ظهورنا وصدورنا. كان كل واحد منا تتعامل معه أربع بنات.. واحدة للظهر.. واحدة للصدر واحدة للماء الساخن وواحدة لتبريده. المدرس يتعامل معهن ببساطة ويعتبرهن غير موجودات. قال: إن له خمس سنوات هنا، وقد آن أوان نقله. قال: إنه مبسوط هنا لكنه يود أن يجد نفسه في المدينة حيث السينمات (الأفلام الهندية) والمقاهي والكهرباء وأهله وأصدقاؤه والصحف. قال: إن أصوله القديمة ترجع إلى هذه المنطقة من جهة جدته لهذا فهو يعرف

لغة الفور ولكن لا يريد أن يقضي حياته كلها في الجبل. هو في حوالى الثلاثين من عمره، ذكي الوجه ورقيق التقاطيع وإن كانت أنفه تحمل بعض السمات الزنجية.. البنات يواصلن عملهن بنشاط وهن يلغطن ضاحكات بلغتهن سألت المدرس أن يترجم قال جاداً إنهن قليلات أدب.. إنهن يقارنّ بين «حجم» ما يمتلكه كل واحد منا وبين بعض الشباب في القرية. اشترك الأولاد في النقاش وفهمنا من المدرس أنهم جميعاً يستغربون لأننا مطهّرين فقد كانوا يعتقدون أن عالم ما وراء الجبل عالم من الرجال الغلف.

الجبل المره ـ ٢ ـ

لماذا نتذكر فقط أحياناً الأشياء الحلوة في طفولتنا وهناك الأشياء المريرة وساعات الارتباك، هذه ألاعيب الذاكرة وانتقاءاتها فمدني لم تكن كلها الجنينة والسيسبانة والمرجيحة والقرود وصيد عصافير الجنة، كانت التحضيري قبل المدرسة الابتدائية حينما أخذني بابا من يدي وأنا في الرابعة أول مرة أبتعد نهاراً بأكمله عن البيت لأجلس في الفصل ومعي مخلاتي التي صنعتها ماما من الدمور ألبس الشورت الذي خاطته لي والقميص الدمور والجزمة الكوتش بدون جراب ماركة باتا وكنا نسميها الجزمة الباتا وعلّمتنا المعلمة الحروف والتهجّي ومعها عصاها الخيزرانية والفصل الذي كنت فيه أسمه الروضة والسنة التي بعده اسمها التحضيري معلمة الروضة عطوفة ومعلمة التحضيري شرسة كانت بنت أحد الأعضاء في الكنيسة وماما كانت تسميها العانس وفاتها قطر

الزواج ولم أعرف ماذا تعني سوى أن القطار فاتها وكنت
أخاف منها لأني كنت أسرح كثيراً أفكر في السندوتش الجبنة
البيضا الذي وضعه بابا في المخلاة داخل نصف رغيف من
العيش الشمسي الذي خبزته ماما في الفرن أو في الكلبة فلة أو
في العصافير فكانت تضربني بالمسطرة على ظهر يدي فأبكي
ولكني لم أشتكيها لبابا حتى جاء اليوم وكان فيه حصة إملاء
وأخذ الفصل كله صفراً وزعلت المدرّسة خرجت من الفصل
وأحضرت معها كل الأطفال من الروضة وزعقت فيهم تفوا
في وشهم فانطلقوا يرسلون بصاقهم علينا واختبأ بعضنا تحت
الأدراج بينما وقفتُ أنا وقلة نستقبل البصاق في وجوهنا
وحينما انتهى اليوم الدراسي ركضت طوال المسافة إلى البيت
واندفعت صارخاً باكياً وأنا لست بالطفل البكّاء فانزعجت
ماما وخرج بابا من مكتبته وهو نادراً ما يفعل هذا وحكيت ما
حصل وماما زعلت وقالت حرام ما يصحش دي خلقة ربنا
وبابا لم يقل شيئاً ولكنه في الصباح أخذني من يدي وذهب
بي إلى التحضيري وزعق في المعلمة أمام كل الأولاد والمعلمة
الأخرى وأنا كنت مبسوطاً وكان الأولاد الكبار في الشارع
ينتظروننا ليخطفوا برانيطنا التي تعلمنا أن نضع سيورها الجلدية
في أفواهنا ونطبق عليها بأسناننا وتعلمنا أن ندس الحجارة
المسننة في جيوبنا نقذف بها أولاد الشارع. وأخاف الظلام
وبابا لا يعجبه هذا فيأمرني أن أخرج من البيت والدنيا ليل
وليس في الشارع نور والشارع مليء بالسكارى والكلاب
السعرانة وكان يرسلني في مشاوير إلى عمي حبيب الناظر أو
إلى عمي أيوب أفندي أبو أتب كما كنا نسميه سراً فكنت

أجري طول المسافة وأنا أرتعش من الخوف ولكني كنت أوصل الرسالة وآتي بالرد والأولاد الكبار الذين كانوا يصاحبونني ويغرونني أن أركب معهم على دراجاتهم ليحاولوا أن يعملوا حاجات معايا بعد ذلك لكني كنت أرفض وأقاوم فيضربونني فأخمش وجوههم وأقذف بالتراب في عيونهم فيسبونني. والداخلية كانت سنواتها الأولى صعبة وأنا عمري يا دوبك حداشر سنة ولا أعرف أن أستحم بمفردي أو أين أضع غياراتي المتسخة صحيح كان معي أخوتي الاثنين الكبار وساعدوني أن أكون رجلاً لكني كنت أبكي في الليل كاتماً صوتي في المخدة وبلغت دون أن يعرفا فقد كان هناك ولد كبير معنا من السودان يجمعنا نحن الصغار ويغلق باب الغرفة ويستمني ويقول لنا ده شغل الرجال وحينما قلدته بعد ذلك عدة مرات لوحدي في الحمام أفاجأ بذلك الحريق الجنوني الذي شب في جسدي وأكرره وأنا في انبهار يقرب من التقديس أشاهد رجولتي لأول مرة وينتابني الإحساس بأني أول رجل في العالم. وبقية الأولاد الكبار من السودان كانوا يحمون الصغار من المصريين ويدخلون المعارك بدلاً منا ويصالحوننا مع الآخرين وفي الداخلية في السنة الثانية وبعد أن بلغت اعتقدت أني أصبحت راجل خلاص ولم أعد أهرع لأحد لأشتكي بل أكظم غيظي وأداري هزائمي لكني كنت لسه أتهته ويضحك الأولاد عليّ حتى أصحابي حينما يزعلون مني ويسمونني أبو نص لسان ولم يكن سوى مسيحة الذي يتهته أيضاً ولم نكن نسخر من بعض بل أخذنا نقرأ كثيراً ونتفنن في اختراع الحيل للانتقام وننتقل من السودان إلى مصر ويضحك أهل مصر من

لهجتي السودانية ويسمونني سوداني مقشر وسوداني بقشر إلى آخر الكلام الفاضي فالتجىء إلى أصحابي السودانيين في القاهرة ويجندني واحد منهم وأقرأ البيان الشيوعي وأنتمي وأوزع المناشير وأكتب على الحيطان شعارات اعترفوا بالصين الشعبية وحينما يضعون أول سلسلة حديدية في رسغي أكتشف أنها مصنوعة في الصين الشعبية وقبل ذلك وبعد ذلك يكون الجسد هو بوابة الأمان وتحقيق الذات وبدلاً من الكنيسة يأتي الحزب والبذل والعطاء وإظهار الرجولة ولكن بعض البنات والنساء يعطين دون انتظار لمقابل بعضهن أمهات وبعضهن بنات ما زلن فيرجعون إلى الواحد ثقته والعالم من حولي ينهار والإشتراكية تصبح مودة قديمة وعيب وسبة والبولنديون في أول دولة اشتراكية أزورها يضحكون عليّ ويتعاملون معي باعتباري مغفل كبير لقضائي سنوات من عمري في السجن في سبيل مبادىء يريدون هم التخلص منها فتخيل خيبة أملي وحسرتي وأنا في أول دولة اشتراكية لي بعد السجن والصحراء والسويسريون الذين أمسح لهم مراحيضهم باعتباري خادم في درجة أحسن شوية من العبد لكني كنت أريد أن أعرف أيه الحكاية في النظام الرأسمالي وعرفت وفهمت.

الجبل المره ـ ٣ ـ

الاستيقاظ المبكر ورائحة الحب تعبق جو العشة. الهدوء المحبب. العصافير تزقزق بنغمة خافتة. رائحة الزهر والشجر ومياه الغدير والبشر ممتزجة بذلك الشعور الغريب بالتوحد الذي يقدمه الجبل ونخرج نستكشف ما حولنا. نتجه إلى مجرى

المياه. هناك يقبع المدرس الذي يبدو أنه أعطى نفسه ومدرسته عطلة وجلس تحت ظل شجرة يقرأ الصحف والمجلات القديمة التي أحضرناها معنا. أفراد العائلة وخاصة الصغار من الأولاد والبنات يقفزون إلى المياه من فوق صخرة عالية عراة وهم يصيحون ويلغطون. الكبار ينصرفون إلى أعمالهم اليومية من غسل الثياب وري الزرع وبناء المزيد من العشش والبعض اكتفى بالمراقبة وشرب المريسة مع أننا ما نزال لسه بدري. عزم علينا المدرس أن نجلس معه ونحتسي الجبنة. نجلس ونفتح بحذر موضوع الانتقال إلى أعلى. يبدو غير مهتم بتلهفنا ولعله يريد أن يبقينا معه بضعة أيام «ليستمتع» بصحبتنا. نستطيع أن نثق فيه ويمكن أن نقول له بالتدريج على مشروعنا.

فاجأتني يمامة بطلب الطلاق وأنا الذي كنت أعتقد أن لي اليد العليا عليها ألم آخذها بنتاً مغمضة وأعلمها الحياة والحاجات والمحتاجات وآلاعيب الجسد وفنون الغرام كنت أعتقد أنها في جيبي لكن البرقية التي تسلمتها منها في البداية لم تكن توحي بشيء وهي في بغداد وأنا في بيروت كانت تبدو كاستغاثة احضر بسرعة وبعدها برقية أخرى أرجو حضورك بأسرع ما يمكن لأن هناك مشاكل وأخذت الطائرة إلى بغداد حيث تركت يمامة بعد عودتنا من الحبشة وحينما ذهبت إلى بيت أهلها حيث تعيش مع أننا اتفقنا أن تتركهم وتعيش مستقلة وأرسلت لها النقود بعد ان اتفقنا مع أسرة مصرية من أصدقائنا على أن تؤجر يمامة منهم غرفة وكل هذا لم تنفذه الهانم وحينما خرجنا لنجلس لوحدنا لنتكلم قالت: طلقني. ولم أفهم في البداية لكني بدأت أستوعب وسألتها:

ليه؟ فقالت: عالمك مش عالمي. لكني سألتها ببلاهة: إن كان هناك رجل آخر وأذكر أنها نظرت إليّ نظرة شماتة وقالت بالفصحى حاشاي. ولم أكن متأكداً أني أريد أن أضحك أو أن أصفعها لكني لا هذا ولا ذاك بل قلت لها أعطني سبباً آخر غير كلام المثقفين وأحسست بالخجل فأضفت أوكيه سأعطيكِ مهلة ثلاثة أشهر وإذا كنتِ مصرّة خلاص نتطلق ودفعت حساب ما شربناه وأوصلتها للبيت وذهبت ونمت عند بعض الأصدقاء وطول الوقت أحس أني عشت هذا الموقف من قبل وبالطبع مع بعض الاختلاف لأن بربارة كانت صادقة وواضحة وقالت على علاقتها مع الولد البولندي. هذا كان بالطبع بعد رفضها القدوم إلى بغداد وحينما أرسلت إليها برقية غاضبة ردت هي بخطاب مطول تطلب الطلاق وبالطبع لم تذكر حكاية الولد البولندي ساعتها بل عددت الأسباب المهمة في رأيها للطلاق بدون ذكر حكاية العالمين والثقافتين المختلفتين. لكن من تفاهة الأسباب نسيتها وأعطيتها مهلة أيضاً ويبدو أني متخصص في حكاية المهلات التي لا تأتي إلاّ بالطلاق الذي لعلي كنت أريده في أعماقي لأني كنت أعتبر علاقتي بأي واحدة لا تريدني تكون هي اللي خسرانة ومع أن طلب بربارة الطلاق غير متوقع لكنه أيضاً غير محزن ولا هو نهاية العالم أيضاً فحينما عرفتها كانت مجرد بنت غلبانة أنهت لتوها دراستها الثانوية وتستعد للالتحاق بالجامعة وأذكر بعد ما نمت معها أول مرة سألتني بحياء إن كان من الممكن أن تشوفني مرة ثانية فأجبت أنا باستعلاء ولا مبالاة حقيقية ممكن والواحد أيامها في وارسو ما كانش ملاحق على البنات لكنها لزقت فيّ

حتى تزوجنا رغم معارضة مكتب الزواج التابع للدولة والسبب واضح ومعلوم وهو أني أجنبي من العالم الأسود وأنا الذي قضيت في السجن السنوات علشان حكاية العدل الاجتماعي واعتقدت أن التفرقة العرقية هي نتاج العالم الرأسمالي فقط أريد أن أهدمها لكن محامي شاطر بولندي صديقي يقترح رفع قضية على مكتب الزواج ونكسب القضية لأن الدستور هناك ممتاز بس المهم التطبيق وبالطبع لا يجرؤ سوى مجنون مثلي من العالم الرأسمالي على رفع قضية على الدولة الاشتراكية بدافع العند والفضول وانهزمت الدولة لعله من فرط المفاجأة مين عارف وبربارة كانت صغيرة وغشيمة فهي باعترافها بالعلاقة مع الآخر وغيره تعاملت مع نقطة حساسة عند معظم الرجال وأنا منهم فإذا غفرنا لهن فكيف سيصبح موقفنا ونحن كنا نظن أننا الأسود المزمجرة في غابة اللبوءات وإن كنا خد بالك نمارس النط على النسوان في الوقت نفسه بل وأشركت بربارة زمان معي في لعبة جنسية مع صديقة لها وكنت أنا ألعب ديك البراري لكن الوضع اختلف الآن علشان كنت سأقول لبربارة ولا يهمك يا جميل مغفورة لك آلاعيبك إذا غفرت لي حواديتي وأنا الذي كنت أقول لها عن أهمية اللعب والاكتشاف الجسدي وأشركتها معي في ترويكا مع صديقة لها لكن خسارة كنت أيامها غيري الآن أحس بالمرارة والإحباط وكانت ميشا أيامها غير ميشا التي تعطيني فراشها لكي أنام مع صاحبتها وحينما نرغب في الصداقة والصحوبية مع نسوانا نكون كبرنا وأصبحنا نحن وهن حقائب متغضنة مليئة بالذكريات لا يريدها أحد مثلما أضعت الجنة التي فتحت

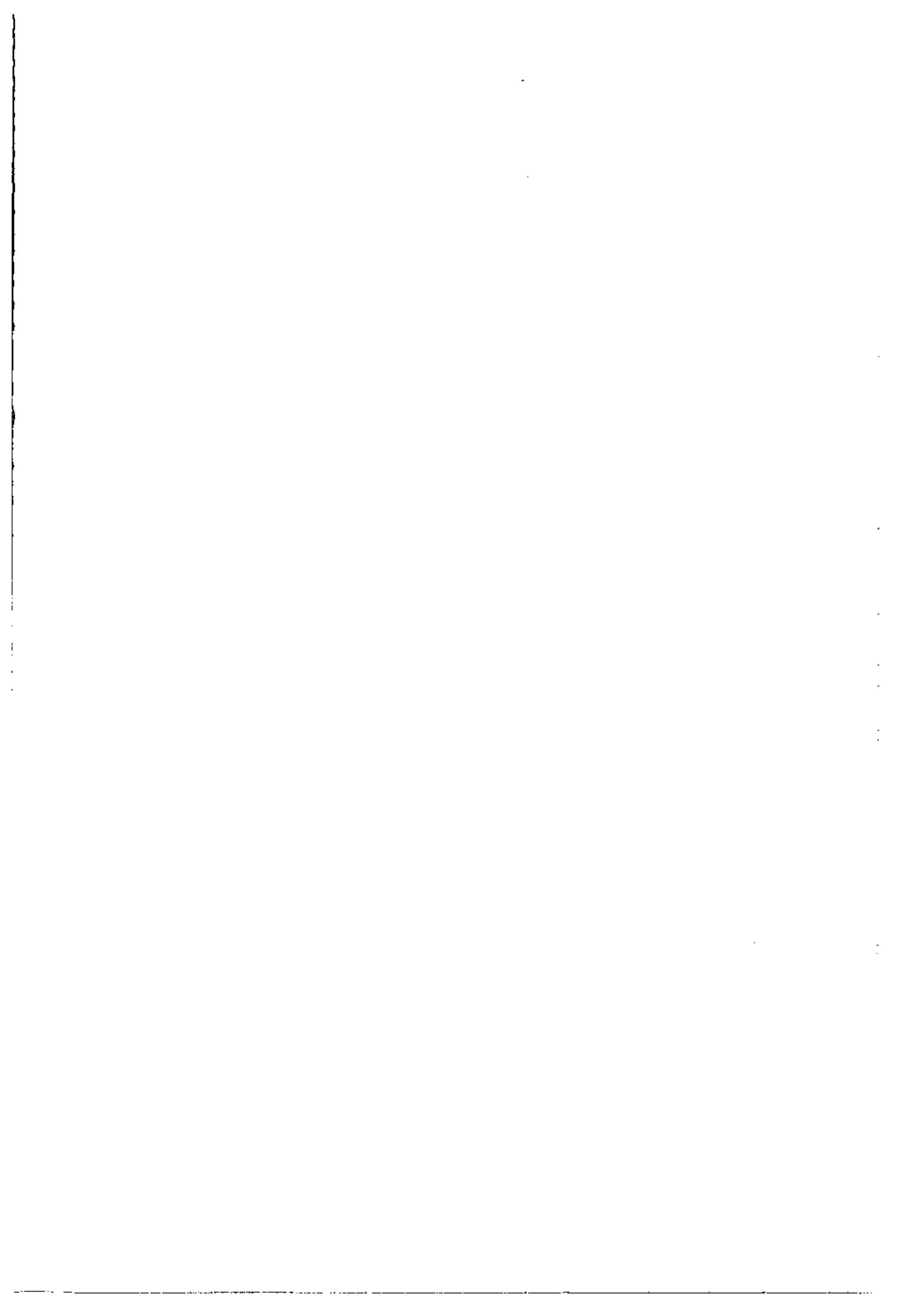
لي بابها مع الشقيقات الثلاث بنات عمي جورج لأني كنت مستعجل وأفكر الآن على إيه كنت مستعجل فلا أذكر وأحس بالقهر ويبدو أني واحد من أولئك البشر الذين يكبرون متأخرين ولا يتبينون الفرص التي تكون تحت أنوفهم وأضحك بأسى وأنا أتذكر يوم تسحّبت مع نانا في سيارتها إلى أطراف الخرطوم هي قالت إنها تريد أن تفسحني وساقت السيارة القديمة إلى الخلا تتجول بها بعيداً عن العمران وأنا أتجول بيدي في جسدها لتقف السيارة في منتصف الخلا ترفض الحركة وترتعب البنت وتبدأ في الابتهال للعدرا مريم وتقول حرّمت خلاص يا ست يا عدرا مريم ما عدش أعمل كده تاني ويبدو أن العذراء استجابت لها إذ ظهر لوري وتوقف ونزل السائق وعالج المحرك وأداره بعد لحظات ورجعنا بالسلامة وبالطبع نسيت نانا عهدها مع العذراء مريم وساعدتها أنا على ذلك والبنات الثلاث عارفات بما يحدث معي ومني لكل واحدة منهن لكن المسائل ماشية حتى لو حاولت أنا أو حاولت واحدة منهن الاستفراد. وميشا بعد سنوات من الصمت ترسل لي خطاباً من السويد وأنا موجود في هولندا بعد أن تذكرتها وأرسلت لها أسألها عن أحوالها حيث تعيش مع ابنتها وهي جدة وتقول لي إنها وجدت الطريق الصحيح وكرّست نفسها لخدمة الكنيسة ومساعدة الفقراء وترفض دعوتي للقاء وتقول إنها لا تضمن نفسها لأن الروح قوية أما الجسد فضعيف ولكن هل كان هذا ينطبق على بابا في سنوات مرضه ويأسه وقنوطه حينما أدار وجهه للحائط ولزم الصمت وأي جسد نحمله ونحن نعدّي الخمسين وداخلين على الستين وأي روح بقيت لنا

أو تهوم حولنا والأجساد في صبرا وشاتيلا منتزعة أرواحها وملقاة فوق بعضها وقد خرمها الرصاص وخد عندك في الحبشة وشيلي ومعسكرات الاعتقال باسم الطبقة العاملة كأن كل التضحيات راحت بيلاش.

كنا نتمشى أنا ومسيحة نحاول استكشاف المنطقة لكن يبدو أن الكلام أخدنا إذ تهنا في طريقنا للعودة. أخذنا ندور في دوائر وأحسسنا بالفزع. قال مسيحة تهنا، ضيّعنا الدرب. سمعنا خواراً من بعيد.. بالطبع فنحن في منطقة البقّارة. تحركنا باتجاه الخوار. نتحرك بحذر فلا نعلم ما الذي سوف يفاجئنا. التقينا بالقطيع ومعه مجموعة من الرعاة. في البداية لم نتبينهم جيداً بسبب خوفنا وارتباكنا وحينما اقتربنا منهم وجدنا أن معظمهن نساء. معهن بضعة صبية. راقبونا بحذر ونحن نقترب. ألقينا السلام فردوا علينا بلغتهن العربية المكسّرة: أعلنّ انهن سيقدننا إلى الدرب الصحيح، لكنهن سيقيلن قبل ذلك لأن الحر شديد حسب قولهن. وهرعنا إلى الفروة المفروشة في الظل تحت أشجار الصمغ. حينما استيقظت لم أجد مسيحة بجواري. لعلي نمت حوالى ساعة. شربت اللبن الرائب وقامت الفتيات بصنع الشاي. الصبية رقدوا بجوار القطيع الذي قيّل الآن من الحر. المكان كله يفوح برائحة البقر والشجر والصمغ مختلطة بالرائحة المنبعثة من أجساد الفتيات. العرق والصحة والدلكة والتراب. استطعت أن أتذكر أين أنا وفهمت من ابتسامات البنات والكلمات العربية القليلة أن صاحبي في الخلا من الناحية الأخرى من الغابة. في الحقيقة لم أحس بالقلق بل بإحساس طاغٍ بالأمان والسلام. قادوني إليه. كان يتمدد على

فروة خروف وقد لف جسده بقطعة صغيرة من القماش مسلماً إياه لفتاتين تدلكانه. أشار إليّ أن أجلس بجواره. كان يتصرف كأنه يعرف البنات من زمان. هو يحكي بالعربية التي لا يجيدونها وهن يلغطن بلغة الفور التي لا نعرف منها سوى كلمات محدودة ورغم ذلك يبدو أن قدراً كبيراً من التفاهم يسود المكان ويلف الجميع بالمرح. خالست النظر إلى الفتيات. ملابسهن رثة فقيرة وممزقة. حافيات لكن الواحد لا يستطيع أن يخطيء في تبين جو الراحة والهدوء الذي ينبعث منهن. أهو الجبل الذي يعطيهن ذلك الشعور بالاكتفاء أم هي حياتهن المغلقة داخل مهام البقاء اليومية العديدة والمتشابكة؟ أشارت البنات إليّ فخلعت ثيابي ولففت حقويّ بفضلة الثوب المهلهل الذي أعطتنيه. يد قوية خشنة تستولي على جسدي. يد مدربة تعرف طريقها وتقتحم مناطق التوتر تحت جلدي. لم تقرب اليد من منطقة رجولتي لكني أحسست بأمواج دافقة تحيط بخاصرتي وأسفل بطني تنتشر وتتصاعد في مسامي وجلدي وعضلاتي ترفع جسدي من فوق الأرض كأنه يسبح فوق ماء وعسل لتتلقفه مرة أخرى اليد والجسد يمسدانه داخل حضن عارٍ حار. الفتيات كأنهن يمارسن طقساً خاصاً بهن لا نستطيع نحن الرجال اختراقه. كن يهمهمن مغنيات بصوت خافت بلغتهن القديمة تتمايل أجسادهن بإيقاع على موسيقى اللغة والترتيل. العرق يتحدر فوق النهود العارية السمراء مشكلاً جداول دقيقة متراقصة من التراب والأريج واللهاث المكتوم. قال لي مسيحة بعد ذلك أن الغرباويات يشتهرن بطقس التدليك هذا وإن الفتيات يتعلمنه منذ الصغر وإنهن حينما

يبلغن ينضممن إلى معسكر خاص بهن تشرف عليه النساء يعلمنهن أسرار الجسد ومفاتيحه والوضع نفسه بالنسبة إلى الصبية المراهقين الذين يتولى الرجال قيادتهم النظرية والعملية عبر اللذة والألم. أضاف إنه من الطبيعي بعد ذلك أن تتكون شبكة من العلاقات المتداخلة بين إناث القبيلة ورجالها وإنه من المعروف هنا في الجبل أن الشخصية القائدة هي الأنثى وليس الذكر وأن المرأة من حقها أن «تتزوج» من أكثر من رجل لأنها العاملة في الحقول ومصدر الدخل الأساسي وأنه منذ سنوات ليست بالبعيدة كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم.. فنحن ما نزال في مرحلة المجتمع الأموي بعد!



قادتنا الفتيات إلى الدرب
الذي كنا قد ضيعناه.

الجبل المره

نقضي في الجبل أيامنا في كسل مريح ما عدا بعض المهام التي كلفنا بها المدرس الذي تناسى رغبتنا في الصعود إلى أعلى ولعله استجاب لرغبتنا السرية التي لم نبح له بها في استمرار الوضع كما هو عليه فنحن الآن لنا كوخنا الخاص بنا وقطعة الأرض الصغيرة التي نفلحها وفقدنا تدريجياً اهتمامنا بحساب الأيام وما معنا من النقود يمكن أن يكفينا لبضعة أشهر. نقضي بعض الساعات كل يوم في المدرسة نحاول أن نقود «الطلاب» إلى بعض مفاتيح المعرفة مثل كروية الأرض وقانون الجاذبية إلى آخره وهي معلومات لا تضر ولا تفيد أيضاً فهم يعرفون مسالك الغابة وكهوف الجبل وحكمة تعاقب الفصول وأسرار الجسد وأهداف التناسل ويميزون بين النبات السام وبين الترياق ومع ذلك فنحن نواصل إعطاءهم المعلومات ولعل هذا راجع إلى بقايا أوهامنا القديمة بأن يكون للإنسان هدف نبيل وأن ينقل نشاطه المعرفي للآخرين حتى لو لم يطلبوا ذلك منه. نبدأ النهار ببطء. نشرب الشاي ونفطر ونحتسي الجبنة. نذهب بعد

ذلك إلى مجرى المياه. نخلع ثيابنا ونسبح. نجلس عراة في الشمس لنجفف أجسادنا وننتقل بعدها إلى الظل. ما زال الوقت بدري على المدرسة فالطلاب يمارسون في الصباح أعمال حياتهم من رعي وزرع وخلافه. نتعلم بعض العبارات الضرورية من لغة الفور من بعض البنات اللاتي بدأنا نعرف أسماءهن الآن. بعد ذلك ينتقل كل منا إلى شجرته حيث اختار كل منا شجرة أصبحت مكانه المختار يقضي فيها الوقت الذي يريده بعيداً عن الآخر، أنا أكتب، ومسيحة يقوم بدراسة مقارنة بين الكتب المقدسة التي وجد نسخاً منها هنا. أتذكر أنه كان في بولندا وبعد ليلة سكر طويلة وبنات وغالباً ما تكون ليلة السبت فأجده قد استيقظ مبكراً كعادته وتحمم وجلس يقرأ في الكتاب المقدس وأمامه زجاجة الفودكا يحتسي منها. وحينما كنت أمازحه بهذا التناقض كان ينظر إليّ باندهاش متألم ويقول لي بصبر: أصلك مش فاهم. وكنا نترك الموضوع على حاله وكل منا في حاله. إنه يسجل الآن ملاحظاته ويدخن. هواء الجبل يعطيني ذلك الإحساس المستمر بالنعاس. حينما قلت هذا للمدرس شرح لي حكاية الأوكسجين النقي في الأعالي، لكنه أكد لي أني سوف أتجاوز حكاية النعاس هذه بعد أيام قليلة. المهم أنا في أحسن حال. بالأمس تحادثت مع مسيحة عن الخطوات المقبلة في مشروعنا. اكتشفنا أننا لا نعرف بالضبط ماذا نريد وإلى أين نتجه. لكن هذا لم يفت في عضدنا كما يقولون. إحساسنا بأننا قد وصلنا على الأقل إلى منتصف الطريق رغم كل المعوقات يعطينا الشعور الخاص بالتفوق والإنجاز. لكن بقيت حكاية الحلم وحينما قلت لمسيحة

أني أريد أن أشوف نهايتها قال لي لعل النهاية تأتي إليك في مطرحك هنا دون أن تسعى إليها. ولما كنت لا أعرف سوى البداية فقد قلت لنفسي وماله فأنا مش خسران حاجة.. لكن المدرس رغم تجاهله المتعمد لتقديم أية مساعدة منه أو من خلاله لكي ننتقل من مكاننا يبدي اهتماماً متزايداً بفكرة التجوال في الجبل ثم الرجوع إلى «قاعدتنا» كما يسميها، أي إلى الحلة التي نقيم فيها الآن. بالطبع لسنا في عزلة تامة عما يحدث في الجبل.. فالأخبار تنتقل شفاهياً بوساطة التجار الصغار والزوار الذين يتنقلون بين حلل الجبل عبر الدروب التي يعرفونها.. والمعلومات واضحة فالعسكر من كافة الأطراف أي حكومة البشير والجبهة الإسلامية. المتمردون، وقطاع الطرق، والمرتزقة. كل منهم يحمل سلاحاً، يحكمون قبضتهم حول الجبل من مداخله المعروفة.. لكنهم يتحركون ببطء بسبب المعدات الثقيلة وبسبب خوف وحذر كل طرف من الآخر. لكن كل طرف يريد أن يستولي على الجبل. وهكذا تتضاءل يومياً إمكانيات التحرك في الجبل بالنسبة إلينا بسبب الأخطار. حتى المدرس رغم تذمره اليومي التقليدي من وضعه غير الحضاري كما يطلق هو عليه، إلا أنه يمارس حياته اليومية بحماسة وشغف ويقودنا بحديثه وحكاياته داخل الحيوات السرية للجبل وأهله.

اليوم مثلاً أسمع طلقات الرصاص واضحة لأن الريح تهب من اتجاهها.. من الغرب. كنا نسمعها بشكل متقطع في الأيام الماضية. لقد سببت بعض الاضطراب في الجبل. لكن المدرس قال لنا إن أهل الجبل قد اعتادوا منذ القدم على محاولات

الغزاة الناجحة والفاشلة للاستيلاء على الجبل. قال إنهم يعرفون ماذا سيفعلون ساعة الجد.. فهناك الكهوف السرية التي لا يعرف غريب طريق الوصول إليها.. كذلك مركز المراقبة والإنذار المبكر كما أسماها. وحينما لمح الجزع في عيوننا؛ أن يتركنا أهل الجبل نواجه الغزاة بمفردنا وليس معنا سلاح سوى الكتب المقدسة التي يقرأها مسيحة، ومذكراتي.. قال إن أهل الجبل لن يتركونا أو يتركوه ـ فهو غريب مثلنا ـ وسوف يأخذوننا معهم إلى مخابئهم.

وهكذا فرغم صوت الرصاص فإني أعرف طريق الأمان بعكس أيام بيروت حينما كانت القنابل الإسرائيلية لا تترك للواحد أي منفذ للنجاة إلاّ الصدفة.

الأيام المقبلة مليئة بالاحتمالات المثيرة رغم الإحساس الخفيف بالخطر لكن بالرغم من هذا الإحساس فلن نترك الجبل إلاّ بمزاجنا.. لقد تركنا العديد من الأشياء قبل ذلك بالرغم منا. الوضع هنا مختلف. أرى البنت التي اختارتني في الأسبوع الماضي تقبل تجاهي ومعها بنت لم أرها من قبل. أسمع ضحكاتهما وأرى أشعة الشمس تتراقص فوق النهود العارية متناغمة مع إيقاع خطوهما الحافي. تقول: ..صاحبتي؛ هامسة بخجل.. هذه أختي. تجلس الأخت بجواري بينما أتساءل أهي أختها أم أنها رفيقتها الحميمة؟ البنت مليحة عفية وريحتها حلوة قلت لصاحبتي متظاهراً بالجزع وأنت أين ستذهبين؟ ضحكت البنتان، وقالت هي لن أذهب إلى أي مكان، سأكون معك ومعها وأشارت إلى البنت التي أضافت: نحن لا نفترق. قلت لهما بحسم: أريد أن أواصل الكتابة لكن نلتقي بعدين.

أتظاهر بمواصلة الكتابة لكنهما لا تبرحان المكان وتقول البنت الجديدة: «إللي بتكتبه ده مهم؟».

يتمدد في الظل الرطب ملقياً بالأوراق جانباً. تختلط ضحكاتهما بحفيف الشجر.

يستمع إلى صوت ضحكاتهما ممتزجاً بريح الغابة الخفيف وصوت الرصاص الذي يأتي من بعيد.. ويقترب.

مدينة هابو ــ غرب الأقصر

١٩٨٢

أمستردام ــ نوفمبر ١٩٩٣

بعض مما كتب عن رواية

« بيضة النعامة»

* * *

○ رواية تنتهك الحدود المرسومة في الكتابة

«الأهرام» إبراهيم فتحي

○ أفق جديد في أدب السيرة الذاتية

«الوسط» عبد الفتاح خليل

○ آفاق جديدة للكتابة العربية

«صباح الخير» علاء الديب

○ إننا بإزاء عمل فذ في تاريخ الكتابة العربية . . تحرير الروح عن طريق الجسد

«أدب ونقد»

○ واحدة من الروايات التي تؤسس لنفسها وثائقية خاصة

«الحياة»

○ وعن الترجمة الفرنسية لبيضة النعامة ، كتب الطاهر بن جلون في صحيفة «لوموند» :

«هذه كتابة نادرة في الأدب العربي الحديث وكاتبها مجنون . . مجنون بالنساء والحياة!» .

MADBOULI BOOKSH

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة